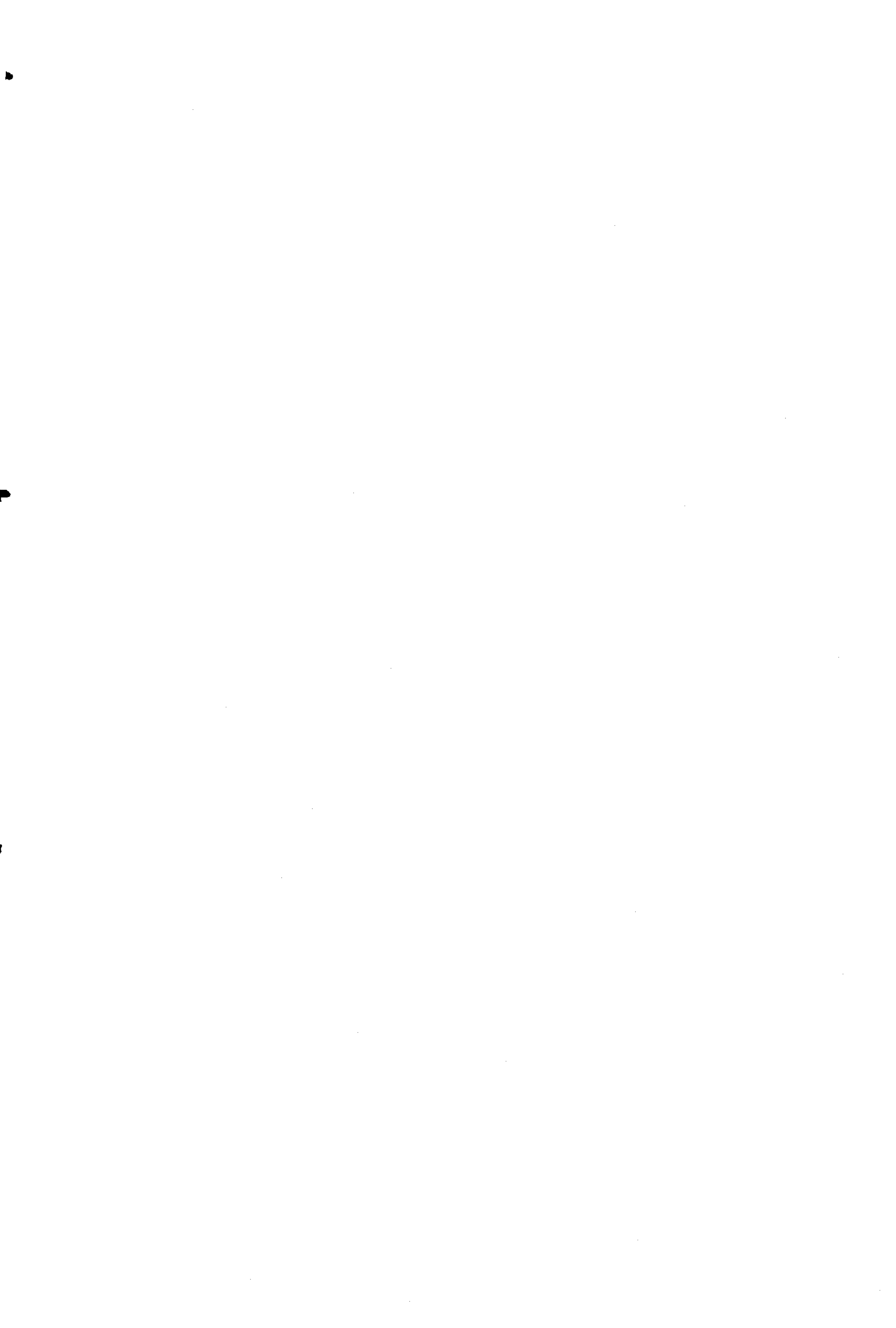


عزيز ضياء

جسور إلى القمة

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم



الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

جسور إلى القمة

مقدمة

ليست هذه الجسور أكثر من مجرّد وسيلة صغيرة ومضغوطة أردت أن تزودّ (المتعلّم) بفكرة ـ ومجرد فكرة ـ عن هؤلاء الذين وضعوا لبنات فى معمار حضارة الإنسان .

وهي كإسمها (جسور) يمكن أن ينطلق عبرها (المتعلّم) إلى القمم ، إذا أحسّ أنها جديرة بالمزيد من الاكتشاف .. واكتشاف القمم في معمار حضارة الإنسان مطلب ، لابد أن يتوفر له الحافز ، من التشوّق إلى المزيد ، إلى جانب الوقت الطويل ، ينقضي في العكوف على دراسة كل قمة ، فيما كتب عنها وسجّل لها ، في الكثير من المراجع في أكثر من لغة أو لغتين أحيانا ، وفى الأمّهات من كتب التراث ، ودوائر المعارف .

والنظرة إلى الوقت تختلف بإختلاف طبيعة الحياة التى يعيشها الفرد .. إذ قد يراه بعضهم أغلى وأثمن من أن ينقضي في قراءة مرجع أو مراجع عن واحد من هؤلاء الأعلام الذين ذهبوا فيمن ذهب من الغابرين .. بينما يراه آخرون ، كنزاً ثميناً يتأثّم ان يبدده في غير الاطلاع والبحث والمتابعة ، حتى وان لم يكن معنياً بالكتابة والتأليف .

فهذه الجسور ، محاولة للتوسّط ، بين من لا يجد الوقت ، ولكنّه لا يستغني عن معلومات عامّة عن هذه القمم ، وبين من يذلّل له الجسر الصغير ، سبيل إشباع تشوّقه إلى المزيد فيتفرّغ للبحث والإطلاع .

وهذا هو الجزء الأول ، الذى لم أجد ما يمنع أن تصدره مؤسسة تهامة اليوم ملتزماً بتزويدها بالجزء الثاني ، حين أفرغ لتنسيقه وجمع شتاته المبعثر في عدد من الكراريس والأضابير ، ثم .. وهو الأهّم ، حين أجد كاتب آلة يخفف عني عبء طباعة المواد ، طباعة نظيفة خالية من الأخطاء ، التي كثيراً ما أكتشفها بعد فوات الأوان ـ أعني بعد أن يتم طبع كتاب كامل ـ فلا يسعني إلاّ أن أضرب كفاً بكف ، وأردد :

(لا حول ولا قوة إلا بالله)

وبعد ، فقد وضعت كلمة (المتعلّم) بين قوسين ، لأفرّق بينه وبين (المثقّف) الذى أشعر ، أو ظللت أشعر ، وأنا أكتب هذه الجسور ، أنه مستغن بثقافته عنها ، وحتى عن اضعافها كماّ وكيفا . فإذا وجد فيها هذا المتعلم ما يفتح شهيتهُ للاستزادة ويغريه بالعكوف على قراءة بعض كتب التراث ، ودوائر المعارف ، وغيرها من المراجع الكثيرة فذلك هوأول الطريق إلى أن يصبح ذلك المثقف الذى يستغنى عن الجسور .

جدة في ٣٠ ربيع الأول عام ١٤٠٢ هـ

الموافق ٢٥ يناير عام ١٩٨٢ م

عزيز ضياء

احمد بن حنبل

اشتدت الخصومة بينه وبين أهل الدنيا والسلطان ومن تشتد الخصومة بينه وبين هؤلاء ، فليأخذ نفسه بالجفاء به أينما ذهب ، وكيفما اضطرب وبالوحشة والنفور يلقاهما اينما حل أو ارتحل . وبالهمس والشكوك والمخاوف تتربص به فى كل لحظة من ليل أو نهار .

وهو لا يأبه لشئ من ذلك كله . وانما يأبه لعقيدته ولما يؤمن به فيلتزم المسجد . يطيل القيام . ويطيل السجود ويطيل الدعاء والنجوى . وتنهمر الدموع من عينيه من خشية الله لا خشية من الجند والأعوان .. فاذا فرغ من صلاته . ينصرف الى مسبحته . فلا يزال يسبح الله حتى ليحس من يريد التحدث اليه أن لا سبيل الى الاقتراب منه . وهو فى رحاب الخشوع لله والتضرع لمولاه .

ويعرف المؤمنون محنته والخصومة القائمة بينه وبين أهل الدنيا والسلطان فيصرون على أن يجلسوا اليه وأن يصغوا الى حديثه . فلا يبرحون مكانهم من المسجد فى انتظار أن يفرغ من تبتله ونجواه . فاذا أحس بوجودهم والتفت اليهم . يرونه وهو يأخذ من ثيابه كسرة خبز جافة . يضعها فى اناء فيه ماء . وينتظر قليلا حتى تلين . فيغمسها فى الملح ثم يأكلها وهو يحمد الله .

فاذا تحدث الى من تحلقوا حوله . فهو لا يتحدث الا مستندا الى الثقاة من الرواة . وهو يحفظ من هذه الأحاديث الصحيحة التى تأكد هو من صحتها ما لا يحصى . فاذا طرحت عليه المسائل . فما أوسع ما يفتح من رحاب الفكر وما أجل ما يعالج من أسرار

الفقه والقضاء .

هو الامام أحمد بن حنبل . لا يكاد الناس يبرحون المسجد الذى يلتزمه حتى يأخذ هو فى الصلاة مئات الركعات وفى الضراعة والدعاء الى الله فلا يصرفه عنهما صارف من مشاغل الدنيا . لأنه انقطع عنها وخرج من زخرفها وغرورها الى رحاب الله .

ولكن أهل الدنيا والسلطان . لا ينصرفون عنه . ولا يتركونه وشأنه فهم يقبلون عليه . ويطلبون اليه أن ينطلق معهم الى شرطة السلطان فينهض ويمضى معهم الى حيث يريدون .

ويعلم الامام الجليل . كما يعلم الناس فى أيامه . أن الخلاف بينه وبين السلطان ينذر بشر مستطير وبلاء عظيم . فهو لا يتزعزع عن ايمانه بأن القرآن قديم . والسلطان يأخذ برأى من يقول أنه حادث مخلوق . ويريد الناس والعلماء منهم على الأخص . على أن يؤمنوا بما يؤمن هو به . ولا يجهل الامام التقى أن العلماء قد آثروا العافية فسمعوا واطاعوا . ولم يبق فى الساحة الا هو . متمسكا بعقيدته . ومعه نفر قليل . لا يأبه السلطان لهم كما يأبه لأحمد بن حنبل الذى لا ينسى الخليفة أنه قد أبى أن يلى قضاء اليمن فى عهد أبيه هارون الرشيد .

ولنسمع حديث ميمون بن الأصبع الذى رأى امتحان ابن حنبل فهو يقول : كنت ببغداد .. فسمعت ضجة فقلت . ما هذا .. قالوا أحمد بن حنبل يمتحن .. فأتيت منزلى فأخذت مالا له خطر . فذهبت به الى من يدخلنى المجلس . فادخلونى .. فاذا بالسيوف قد جردت . وبالرماح قد ركزت .. وبالتراس قد نصبت .. وبالسياط قد طرحت .. فالبسونى قباء أسود وأوقفونى حيث أسمع الكلام .. فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسى .. وجئ بأحمد بن حنبل فقال أمير المؤمنين :

وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول .

ثم التفت الى جلاد فقال . خذه اليك .

فلما ضرب الامام أحمد سوطا قال : (بسم الله)

فلما ضرب الثانى قال : (لا حول ولا قوة الا بالله)

فلما ضرب الثالث قال : (القرآن كلام الله غير مخلوق)

فلما ضرب الرابع قال : (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا)

فضربه الجلاد تسعة وعشرين سوطا

قالوا . هكذا ظل الامام الجليل يعذب كل يوم .. لا يزال الجلاد يضربه حتى يغمى عليه وهو ملازم للحق لا يتزحزح عنه .. ويريد الله سبحانه فيموت المأمون قبل أن ينتزع من فم هذا الرجل كلمة واحدة توافق هواه .

ولم تنته محنة أحمد بن حنبل . بموت المأمون . فقد جاء أخوه المعتصم . وكان معروفا بالشدة والعنف والقسوة .

قال ابن عياض : ان المعتصم حبس الامام أحمد بن حنبل ثمانية وعشرين شهرا . كان فيها يضرب بالسياط الى أن يغمى عليه وينخس بالسيف حتى يرتمى على الأرض ويداس عليه .

ومضت أيام المعتصم . وأقبلت أيام الواثق ..

قالوا فاشتدت المحنة على الامام أحمد . وهو صابر ثابت لا يتزحزح عن رأيه وايمانه . لا تزيده الشدائد والأهوال الا اصرارا على التمسك بعقيدته .

وأقبل المتوكل .. فرفع المحنة عن أحمد بن حنبل وأمر باحضاره اليه واكرامه . وكتب الى الآفاق برد المحنة عنه واظهار السنة . وأن القرآن غير مخلوق .

قالوا : لما دخل أحمد بن حنبل قصر المتوكل التفت الخليفة الى أمه يقول : أترين يا أماه كيف أنارت الدار بهذا الرجل ؟؟؟

وسجل التاريخ . للايمان نصرا ما يزال يتوهج نورا يضىء السبيل الى الحق فى حياة الانسان .

الخليل بن احمد الفراهيدي

ظاهرة فى اللغة العربية تميزها ـ فيا نعتقد ـ عن أى لغة من لغات العالم ، وهى أنها اللغة التى تحتم وتفرض الالتزام بقوانين للموسيقى أو (الصوت) هى السر الكامن فيا هو معروف في علم النحو من الاعراب والبناء .. وليس أدل على ذلك من التكريس على حركة أواخر الكلمات ، وتغير هذه الحركات ، بتغير العوامل من رفع ونصب وجر ثم جزم لا يقع الا بحكم هو الآخر من احكام قوانين هذه الموسيقى .

ولذلك فليس مما يعد تكثراً أن نذهب الى أن دراسة النحو قد تخف على الذين يستوعبونها ، ويستصعبون منعطفاتها الكثيرة ، اذا ما استطعنا أن نعنى باجتلاء العلاقة بينها وبين علم الأنغام .. وللأنغام فى الموسيقى الشرقية ـ كما فى الموسيقى الغربية ـ علم يقل من يعرفونه ويتمكنون منه من المتحدثين ولكن قلة العلم به أو انحسار عدد العلماء فيه ، لا تعنى عدم وجوده ..

وليس لنا أن ندعى الالمام فضلا عن الايغال فى علم الانغام ، ليتاح لنا تقديم الشواهد على هذه العلاقة بين قواعد اللغة العربية وبين قوانين الموسيقى ، ولكن يكفينا للامساك بطرف لزج للخيط فى هذه النظرة ، أن نتأمل ما نراه فى كتاب الأغانى حين يقول معقبها على مقطوعة من الشعر غناها الغريض مثلا . (الغناء للغريض ثانى ثقيل بالوسطى) وهو هنا يعنى مواقع الأنامل من أوتار العود ، مما يبدو أنه كان يكفى للتعريف باللحن أو بالصوت الذي غنيت أو تغنى به المقطوعة من الشعر أن يقول (ثانى

ثقيل بالوسطى) أو (الغناء لفلان ولحنه من القدر الأوسط .. من الثقيل الأول .. بالخنصر فى مجرى البنصر) أو يقول . (وفيه غناء ـ (آخر) لمعبد ، ثقيل أول بالوسطى .. وذكر حبس أن فيه للغريض ثانى ثقيل بالوسطى) الى آخر هذه التعقيبات المختصرة ، التى لا يزال يتعذر أن تفهم اليوم ، ولكن ليس مما يستبعد أن تفهم اذا توفر على دراستها أعلام العلماء بعلم الانغام .

على أن أكبر وأقوى ما يدل على علاقة قواعد اللغة العربية ، وبالتالى عروض شعرها بعلم الانغام ، أو (بعلم الصوت كما كان يسمى) ما نجده عن أن الخليل ابن أحمد ـ وهو واضع علم العروض ـ قد تأتى له وضع هذا العلم حين كان يمر بالصفارين فيسمع وقع مطرقة على طست ، وكان يردد بيتا من الشعر فاذا هو يجد تواؤما بين ما يسمع ، وبين موسيقى البيت الذى يردده .. فانطلق من هذه الالتفاتة العبقرية الى تقطيع الشعر تقطيعا انتهى به الى وضع البحور ، وما تشتمل عليه من تفعيلات .

وليس بيدنا ما نعرف به كيف تأتى للخليل بن أحمد ان يعرف النغم والايقاع .. اذ القائم فى أذهان الكثرة من المثقفين ان هذا العلم قد أخذه العرب عن الفرس وحجتهم ان أسماء الأنغام كما تعرفها العصور المتأخرة أسماء فارسية مثل البنج كاه .. وتعنى الأصوات الخمسة .. والسى كاه ، وتعنى عددا من الأصوات لعله ستة والجهار كاه .. وتعنى الأصوات الأربعة الى آخر ما هو معروف من الأنغام ، ولكن لا نشك اطلاقا فى أن الخليل بن أحمد لو كان قد أخذ من الفارسية هذا العلم الدقيق بالأنغام مما طوع له اختراع بحور العروض لما تردد فى أن يذكر ذلك ، وأن يستعمل الأسماء الفارسية التى يستعملها المتأخرون لأن الرجل عالم بل من أكبر الاعلام وهو أشهر من عرفوا بالزهد والصلاح والتقوى فى زمنه ، ولم يكن مما يعيب علمه أن يسند معرفته بالانغام الى الفارسية أو الى غيرها من اللغات أو الى غير الفرس من الأمم .

وهذا يجعلنا على طرف خيط آخر ، قد ينتهى بنا ، لو وجد من يتفرغ للبحث ، وتقصى المصادر التى ما تزال مهملة أو مجهولة ، الى أن علم الأنغام عربى الأصل وان الفرس هم الذين أخذوه عن العرب ، وأن كلمة (كاه) الفارسية اذ تعنى (الصوت)

بالعربية لم تكن أصلا فى الفارسية ، وانما هى نقلت اليها من العربية ولدينا الحجة القائمة التى لا سبيل الى دحضها ، وهى هذه العلاقة الوثيقة بين قوانين الموسيقى وقواعد اللغة العربية التى أشرنا اليها فى بداية هذا الحديث .

والخليل بن أحمد ، معروف بأنه الذى وضع علم العروض ، وقد طارت شهرته بهذا العلم الى حد غمر فضله على اللغة العربية وأستاذيته كسيبويه وغيره من فقهاء النحو واللغة .. حتى لنسمع اسم سيبويه يتكرر على الألسنة والأقلام كلما ذكر النحو والصرف أو اللغة عموما ، ولا نسمع اسم الخليل بن أحمد ، الا عندما يذكر علم العروض .. مع أن الرجل هو فيما نعلم أول من وضع معجما دون فيه اللغة ورتب الفاظها على مخارج حروف الهجاء . وليس من شك ، فى أن مما جنى على حقه فى الاشتهار بعلمه فى اللغة ، أن (كتاب العين) وهو المعجم الذى وضعه ودون فيه اللغة ، ظل ولا يزال ـ فيما نعلم ـ حتى اليوم ، يهيم فى متيهة الجهل والاهمال وسقوط همة المعنيين بالتراث ، عن طبع مخطوطاته القابعة فى مكاتب الغرب .

والخليل بن أحمد مع غلبة نسبة (البصرى) عليه ، ولد ـ على الأرجح فى عمان ولكـن يبدو أنه غادرها صغيرا فنشأ فى البصرة .. وعلى جارى العادة فى اختلاف المؤرخين حول مولد من يترجمون له ، فان هناك اختلافا على تاريخ مولده ، وقد يحسن أن نطمئن الى من رجح أنه ولد فى العام المتم مئة من الهجرة فى خلافة الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز . فاذا وجدنا من يذكر أنه توفى سنة خمس وسبعين ومئة ـ وعلى خلاف فى ذلك أيضا ـ فاننا نرى أنه شهد نهاية الدولة الأموية وعمره ثلاثون عاما ، واستقبل الدولة العباسية وهو فى عنفوان الشباب .. واذا علمنا أنه تتلمذ على أبى عمرو بن العلاء وهو ذلك العلم الفرد من أعلام القراءة والعربية ، فاننا نرى أن أبواب الخلفاء من بنى العباس ، كانت أجدر بألا تغلق فى وجهه ، بل كانت صدور مجالسهم خليقة بأن ترحب به .. ولا شك أن هؤلاء الخلفاء قد بذلوا شيئا من الجهد لاستمالته اليهم ، كما ظلوا يستميلون الفحول من الشعراء ، والأعلام من الفقهاء ، والأكابر من رجال العلم الى جانب أساطين الموسيقى ممن حفلت بسيرهم وأخبارهم كتب

التراث .. ولكن الخليل بن أحمد لم يكن الرجل الذى يلهث وراء الدنيا بل لم يكن الرجل الذى يتكسَّب بما وهبه الله من القدرة على الابتكار والاختراع ، الى جانب العلم الوثيق والنادر باسرار اللغة العربية ومجاهلها ، ومكامن الحسن ، وسمات الجمال فى بناء الفاظها وروعة الظلال فى معانيها .

يروى أن سليمان بن على - وكان واليا على البصرة - أرسل اليه لتأديب أولاده لقاء قدر من المال يجريه عليه كل شهر . فلم يكن من الخليل بن أحمد الا أن أخرج للرسول خبزا يابسا .. وهو يقول (قل لصاحبك .. ما دام هذا عندى فلا حاجة لى فيه) ثم كتب شعرا يقول فيه :

أبلـغ سليمان أنـى عنـه فى سعة ... وفى غنـى غـير أنـى لسـت ذا مال
شحـا بنفسى أنـى لا أرى أحدا ... يمـوت هزلا ولا يبقـى على حال
والفقر فى النفس ، لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك ، الغنى فى النفس لا المال
فالـرزق عن قدر لا العجـز ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال

ويذكر عن النضر بن شميت أنه قال : (أكلت الدنيا بعلم الخليـل .. وهو فى خص لا يشعر به أحد ..)

ويروى عن سفيان الثورى أنه قال : من أحب أن ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن أحمد . وهو يشير بذلك الى صفاء معدنه .. وسطوع اريحيتهوشيوع ذكره بالطيبة ونبل الطوية والتقوى .

يروى عن زهد الخليل بن أحمد الكثير الذى يمكن أن يضرب به المثل . حتى تواتر من هذه الأخبار أنه ظل مقيما فى البصرة لا يملك الفلسين . بينما تلامذته يكسبون مما يتعلمونه منه الطائل من الأموال الى جانب ذيوع الصيت وبعد الشهرة بالعلم .

ذكروا أنه كان يحج سنة بعد سنة وهو الذى قال أربع تعرف بهن الآخرة : الصفح قبل الاستقالة .. أى قبل أن يتقدم المذنب بطلب الصفح وتقديم حسن الظن قبل

التهمة ، والبذل قبل المسألة .. أى أن تبذل المعروف قبل أن يتقدم اليك المحتاج اليه ، ومخرج العذر قبل العتب .. ويعنى أن تلتمس العذر لمن تبدر منه بادرة السوء قبل أن تعتب عليه .

وهو القائل أيضا :

وقبلك داوى الـطبيب المريض — فعـاش المريض ومـات الطبيب
فكن مستعـدا لداء الفناء — فان الـذى هو آت .. قريب

ويحكى أنه كثيرا ما كان يردد بيتا للأخطل يقول فيه :ـ

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد — ذخرا يكـون كصالح الأعمال

والخليل بن أحمد ، حين يتصف بهذا الزهد ، وحين تتلامح مع هذا الزهد صورة رجل مشغول بالآخرة والتزود لها بالعمل الصالح ، يتصف بالذكاء والبحث وراء الشوارد والأعماق من اللغة خاصة ، ومن العلوم الأخرى عامة ..

فقد ذكروا أن رجلا كان يصنع دواء لظلمة العين ، توفى ، واحتاج الناس الى علاجه فلم يجدوا سبيلا الى صنعه .. وسمع بذلك الخليل بن أحمد وحين قيل له : ان الرجل لم يترك لهذا الدواء وصفة أو كما يسمونها (نسخة) طلب الخليل أن يجيئوه بالآنية التى كان يصنع فيها الرجل ذلك الدواء ان وجدت .. فجاؤوه بما طلب .. فجعل الخليل يشم الاناء ويخرج منه أنواعا من الاخلاط عرفها وعرف مقدار كل منها فى هذا الدواء ، حتى صنعه .. ثم عثر على الوصفة بين أوراق الرجل فاذا هى كما حللها الخليل .. وفى القصة ـ ان صحت ـ وليس ما يمنع صحتها دليل على أن الخليل كان شديد الفطنة ، والذكاء ، كما كان واسع العلم بالكثير من علوم ذلك العصر ..

ولا يذكر المؤرخون شيئا عن مصادر علمه بالانغام ، سوى مروره بالصفارين وهم الذين يصنعون الآنية من المعادن كالنحاس ، والفضة ، أو الصفر .. وليس مما يتفق مع هذا العمق الذى نراه فى علم العروض ، والذى تؤكد كل الدقائق والتفاصيل فيه أن يكون علم الرجل الذى وضعه ، مستمدا أو معتمدا على مثل هذا الذى سمعه وهو يمر

بالصفارين ، وعلى لسانه بيت شعر يردده ، فيتفق تقطيعه مع وقع مطرقة على طست ، ولذلك فلا ندحة لنا عن أن نفترض أن الخليل بن أحمد كان على علم واسع بالانغام وعلاقتها بأوزان الشعر ، وكان وقع المطرقة على الطست ، باعث فكرة التقطيع ، وبالتالى التبويب والتنويع والحصر بالنسبة لبحور الشعر وأوزانه .

وكما نشأ الخليل فى البصرة ، وعاش فيها على الخبز اليابس ، فقد توفى فيها .. وليس فى سيرته وأخباره ما يدل على أنه عاد الى عمان مسقط رأسه وان كان نسبه ينتهى الى فرهود بن مالك - الى الازد بن الغوث .. من ازد عمان .

وكما اختلف المؤرخون فى تاريخ مولده فقد اختلفوا كثيرا فى تاريخ وفاته ولكن الكثرة منهم تميل الى أنه توفى عام السبعين بعد المئة للهجرة .. ولم يمت بسبب مرض أصيب به .. وانما لأنه اصطدم بسارية فى المسجد ، زعموا أن السبب فى اصطدامه بها ، هو أنه كان مشغول الذهن ، بما كان يقوله عن محاولته تقريب نوع من الحساب تمضى به الجارية الى البياع فلا يستطيع أن يظلمها ، وبغض النظر عن الشك فى صحة الخبر أو قبوله ، فان فى الخبر دلالة على انشغاله الدائم بالغوص وراء العويص من قضايا العلم على اختلاف فروعه فى ذلك الزمان .

قد يقال . وما حاجة اللغة العربية الى (كتاب العين) للخليل بن أحمد وقد تيسرت طباعة المعاجم المختلفة وتنوعت ، ولكن .. ينسى من يقول ذلك : إن مجد العربية يتألق ويشمخ بأنها لغة القرآن أولا ، وبأنها اللغة التى تكاملت واستطاعت أن تصمد للتعبير عن جميع قضايا الفكر والفن وعن جميع المعانى والصور التى طافت فى أخيلة الشعراء ، طيلة أربعة عشر قرنا من الزمان .. وتيسر وجود معجم الخليل بن أحمد فى المكتبة العربية الحديثة ، فى القرن الرابع عشر الهجرى ، كوجود جوهرة أصيلة لا يخبو لها بريق وتلألؤ ، على كثرة ما يتراصف معها من جواهر درر ..

إسحاق نيوتن

ما أقل ما يشعر الناس بحاجتهم الى الكثير الكثير مما قدمه العلماء لمسيرة التطور فى الحياة ! اننا على سبيل المثال ، نرتفق الطائرة النفاثه فى رحلة الى أى بلد من بلدان العالم ، وطيلة ساعات الرحلة قد نستسلم للنعاس أو حتى النوم الثقيل ؛ وقد نشغل انفسنا بقراءة كتاب أو مجلة ، فاذا أسعدنا الحظ بمن نستطيع أن نتحدث معه فى المقعد المجاور ، فان وقت الرحلة ينقضى فى دردشة لا طائل وراءها يندر ألا تتنقل بين عدد من المحاور والأفكار ، ويندر أن يكون لها أى هدف سوى تزجية الوقت ..

ولكن هذه الطائرة النفاثه .. هذه الأعجوبه من اعاجيب العلم والتكنولـوجيا فى القرن العشرين ، هذا المارد الذى يلتهم أكثر من مئتين من الركاب ، وينطلق بهم يطوى أجواز الفضاء ، بهذه السرعة المجنونة ، ليصل بين بلدين على سطح الأرض ، نتناول الافطار فى احداهما ، ونستمتع باسترخاء القيلولة فى الأخرى وقد نتناول العشاء ونقضى ساعات السهرة فى الثالثة ـ كل هذا لا يخطر لنا قط ببال ان نعطيه حظا من التفكير ، لا يخطر لنا شىء من ذلك ، لا حين نقطع التذكرة ، ولا حين نتقدم الى سلم الطائرة ، ولا حين يغلق علينا الباب ، وتبدأ فى الحركة على مدرج المطار .. فاذا اقلعت عن الأرض لا نزيد على ان نلقى نظرة من النافذة ، لنرى اننا قد ابتعدنا عن الأرض .. وكفى ..

اننا ننتفع بكل عطاء العلم ، وننتفع بهذا العطاء على أوسع نطاق فى صحونا ، وفى

نومنا . فى ممارستنا لأعمالنا . وفى ساعات راحتنا . فى النهار المشرق وفى الليل الطويل .. ورغم كل ما تنعم به من العطاء . لا نعنى قط بأن نفكر ولو لحظة واحدة فى قوافل العلماء . وفى أولئك العباقرة الذين احترقوا وذابوا . ليضيفوا الى معمار الحضارة .. بل الى الحياة نفسها .. بل الى البشر اطلاقا . كل هذا الذى ينعمون به من عطاء . خرج بالانسان من المغارة والكهف الى ناطحات السحاب . ومن الليل ينقضى فى ظلام طاخ الى هذا الضوء الذى لا تكاد تلمس الزر الصغير فى غرفتك . حتى يملأ جوانبها الضياء .. ومن الرحلة بين بلدين كجدة ومكة . على ظهور الابل وتستغرق ثلاثة أيام . الى هذه الطائرة النفاثة التى تنقلك من جدة الى لندن فى ست ساعات ..

ونحن نستمتع بحصيلة متكاملة من جهود العلماء فى الكثير مما نرتفق من الضروريات والكماليات .. نستمتع بالكهرباء اضاءة وتدفئة او تبريدا . او تحريكا للمصعد . او رفعا للمياه او لادارة محرك السيارة .. ولكن يندر ان نعنى بالتفكير فى الصف الطويل من العلماء الذين اضافوا تجاربهم الى مجموعة تجارب غيرهم . بحيث كان من مجموعة التجارب . هذا الذى نرتفقه ونستفيد منه من الأجهزة والمعدات والالآت ..

****

سير اسحاق نيوتن . واحد من هذا الصف او القافلة الطويلة من رجال العلم الذين يدين لهم التطور العلمى والتكنولوجى بما يعتبر اساسيات يندر او يستحيل ان تتغير .

ومع اننا لا نكاد نذكر اسم (نيوتن) حتى نذكر انه صاحب قانون الجاذبية فهو فى اذهاننا واحد من العلماء الذين كثيرا ما ضقنا بقوانينهم ونحن ندرس الفيزياء . فان هذا العالم كان فى صباه يرفرف بجناحيه الفضيين فى اجواء الشعر . وكانت يده البضة تعالج الألوان والظلال . فهو الى الفنان والشاعر أقرب منه الى العالم الرياضى الذى عرفته الدنيا فيما بعد .

وحين ولد بعد مخاض داهم امه فى غير أوانه بدا للقابلة انه لن يعيش . اذ كيف يمكن

ان يعيش من لم يزد حجمه عن كوز صغير .. ثم كيف تتوفر له العناية او الرعاية وقد توفى ابوه قبل ان يولد بشهور . فليس له الا هذه الأم الشابة التى لم تكن تملك الا ما يتدفق به قلبها من الحب والحنان .

ولكن الحب والحنان كانا كل شئ فى حياة الرضيع . الذى عاش واخذ ينمو بين عينيها ، ويدرج بين يديها الى ان بلغ الرابعة من العمر . واضطرت أن تسلمه الى جدته ، حين تقدم للزواج منها ، من كانت لا تستغنى عن الاقتران به وهى الشابة ، وطريق الحياة امامها شاق طويل .

ولم تكن جدته أقل عطفا من أمه .. فقد احاطته برعايتها وتدليلها وغمرته بحبها وحنانها ، وهى ترى كيف تتفتح فيه براعم الذكاء ، وكيف تبدو عليه مخايل التطلع والطموح .. وحين بلغ الثانية عشرة من عمره ادخلته المدرسة الابتدائية ، وفى نفسها انه سيكون المتفوق على اقرانه .. اذ كيف يكون له ما تلامح من ذكائه ، ولا يتفوق ويتقدم الصفوف .. ومع انه لم يخيب رجاءها ، اذ لم يظهر كسلا او تراخيا او غباء ، فانه لم يكن التلميذ المتفوق الذى تصورته .. ولكن لم يطل به الأمر ، حتى أخذ يعد بهذا التفوق والنبوغ ، وليس فى العلوم والرياضيات ، وانما فى الشعر والرسم .

****

ولكن امه ، وكل افراد أسرته ، لم يكونوا يرون فى الشعر والرسم غناء .. وما الذى يمكن ان ينتفعوا به من شاعر او رسام .. وامه التى مات زوجها ، كانت تحتاج اليه فى فلاحة الأرض .. وقد كان ابوه فلاحا ، فما اجدره ان يعود الى الأرض ! وفى شبابه ونشاطه ما سوف يساعده على ان يجنى منها الكثير .

وترك المدرسة فى عام ١٦٥٦م ، واخذ يعمل فى الأرض كما ارادت له امه ولكنه لم يترك الكتاب .. اذ وجد فيه الآفاق التى تتسع لخياله وطموحه ولعل أمه واى فرد فى اسرته لم يكن يخطر له ، ان هذا الشاب الذى يعكف على القراءة كلما وجد فراغا من العمل يتابع فى الواقع دراسة هذه المواد التى حرم من دراستها بتركه المدرسة ، وانه لم يفقد شغفه بأن يحلق فى الآفاق التى يجدها فى الكتاب ولا يجدها فى الحقل الذى أرغم

على ان يخلد إليه ، وان يربط به مصيره .

ومرت اربع سنوات وهو مرتبط ومشدود الى هذه الأرض التى ما تزال امه تصر على ان يعمل فيها كما كان يعمل ابوه من قبل .. ولكن كان للقدر طريقه الى الشاب الذى اصبح فيما بعد واحدا من اكابر علماء العالم . وليس انجلترا وحدها .

حدث ان مر به خاله ذات يوم . وهو عاكف على كتاب يقرأه .. ولعله اخذ الكتاب ، يرى ماذا يقرأ الشاب الذى يعمل فى الحقل ولا ندرى اى كتاب كان هذا الذى جعل الخال . يقنع امه بأن يعود نيوتن الى المدرسة .. وعلى التحديد الى كلية (الأقانيم الثلاثة) التى كان الخال ناظرها او عميدها .

واخذت هذه الكلية تشهد مراحل تفتح عبقرية نيوتن يوما بعد يوم ورغم ما بدا من تفوقه فى العلوم الرياضية . بحيث كان يصل الى حلول فى المسائل التى يطلب الى الطلاب حلها . تختلف عن الحلول التى يصل اليها المدرسون فقد كان ما يزال يتعشق الفن والشعر . وكان يجد فى الشعر مسابح روحه المحلقه ابدا فيما وراء المنظور والمحسوس ..

****

وانقضت خمس سنوات . والشاب الحالم . لا يتفوق فى المواد العلمية التى يتلقاها فحسب . وانما يناقشها . ويقتلها بحثا . ويصل الى النتائج التى تبهره وتلهب مشاعره تطلعا الى المزيد . ورغبة فى الاكتشاف . وتخرج بدرجة بكالوريوس فى العلوم . فانصرف الى تتبع البحوث التى ربما كانت قد تلامحت له وهو ما يزال بين جدران الكلية .. وقبل مضى سنتين على تخرجه اكتشف علما جديدا من علوم الرياضة . هو (حساب التفاضل والتكامل) .. وابتكر طريقة لم تكن معروفة قبله . لحساب مساحات الأقواس والمنحنيات . واحجام الجمادات ولم يخطئه تقدير دوائر العلم . اذ سرعان ما عين (استاذا) فى كامبريدج . وهى صنو اوكسفورد . اعظم واقدم جامعتين فى انجلترا .. وبطبيعة مركزه المرموق . اتيحت له فى كامبريدج وسائل البحث . فاذا به يكرس جهده للبحث فى (طبيعة الضوء) .. وما يكاد يتم السنة الأولى فى كامبريدج ، حتى

يطلع على العالم (بأول تيليسكوب عاكس من نوعه) اكتشف به النجيمات التى تدور حول كوكب المشترى ، ثم ما يسمى (الممر الأهليلجى) للمذنبات .

وحين تسلم منصب استاذ الرياضيات ، شيد لنفسه مختبرا كيميائيا ، حرص على أن يحيطه بحديقة لصنوف من الزهر ، تروى بشكولها والوانها تعطشه الى الفن والجمال . ولكن هذا لم يمنعه ان يدرس هذه الأزهار والنباتات ، وان يواصل ابحاثه عن الضوء ، وعن تكوين اللون ، فى الأزهار وفى غيرها وان يقرر ، ان النور يتحرك فى امواج ، وليس شعاعا يمتد من مصدره ليقع على المرئيات ..

****

ومع ان طبيعة الأبحاث العلمية العميقة التى يعالجها ، كانت تستغرق حياته واوقاته ، فقد حدث ان وقع هذا العالم فى شراك الحب .. والتى احبها ، كانت فتاة ، لعلها لم تكن لترفض الزواج منه ، رغم ما عرف به من اهمال هندامه ومظهره ، ولكن المشكلة لم تكن فى هندامه ومظهره ، وانما فى حالة الاستغراق التى جعلته ، يحاول حشو غليونه باصابع الفتاة التى كان يداعبها بدلا من التبغ ..

من يدرى فلعله لم يذهل عنها ، وانما كان مستغرقا فى جمالها ، فلما ايقظته صرختها ، لم يملك الا ان يعتذر وان يصارحها او يصارح نفسه ، بان لا سبيل الى ان يتزوج ابد العمر ..

****

ولم يكن اسحاق نيوتن الأستاذ الذى يتعشق تلاميذه الاستماع الى محاضرته ، ليس فقط لذلك التعقيد الذى تتصف به مادة الرياضيات عموما ، وحساب التفاضل والتكامل على الأخص ، وانما لأن نيوتن لم يكن ذلك الأستاذ الذى يملأ العين بالمظهر الثرى الوقور ، او الذى يأسر الألباب بانطلاقه وروح المرح فى شرحه للمادة التى يحاضر فيها ، ولكن هذا كان فى الوقت نفسه هو السبب فى تكاثر حساده من العلماء الذين لم يكن يعجبهم ان يروا شابا فى مثل سنه يرقى الى كرسى الأستاذية الرفيع .

****

واسحاق نيوتن ، كان أول انسان فى التاريخ يسترعى انتباهه سقوط تفاحة من

غصنها فى الشجرة .. وكان انتباهه هذا . نقطة تحول كبرى فى تاريخ العلم .

سقطت التفاحة من غصنها . حين كان هو مستغرقا فى التفكير فى احدى تهويماته وهو يجلس فى الحديقة فى منزل والدته .. فانفتح امامه باب واسع للاستنتاج انتهى به الى وضع قانون الجاذبية الذى لخصه بأن مادة أوذرة من مادة فى هذا الكون ، تتجاذب مع ذرة أخرى بقوة تتناسب عكسيا مع مربع المسافة بينهما .

وهذا القانون الالهى . لا ينطبق على الأرض فحسب . وانما على كل الأجرام السماويه فى الكون الكبير ..

ولم يكد يكتشف هذه الحقائق فى تأملاته حتى اسرع الى كامبريدج ليضع كل ما استنتجه فى معادلات تضيف الى الفيزياء والى علم الفلك كشفا يغير الكثير من اتجاه العلم . ولكنه ، ظل يتردد فى نشر نظرياته ومعادلاته ، الى ان اقنعه بضرورة نشرها احد اصدقائه المخلصين . فعكف على تدوين وشرح ماوصل اليه طيلة عامين كاملين .. ونشرت هذه النظريات بين دفتى كتاب باسم : (القواعد الرياضية للفلسفة الطبيعية) .. ولكن ذلك الجفاف الذى تتميز به ابحاث الرياضيات ، وعلى الأخص هذا البحث الجديد ، صرف الكثيرين عن الاهتمام بالكتاب ، بحيث يمكن القول انه لم يحدث فى دوائر العلم تلك الهزة التى يحدثها أى كشف علمى جديد .. والذين عنوا بتقليب صفحات الكتاب من كبار علماء انجلترا ، لم يزيدوا على ان يوسعوا المؤلف هذا نقدا وتجريحا ، فكان مما قاله احدهم : (أى مخبول رياضى هذا ؟؟ لن يجد عشرين شخصا يفهمون ما يقول ..)

وكان هذا هو الواقع ، اذ عاش نيوتن اربعين عاما بعد نشر كتابه ونظرياته ولم يتجاوز عدد الذين فهموا نظرياته وآمنوا بها ، اثنى عشر رجلا .

يؤخذ على نيوتن ، وهو هذا العالم الذى عاش حياته عاكفا على البحث العلمى انه اخذ يتطلع الى مركز سياسى ، وان يعد فى الحاشية الملكية البريطانية ويبدو أنه كان له من الأصدقاء الوجهاء من عنوا بتحقيق امله اذ عينه القصر مساعدا للقيم على المسكوكات وفرح نيوتن بالمنصب دون شك ولكن نقاده وحساده صوبوا اليه سهامهم .

اذ اعتبروا تعيينه فى هذا المنصب ، سقوطا من منابر العلم الى حضيض الوظيفة .

****

ويقول كتاب سيرته ان العالم قد أصيب بما يشبه لوثة عقلية ، ربما دخل من أجلها مستشفى الأمراض العقلية ، وهم يجمعون على انه بات كثير الشكوك فى أصدقائه وزملائه ، بحيث لم يبق له من يأنس اليه سوى ابنة اخت له ، كانت رائعة الجمال بارعة الذكاء ، وقد فرغت لرعايته والعناية به وادارة بيته وشؤونه ، وحين انعم عليه الملك بلقب فارس (سير) ، قال فولتير وغيره من كتاب العصر ، ان ابنة الأخت الجميلة هذه هى التى يعود اليها الفضل فى حصوله على اللقب .. يريدون ، ان اللقب لم يكن تقديرا للعالم الذى وضع حساب التفاضل والتكامل واكتشف ووضع قانون الجاذبية ، وانما اعجابا بالصبا والجمال ، والحسن والدلال ، الذى تتمتع به بنت اخت العالم الكبير ..

****

فى عام ١٧٢٧م ، وقد نيف على الخامسة والسبعين من العمر ، تدهورت صحته كثيرا ، ثم ما لبث ان قضى نحبه ، ولم يخطئه تقدير القصر والدولة بعد وفاته اذ دفن فى (وستمينيستر أبى) ، مع الكثيرين من عظماء انجلترا .

ومرت سنوات طويلة قبل ان يقام له تمثال فى كامبريدج يذكر طلاب العلم بالعالم الذى غير الكثير من اساسيات العلم بالكون ، ولعل نيوتن لم يتمتع بمثل التقدير الذى اصبح يتمتع به فى دوائر العلم فى هذا العصر الذى نرى فيه ما تحققه العلوم والتكنولوجيا من انتصارات تضاف الى حضارة الانسان ..

نوبل

الفرد بيرنار نوبل .

هو الانسان الذى لابد أن يسمع العالم اسمه كل عام .

والذين يتابعون أخبار هذا الاسم .. هم دائما ، كبار الكتاب ، وكبار العلماء ، وكبار القادة وكبار رجال الفكر .

وهو صاحب الجائزة التى أوصى بها ـ كل عام ـ لمن يأتون بأعمال رائعة (ومبتكرة) فى الأدب أو العلم ، وعلى الأخص ، لأى عمل أو جهد بارز يمكن أن يساعد على اقرار الأمن والسلام فى العالم .

(والفرد نوبل) ليس من عشاق الأدب بحيث يحنو على محترفيه .. وليس ممن أدركهم العطف على العلماء ، فأوصى لهم بهذه الجائزة فى كل عام ..

وانما هو أعظم مخترعى القرن التاسع عشر .

سجل باسمه نحوا من مئة وثلاثين اختراعا ..

ولد الفرد نوبل فى أسرة واسعة الجاه والثراء ، فى استوكهولم .. وتنقل فى سبيل اشباع نهمه الى العلم بين أكثر من جامعة فى أوروبا .. ثم انتقل الى الولايات المتحدة الأمريكية .. طلبا للمزيد من العلم ـ والكيمياء ـ فى مقدمة دراساته .

اكتشف ، فى مادة (النايتروجليسرين) خصائص لم يسبق لعالم أن اكتشفها قبله .

كان اكتشاف هذه الخصائص فى هذه المادة ، سبيله الى اكتشاف (الديناميت) .

واكتشاف الديناميت معناه ، هذا الدمار الـذى ما يزال يلحقـه بالبشر فى جميع الحروب التى نشبت بعد اكتشافه .

والاختراع أو الاكتشاف مسجل باسم نوبل ككثير من اختراعاته .

وقد جنى ـ وما تزال مؤسساته وورثته يجنون ـ ثروة طائلة من صناعة الديناميت ، ومن حق الاختراع المسجل باسمه . قالوا : إنه قبل موته .. أدرك ضخامة الجرم الذى ارتكبه ، فأوقف وأوصى بجانب كبير من ثروته الطائلة ، تمنح جوائز لكل من يأتـى بجديد فى العلوم أو الآداب ، أو يقوم بأى جهد أو عمل يمكن أن يحقق ويوطد الأمن والسلام فى العالم ..

ومع أن الديناميت ظل الى الحرب العالمية الثانية أخطر اختراع مدمر عرفه البشر ، فان القنبلة الذرية ، وبعدها الهايدروجينية ، كانـت وستظـل تهـدد البشر بالفنـاء والمحق ..

ولكن ـ اختراعها ، واستعمالهـا فى هـيروشيما وناجـازاكى ، لم يمنـع الاعتماد على الديناميت ، اذ ليس من السهل استعمال القنبلة الذرية فى الحروب الصغيرة .

الكثيرون يعتقدون .. أن اختراع القنبلة الذرية ، وتيسير امتلاك أسرار صناعتها أو انتاجها لدى أكثر من دولة من دول العالم .. هو السبيل الى عدم الوقوع فى كارثة حرب عالمية ثالثة ..

ولكن .. هذه الحروب الصغيرة .. وهى اللعبة التى ما تزال تمارسها الدول التى تملك هذه القنبلة .. على الدول الصغيرة .. ستظل تؤكد وحشية الانسان ، وستظل هذه الوحشية تعتمد على الديناميت ..

وستظل تلعن (الفرد نوبل) .. رغم سخاء الجوائز التى خصصها لقضية السلام ..

ابن سينا

مسيرة الحضارة شهدت ، عبر مئات أو ألوف من السنين أرتالا من أعـلام دون التاريخ أعمالهم وفضائلهم على استمرار هذه المسـيرة ، بدءا من الكهـوف والمغـاور والغابات وانتهاء عند معمل الفضاء الذى عاش فيه الرواد أياما تعتبر عمرا كاملا بما تحقق لهم ، وللانسان على أوسع نطاق ، من منجزات فى العالم ، تبهر الأبصار وتأخذ بمجامع القلوب ، وتبشر ـ فى نفس الوقت ـ بالمزيد من هذه المنجزات ، التى لابد أن نفترض أنها تستهدف ـ فى النهاية ـ خير الانسان وهذا على الرغم من كل حوافز الغلبة والقهر التى نعلم أنها تكمن ـ فى الوقت الحاضر ـ وراء الكثير مما يحققه العلم من انتصارات .

ويتعذر أن نسلم بأن هذه المسيرة لم تشهد غـير هؤلاء ، الـذين دَوَّن التـاريخ أعمالهم ، واعترف لهم بالفضل .. لأن التدوين ـ على اختلاف أساليبه ووسائله ـ لم يبدأ الا منذ فترة لا تزيد عن خمسة آلاف عام ، وهو تدوين عنى ـ ولم يكن له من سبيل آخر ـ بواقع الفترة التى أتيح فيها هذا التدوين .. أما الماضى الموغل فى أحشاء الزمن البعيد ، وما انطوى عليه هذا الماضى من أبطال وعلماء وفلاسفة وصناع حضارة ، فقد ظل مغلق الأبواب أمام كل محاولة لكشف أسراره وأخباره ، ولعله سيظل كذلك ، الى أن تتيسر الوسائل التى يمكن أن تساعد على فتح هذه الأبواب ، فى يوم يبدو أنه لم يعد بعيدا كما كان منذ قرن من الزمان .. وتطور وسائل الكشف عن الآثار ، وما يحرزه

العلم والعلماء من تقدم يوما بعد يوم ، كفيل بأن يزيح الستار عن كثير من الحقائق التى ما تزال مكنونة فى ضمير الغيب والتى يمكن معها تفسير ما يبدو لنا الآن ، وكأنه إعجاز أو عبقرية تفوق وتسبق كل تصور عن الطاقة التى طوعت ، لاولئك العباقرة سبيل الوصول الى ما وصلوا اليه من منجزات ، فى العلم والفلسفة والفن ..

وأبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سينا ، من أكابر علماء المسلمين ، واحد من هؤلاء العباقرة ، الذين لا يسعك الا أن تقف ذاهلا ، فاغرا فاك ، حين تقرأ هذا التاريخ الذى دون أعمالهم واعترف لهم بالفضل على استمرار مسيرة الحضارة ، أو على توطيد بنائها الشامخ بما وضعوا من الأسس والقواعد وبما رفعوه من المشاعل التى أضاءت الطريق الى واقعنا الحضارى الرائع فى هذا العصر .

ويجمع تاريخ العلم والفلسفة ، على أن ابن سينا ، هو (المعلم الثالث) للانسانية .. وهو (الثالث) باعتبار التسلسل الزمنى ، وليس باعتبار المكانة العلمية بالنسبة للأول وهو أرسطو ، والثانى .. وهو الفارابى ..

وقد ولد ابن سينا ، فى مدينة صغيرة بالقرب من بخارى ، عام تسعمئة وثمانين وتوفى عام ألف وسبعة وثلاثين الميلادى . فهو لم يبلغ الستين عند وفاته وقد بلغ عدد مؤلفاته مئتين وستة وسبعين كتابا . فاذا فرض أنه بدأ الكتابة والتأليف فى العشرين من عمره ـ كما يقول بعض مؤرخى سيرته ـ فهو قد كتب ـ أو ظل يكتب ـ بمعدل يزيد عن سبعة كتب فى العام الواحد من سبعة وثلاثين عاما من حياته التى كرسها للعلم .

وأى علم يا ترى .. هذا الذى عالج ابن سينا البحث فيه والتأليف عنه ؟؟ قد يعجز منطقنا عن تصديق أو قبول ما يثبته المؤرخون عنه .. فالاجماع منعقد ـ والدليل هو الكتب التى ألفها ـ على أنه بحث وألف نتائج بحوثه فى الطب ، والرياضيات ، والفلك ، والفلسفة .. ولا تقل خصيصة الدقة والتجرد التى عرفت بها كتبه فى الرياضيات والفلسفة والفلك ، عن كتابه فى الطب . وهو الذى سماه (كتاب القانون فى الطب) . والرائع الاخاذ فى هذه التسمية ، أن الكتاب ، قانون فى الطب فعلا .. وقد بلغ من الدقة فيه الى جانب التوسع فى البحث ، والايغال وراء الحقائق ، أن ظل هذا

الكتاب ، المرجع الأول والأهم والأوثق ، فى جامعات أوروبا الى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، بعد أن نقل ـ بكامله ـ الى اللغة اللاتينية ونحن نعلم أن هذه اللغة كانت ـ وما تزال الى حد ما ـ هى لغة العلماء والفلاسفة والمثقفين ، ليس فى القارة الأوروبية فحسب ، وانما فى انجلترا وأمريكا أيضا .

وطريق ابن سينا للوصول الى الحقائق فى الطب والعلاج ، ليس الطريق القصير والمألوف .. وانما هو طريق طويل أشد الطول ، ووعر أشد الوعورة .. وقد لا يكون من المبالغة فى شئ ، أن نقول: إنها الطريق التى يستحيل أن نتصور قدرة انسان فرد على سلوكها فى هذا العصر .

فعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ يبحث ابن سينا عن الخصيصة العلاجية لعشب من الاعشاب . فلا يكتفى بما يجده فى كتب الاغريق أو فى غيرها وانما يذهب الى منابت هذا العشب ، فى الجبال والبرارى ، متوخيا ان يجد العلاقة بين بيئة هذا العشب ومناخه ، وبين خصيصته العلاجية ثم ، ما يستتبعه بحث البيئة والمناخ ، من دراسة وتتبع لطبيعة التربة واصلها والتطور الذى عانته مراحل تكوينها .

ولذلك ، فليس غريبا أن نجده يكتب عن الجبال ، ومراحل تكوينها فيقول : إن الأرض كانت مغمورة بالمياه ، وإن دهورا طويلة قد مرت ، قبل ان تنحسر هذه المياه عن اليابسة ، وبانحسارها ، كان لابد للطين اللزج ، أن يجف ، وأن تمر دهور أخرى ليتحجر فتتكون هذه الجبال التى نراها حجارة صلدة صماء وليست فى أصلها الا طينا لزجا .

فاذا لم ننس ان ابن سينا قال هذا الكلام عن تكوين الجبال ، منذ ألف عام وأن ما قاله قبل عشرة قرون ، هو الذى يقرره الجيولوجيون فى هذا العصر ، فاننا نستطيع أن ندرك مدى الشموخ والسموق فى هذا العقل الجبار الذى استحق صاحبه عن جدارة لقب (المعلم الثالث) للانسانية .

والعجيب الرائع ، أن نجد ابن سينا ، يفسر لنا ـ وبمنهج علمى دقيق ـ ظواهر الطبيعة المختلفة .. فيقول عن السحاب : إنه يتكون من الأبخرة وعن الطل إنه بخار

يومى ، يتباطأ فى الصعود ، ويصيبه البرد فيتكثف ويتحول ماء ، ويهبط وبما يشبه الذرات الصغيرة التى لا نحسها أو نراها ، الا اذا تجمعت على الورود والأزهار وأوراق الأشجار .. ثم يمعن ابن سينا فى تتبع ظاهرة (الطل) فيقول .. اذا اشتد البرد على الطل يتحول صقيعا جليدا .

وإذ لا يستغنى الطب ، عن معرفة خصائص وتكوين الحيوان ، فاننا نجد ابن سينا يكتب عن الحيوان ، ما يذهلنا حقا ، فهو يصل الى النظرية القائلة : إن كثيرا من الزواحف أصلها حيوانات مائية .. فاذا أخذ يشرح هذا الحيوان فانه يذهلنا مرة أخرى بل مرات ، بدقته وصواب آرائه وتحليلاته ، عن تكوين العظام ، وعلاقتها بطبيعة البيئة التى يعيش فيها الحيوان .. ثم وظائف هذه العظام وعلاقتها بالحركة ، مشيا ، أو زحفا ، أو تسللا الى آخر ما يمكن أن يصل اليه البحث والتتبع وتقصى الحقائق ، وما يتوفر عليه اليوم فريق ، أو فرق لا حصر لها من العلماء .

ومع كل هذا البحر المتلاطم ، من العلم والمعرفة ، والتأليف فى مختلف فروعها ، فان ابن سينا ، لم يكن يستمتع بحياة مستقرة وادعة ولم ينعم برخاء العيش الذى يمكن أن يفسر ظاهرة عطائه الضخم .. ومع أن نبوغه فى الطب وشهرته التى طبقت الآفاق ، كان خليقا بان يغدق عليه الكثير والطائل من الأموال لو اراد ، فان ما أثر عنه أنه كان يعف عن أن يتناول أجرا على عمله مبتغيا فيما يعمل وجه الله وثوابه ورضاه .

ابن سيناء ظاهرة كبرى فى مسيرة الحضارة ، قل أن تتكرر فى تاريخ البشر فاذا كان صاحبها لم ينعم بالدعة والرخاء والاستقرار فى حياته الحافلة ـ على قصرها ـ بأعظم ما يمكن أن يسمى عطاء استهدف خير الانسانية وسعادتها ، فلعله قد اكتفى بأن يكون هذه الظاهرة ، وأن يعيش فى تاريخ الاسلام والمسلمين ، وفى سجل أمجادهم ، كوكبا يسطع ويضىء السبيل الى حياة أفضل بالنسبة للانسانية كلها ، وعلى مر العصور والأجيال .. وان يظل فى ضمير العالم ، وفى جميع محافل العلم والعلماء ، الشيخ الرئيس ابن سينا .

الفارابي

لا يكفى أن تقول عن الفارابى إنه الفيلسوف ، وصاحب كتاب (المدينة الفاضلة) الذى عرفه به كل من الم بنذر من الثقافة العامة .. ولا يكفى أن تقول إنه الرياضى والفلكى ، والموسيقار .. وانما هو كل ذلك مجتمعا فى عقل ، يقول عنه إنه ـ وأعنى العقل ـ طاقة تستطيع أن تستوعب وأن تبتكر ، وأن تختزن كل ما ترغب أنت فى الوصول اليه .

يسميه علماء الغرب (المعلم الثانى) ، وعندهم أن المعلم الأول هو (أريسطو) .. وذلك لأن قرونا طويلة مرت دون أن يظهر فى عالم الفكر من ضارع الفارابى علما وفلسفة وفنا ، وقدرة على التعمق فى آراء جميع من سبقوه من رجال الفكر اليونانى والهنود والفرس .

وكما قيل عن دانتى أنه قد أخذ فكرة الكوميديا المعروفة باسمه من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، فقد قيل إن الفيلسوف الانجليزى (فرانسيس بيكون) ، قد أخذ فكرة كتابه (الاتلا نتيد الجديد) من دراسته لكتاب الفارابى (آراء أهل المدينة الفاضلة) .

والفارابى هو الذى اخترع آلة (القانون) وكان يجيد العزف عليها ، ويعرف الأصوات التى تسمى فى أيامنا (الألحان) .. ومما يحكى انه كان يستطيع أن يعزف صوتا ، فاذا بمن حوله كلهم قد استغرقوا فى برزخ من احلام .. ثم يعزف صوتا آخر ، فاذا بالقوم يتزاحمون على الدروع والسيوف وكأنهم يستعدون لمعركة من معارك الغلاب

بينهم وبين الأعداء .. ولعلهم قد أسرفوا فى المبالغة حين حكى بعضهم أن موسيقارا من مشاهير الفنانين المسلمين فى الهند ، فى أيام الامبراطورية الاسلامية فيها ، كان يحفظ لحنا من الحان الفارابى ، يعزفه على الآلة الهندية المعروفة باسم (السيتار) ..

وفى حفلة من الحفلات التى كان يقيمها الامبراطور ، وفى حديقة من حدائقه الاسطورية بما فيها من الزهر والشجر وأنواع الطير ، وفنون التنسيق ، قال الموسيقار أنه سيعزف اللحن الذى يحفظه عن الفارابى .. فى وقت حدده .. فاذا بلغ مرحلة اللحن، فلابد أن تتجمع الطيور بأنواعها حول الجالسين. فاذا بلغ النهاية منه .. فان من المحتمل أن تغيم السماء وأن تمطر رذاذا .. وألا تملك العيون كلها إلا أن تذرف الدمع الهتون

قالوا .. والحكاية تدخل فى باب الأساطير طبعا ، أن كل ما قاله الموسيقار قد وقع .. ولكن الموسيقار نفسه وقع مغمى عليه أيضا .. ولم يصح من غشيته الا فى اليوم التالى ..

وليس مستبعدا على أية حال ، أن يكون الكثير من الحان الفارابى ما يزال يعيش فى باكستان وايران وأفغانستان اذ للقوم هناك عناية بالتراث الفنى قل أن نجد لها نظيرا فى العالم العربى .

ومما يذكر للفارابى ، أن له كتبا ماتزال تدرس فى جامعات أوروبا .. منها كتابه (أجوبة أفلاطون وأريسطو) .. ويذهب كثير من العلماء الى أن ميكيافيلى ، صاحب كتاب (الأمير) قد نظر فى مؤلفات الفارابى فى الحكم والسياسة قبل أن يؤلف كتابه

تتنازع جنسية الفارابى ونسبه ، تركيا ـ وايران ـ والعالم العربى بالطبع .. وأيا كان نسبه ، فانه قد ألف كتبه باللغة العربية .. بالرغم من أنه كان يجيد اليونانية كأحد أبنائها ، بل كأحد علمائها ، ويجيد التركية والفارسية والسريانية ، والسنسكريتية ..

ويدور ذهن الواحد منا حين يعلم أن الرجل ترك أكثر من مئة مؤلف ، فى مختلف العلوم والفنون .. يبدو لى أحيانا أن أتوهم أن حركة الزمن قد تغيرت .. بحيث أقول لعل الساعة فى أيامهم كانت يوما .. ولعل السنة الواحدة كانت عشر سنوات .. والا كيف يمكن أن ينجز فرد واحد .. كل هذا الذى نسمع به عن الفارابى .. وعن غيره من أصحاب الكتب التى نسميها (الأمهات)

روسو.. والتربية

فى تراثنا العربى ، كتب نسميها (الأمهات) ، لأنها تظل ـ على مر العصور والأجيال المنابع التى يرتوى منها الفكر المتطلع الى تعمق ما تحت السطح الظاهر ، والى تتبع ما تحت الجذع فى الدوحة من جذور ممتدة فى أعماق التربة الفكرية ، التى تشققت عن النوامى من عشب وشجيرات ، قد تملأ العين بصفاء الاخضرار كما تملأ الصدر بعبق الأزهار ، وقد تشيع فى النفس انغام اللون والظل ، ولكنها تظل التضاريس الظاهرة ، التى لا تغنى عن التنقيب فى احشاء التربة ، ومع الجذور ، اذ هناك منابع الثروة الفكرية ، واصول ما يظهر على السطح من مؤشرات لما فى الباطن .

وكما فى التراث العربى ، نجد فى التراث العالمى ، فى اكثر من ثلاث أو أربع لغات حية ما يمكن أن يسمى الأمهات أيضا .. وهى أمهات لا يستغنى عنها ، حتى ولو بدرجة الالمام العابر من يتطلع الى أن يتزود ، فى رحلة الفكر والثقافة ، بزاد لا يخلو من بعض الدسم الذى يعين على مواصلة الرحلة ، بخطى أكثر ثباتا وأوسع امداء .

من هذه الأمهات فى التراث العالمى ، كتاب (اميل القرن الرابع عشر) فى التربية للكاتب الفرنسى (جان جاك روسو) ..

ولقد ولد جان جاك روسو فى عام ألف وسبعمئة واثنى عشر ، وتوفى فى عام ألف وسبعمئة وثمانية وسبعين .. ويجمع مؤرخو التراث العالمى ، على أن هذا الكاتب الفرنسى فى القرن السابع عشر كان واحدا من الشخصيات النادرة فى تاريخ الحضارة

(الغربية) ، وقد يبالغون ، فيذهبون الى أن له هذه الصفة ـ وهى الندرة ـ فى تاريخ الحضارة الانسانية كلها ، اذ سطع على حياة الفكر وعلى مسيرة الحضارة ، فى لحظات من أشد لحظات التاريخ حرجا ودقة .

ويقول روسو فى خطابه الى صديق من أصدقائه ، ما يزيح الستار عن اللحظة التى تفجر فيها تطلعه الى أن يتسنم القمة ، فى الأدب والفلسفة .. كان ذلك ـ كما يقول فى رسالته ـ مفاجأة ـ بالنسبة له .. وقد حدثت هذه المفاجأة ، عندما كان ذاهبا لزيارة صديقه الكاتب والفيلسوف الفرنسى (ديدرو) حيث كان هذا سجينا عقابا له على واحدة من جرائمه الفكرية . وفى الطريق اشترى روسو ، نسخة من صحيفة (ميركورد وفرانس) .. وأخذ يقرأها وهو يمشى ، فاذا به يجد اعلانا من أكاديمية ديجون ، عن جائزة ، تقدمها لأحسن بحث يكتب عن موضوع ، يبدو بسيطا لأول وهلة وهو (عما اذا كانت الأخلاق والسلوك والعادات ، قد تطورت ، الى الأفضل ، بتأثير الأدب والعلم فى فرنسا) وعلى ما يبدو من بساطة الموضوع ، الا انه بالنسبة لروسو ، كان ساحة لا حدود لها من المجال الذى يستطيع أن يحلق أو يجول فيه الكاتب ، وقد رأى فيما وراء الساحة ما لا حصر له من الآفاق التى تتيح له أن يطوف ما شاء له التطواف .. ومن ذلك على سبيل المثال .. أنماط السلوك الانسانى .. الدور الذى يقوم به أو يجب أن يقوم به الانسان .. العلاقة بين البيئة ، ومشاكل الانسان .

ومع هذه المتواليات الفكرية على ذهنه ، وقد اثارها الموضوع الذى حددته اكاديمية ديجون لم يعد يفكر فى الجائزة وانما فى أن يدخل رواق الأدب والفلسفة .. وهو يقول فى هذه الرسالة : (لقد احسست ـ ولأول مرة ، وفيما يشبه اليقظة المفاجئة على عالم جديد ـ أنى أرى الوفا من الومضات المشعة ، ودفقا يتزاحم ويتلاحق من الأفكار الحية يجد سبيله الى ذهنى ..) .

ويذهب روسو ، فى وصف مشاعره فى هذه اللحظة ، فيقول .. (كانت هذه الأفكار تتدفق فى ذهنى وفى أعماق نفسى . بقوة لا قبل لى بمقاومتها ، وغرقت معها فى دوامة من القلق ، وأحسست كأن رأسى يعانى حالة دوار مستمر لا يهدأ) ..

ويتابع وصفه لهذه اللحظات فى الرسالة التى يكتبها لصديقه فيقول .. (جلست تحت ظلال احدى الأشجار كأنما لأجمع شتات نفسى ، التى بدا لى كأن هذه الأفكار قد بعثرتها ، بما فيها من قوة دفق ، وعنف انطلاق .. وتتجه نحو قدر الانسان ووضعه فى الحياة .. وحين انتهيت ، وعاد الى هدوء نفسى ، وجدت معطفى مما يلى ياقته مبللا بالدموع) .

وبدأ روسو ، منذ ذلك اليوم ، مسيرة أدبه وفلسفته .. ولا يسعفنا المجال للتحدث عن تفاصيل سيرة حياته قبل هذه اللحظة التى يكتب عنها لصديقه ، وبعدها ، وما فى هذه المسيرة من تناقضات ومآس ، وانفلات وانحراف والوان من العذاب ، تتخللها دعة الحب ، والعطف الذى نعم به من المرأة التى فسر عطفها عليه ـ من جانبه ـ بأنه حب .

مما نقل الى العربية ، من مؤلفات جان جاك روسو ، كتاب (اميل) وهو كتاب عنى فيه روسو ، كما لم يعن أحد قبله قط ، بالتربية وتنشئة الطفل .. وتوجيهه ، وليس فى ذاكرتى الآن ، ولا فى متناول يدى ، ما يسعفنى باسم ناقله الى اللغة العربية ، ولكنى اذكر أنه ظهر قبل الثلاثينات من هذا القرن ، فى اكثر من ستمئة صفحة من القطع المتوسط ، فتهافت عليه ، المثقفون وعشاق الفكر العالمى منهم فى تلك الأيام .

وقد فرغ روسو من تأليف كتابه فى التربية هذا فى عام ١٧٦٢ م، أى عندما كان فى الخمسين من عمره ومما يلفت النظر ، أن روسو فى كتابه ، لم يدخل فى حسابه الاناث ، اذ أن جميع آرائه وتوجيهاته التربوية موجهة الى الذكور .. وهذا قد يعطينا فكرة عن نظرة أوروبا ـ ومنها فرنسا ـ الى المرأة فى ذلك العصر .. وهو يعالج تربية الطفل منذ طفولته الأولى الى أن يبلغ سن الصبا ، وترتكز فكرته على أساس واحد ، هو الاعتماد فى التربية على الطبيعة وحدها ، اذ يرى أن افساح المجال للطبيعة لتلعب دورها فى تكوين الطفل لابد أن ينتهى به الى تعليم جيد ..

ومن هذا الأساس انطلق ، الى نصح الأمهات بأن يرضعن أبناءهن من أثدائهن ، وأن يحرصن على إطلاقهم من الأقمطة واللفائف ، ليأخذ الجسم والأعضاء ، حقها فى

الحركة الطبيعية .. وعلى الأمهات أن يغدقن عليهم حنانهن وحبهن ، وأن يكرسن جانبا من اهتمامهن لرعايتهم .

واذ لا ينسى روسو أن الآباء لا يستطيعون أن يؤدوا واجبات الأبوة ، نظرا لمطالب المجتمع الملحة على حياتهم فانه يقترح ان يستخدم هؤلاء مدرسين أو مربين من الرجال .. فيضع لهؤلاء ، أيضا القواعد والأسس والوسائل التى يجب أن يتبعوها فى العناية بمن يعهد اليهم من الأطفال ..

أما الطبيب ، فلا بأس بأن يستدعى ، ولكن بأقل ما يمكن من المناسبات ، وذلك لأن طبيعة التكوين الالهى ، قد زودت الطفل بالكثير من القدرة على المقاومة بحيث يندر أن يحتاج الطفل الذى يربى على الأساس الذى وضعه الى عناية الطبيب ..

وبالنسبة لطاقات الطفل الذهنية ، ومدركاته الحسية فان روسو يرى أنها يمكن أن تنمو وتتطور عبر الكلام ، والأحاديث والتجارب التى يشرف على توجيهها المربى المختص .. أو المدرس .. ومع ذلك فان ما يحيط به من المشاهد والظروف ، سوف يعلمه أن يستعمل عينيه ، وأحاسيسه وخياله فاذا لم يعوق عن استعمال أحاسيسه وحواسه ، وخياله ووجد من يساعده ـ الى حد ما ـ على الاستفادة من كل ما يرى ويسمع ويتذوق ، ويلمس ، ويجرب ، فانه سيكون رصيدا من الخبرة هو الذى يساعده على شق طريقه فى مسالك الحياة ..

ويستبعد روسو كليا فكرة أو أسلوب العقاب ، على ما قد يقع فيه الطفل من أخطاء ، اذ يرى أن الأفضل ، هو أن نترك له أن يجرب الخطأ ، وأن يكتشف نتائج هذا الخطأ بنفسه .. وما يمكن ولابد أن تنتج عنه من أضرار ..

وهو ينصح ويتوسع فى التنبيه ، الى أن علينا أن نعود أطفالنا الاعتماد على أنفسهم .. فلنتركهم ، مثلا ، يجربون ، أى حركة قد تؤدى الى سقوطهم على الأرض ، أو الى رضة فى الرأس .. فذاك هو سبيلهم الى أن يتعلموا كيف يجيدون الحركة التى لا تعرضهم للأذى .. ولذلك ، فلنتركهم يمارسون الرياضة التى يحبونها .. ولنتركهم أيضا أن يجربوا العمل بأيديهم ..

وعلينا أن نتجنب ، المبالغة فى الاعجاب بهم ، أو الاسراف فى تدليلهم .. فالحب والعطف ليسا فى التدليل وانما فى التوجيه السليم ، والنظرة الحانية العطوف ، والكلمة الطيبة عند اللزوم .هذا وفى نفس الوقت لا يمنع ، أن نبعد عن الأرض التى يمشون عليها بأرجلهم الحافية ما قد يكون فيها من شظايا الزجاج أو الصقيع التى تتسبب فى أضرار ، قد لا يكون الطفل مسؤولا عنها ..

وأهم كتاب ، بل أول كتاب يرى جان جاك روسو أن يقرأه الطفل حين يتعلم القراءة هو قصة روبينسن كروزو للكاتب الانجليزى (ديفو) .. لأنه سيرى فيه الانسان وهو يواجه حياته وحيدا متقطعا عن كل ما الفته حياة الناس من وسائل العيش والدعة .. هناك الغابة بكل مخاوفها ، وعليه فى تلك الغابة أن يعيش .. فيبنى لنفسه البيت ، الذى يحتمى فيه من الوحوش ، وأن يعرف كيف يؤمن لنفسه الغذاء . واللباس الى آخر ما فى القصة من حياة روبنسن كروزو منذ حطمت به السفينة فى جزيرة مجهولة ، ليس فيها من البشر سواه .. ثم ذلك الزنجى الذى تألفه واتخذه صديقا ، الى جانب الببغاء والقرد ..

وأهم ما يستلفت الانتباه ، فى طرق التربية التى يضعها روسو ، هو حثه الآباء والأمهات والمدرسين والمربين ، على أن يغرسوا فى نفس الطفل ، الايمان بالله سبحانه .. وأن يرسخوا هذا الايمان ، الى حد يجعلهم يرون قدرة الخالق وابداعه فيما خلق ، وفى أنفسهم ، وفى كل ما يحيطون من مظاهر الحياة ..

ومرة أخرى ، يدهشنا روسو ، بنظرته الى المرأة ، اذ نراه فى نهاية الكتاب ، ينثر بعض الآراء فيما يختص بتعليمها ، ولكنها التوجيهات التى تجعل منها مجرد خادمة للرجل ، أو على الأكثر مدبرة لمنزله وحياته .

ويجمع علماء التربية ، والنقاد على أن الأسس التى وضعها روسو فى كتابه اميل لتنشئة الطفل ، وفهمه لنفسيته ، هى التى تقوم عليها أسس تربية الانسان العصرى .. ورغم مرور ما يقرب من قرنين من الزمان ، فان كتاب (اميل) لجان جاك روسو،ما يزال مصدرا من مصادر علم التربية ، وما يزال الكتاب ممتعا ، حين يفرغ المثقف لقراءته ، وان لم تكن التربية من اختصاصه .

ديكارت

يعتبر ديكارت أول من ألف كتابا فى الفلسفة باللغة الفرنسية .. اذ كان من سبقه يكتبون باللغة اللاتينية .. وهو صاحب الكلمة المشهورة ـ انا أفكر ، اذن أنا موجود ـ وهو يتابع هذه الكلمة فيقول .. الكمال المطلق ينتج من وجودى العاقل لأنه وجود ناقص ـ فالأصل هو الكامل والفرع هو الناقص .. وينتهى بذلك الى الايمان المطلق بالله سبحانه وتعالى .

ولد ديكارت قرب مدينة تور بفرنسا عام ١٥٩٦ م وكان أبوه مستشارا فى البرلمان الفرنسى ، وفى صباه انصرف عن قراءة الكتب وقال : إنه يكتفى بقراءة سفر الكون العظيم ..

اشترك فى حرب الثلاثين عاما وقضى شتاء كاملا على خطوط الجبهة .. وفى جبهات القتال اكتشف بعض قوانين الرياضة وكان عندئذ قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر .. ثم اتجه الى الفلسفة وكرس حياته لها .. وأقام فى هولاندة عشرين عاما ، يراسل الفلاسفة والعلماء فى أوروبا .. وأخيرا استضافه ملك السويد وأجرى عليه ما يضمن له التفرغ للفلسفة والعلم وقضى فى السويد وقتا قصيرا .. عانى فيه من قسوة البرد الذى لم تحتمله صحته الخائرة فمات عام ١٦٥٠ م .

أشهر كتب ديكارت كتابان هما : المنهج .. ومعاملة الأهواء .. ومن الكتابين طارت

شهرته فى الآفاق .. ومايزال حتى اليوم مدرسة فى الفلسفة .. وطليعة من طلائع التفكير الانسانى فى تاريخ التراث .

من المدارس الأدبية فى فرنسا مدرسة تزعمها الشاعر رونار الذى ولد فى عام **١٥٢٤** وتوفى عام **١٥٨٥** اسم هذه المدرسة (الثريا) . تعتبر مدرسة الثريا رائدة فى الجهود التى توالت بعدها لاحياء اللغة الفرنسية وتجديد آدابها ، على ضوء الآداب اليونانية واللاتينية والايطالية .. قبل هذه المدرسة كان مما يزدهى به الكاتب والاديب أن يكتب باللغة اللاتينية .

المدرسة الكلاسيكية ويسمونها الاتباعية فى فرنسا بدأت بالشاعر (ماليرب) اذ يعزى اليه أنه الذى زرع بذورها وتعهد غرسها الأول .. كان أول من نادى وعمل على تهذيب اللغة الفرنسية ، وأشاع تعشق الرصانة والجزالة وانعاش اللفظ الفرنسى الأصيل وتفضيله على التى كانت تشوب اللغة الفرنسية من اللغات اللاتينية وغيرها .. كان ماليرب ، يشبه من وجه أو آخر علماء اللغة العربية الأوائل ، الذين كانوا يتلقفون الكثير من مفردات اللغة من الاعراب فى بواديهم ومنازلهم .

بلغ من تعصب ماليرب للجزالة والدقة وجلال الأسلوب ، أنه قال : اذا انهيت مقطوعة شعرية من مئة بيت مثلا .. وجب عليك أن تخلد الى الراحة عشر سنوات .. بهذا وحده تصوغ شعرا جيدا تشابق معانيه الفاظه . ومع ذلك فمن أقواله التى تبدو مناقضة لمذهبه فى الدقة والتأنق (ابذل كل ما تستطيع من جهد لتكتب شعرا سهلا) .

كلما تقدمت الأمم فى ميادين الفن والثقافة ، كلما اشتدت حاجتها الى المزيد من روافد نشطة تمد مسيرتها بالطاقة التى تمكنها من الاستمرار فى انطلاقها نحو الآفاق الجديدة التى لا تتراءى الا لاولئك الذين يصممون على ارتيادها .

نحن أثرياء جدا بتراثنا الذى أخصب حضارة الانسان ، ورفد حركات النهضة والتقدم فى أكثر من مجال .. ولكن هذا لا يمنع أن نستفيد من حضارات الأمم الأخرى وأن نخصب بدورنا تراثنا وأن تدفق فيه دماء جديدة تساعده على مواصلة النمو والتكامل وتمكنه من مسايرة أو حتى اللحاق بما سبقنا اليه الآخرون .

أداب الأمم الأخرى ، والمتقدمة منها على الأخص مدينة الى حد كبير لنوع من المرونة التى أتاحت لها أن تستفيد من بعضها البعض ، وأن تتجاوب مع الوثبات الفكرية التى تعيشها هذه الأمة أو تلك .. دون تعصب وانطواء ، يكمن فيهما الكثير من أسباب التأخر فى ثقافة الشعوب .

جوته

ضحكات صاخبة (المفروض أنها ضحكات الشيطان)

هذه هى اللحظات ، التى آن لى أن أواجهه .. هذه هى اللحظات التى أستطيع معها ، أن أعقد معه عقدا طالما تمنيت أن أعقده طيلة هذه السنين . طيلة هذه المرحلة الطويلة من عمره الذى قضاه ، فى البحث فى العلم مع مئات الكتب .. مع المؤلفات الضخمة ، التى ظل ينكب عليها الليالى الطويلة حتى الفجر . أعلم أنه يبحث عن الحقيقة .. أعلم أنه قد زهد فى كل متع الدنيا .. فى كل مغريات الحياة .. فى كل لذائذها ، ليصل الى الحقيقة المجردة .. (يضحك) .. الحقيقة المجردة .. حسنا .. سأريه الآن ، أنه سيجد هذه الحقيقة معى .. (يضحك) معى أنا .. انه الآن ، فى الحالة التى لم يسبق له قط أن عاناها من قبل .. حالة يأس .. حيرة كبيرة .. انه فى بحر متلاطم من التردد .. أمامه الوف الأسئلة التى لم يجد عليها الأجوبة .. أمامه المشكلة الكبرى .. التى لم يجد لها حلا .. أمامه الكون الكبير ، وهو يتطلع الى معرفة سر هذا الكون الكبير .. وقد عجز .. وخارت قواه .. أحاطت به الظلمات من كل جانب .. وهذه لحظتى .. هذه هى فرصتى الذهبية .. سأواجهه .. (يضحك) .. واذا تم التعاقد بينى وبينه .. (يضحك) .. فسوف يعلم ، سوف يدرك ، أن طريقى هى الطريق التى كان ينبغى عليه أن يسلكها .. طريق التمتع بملاذ هذه الحياة .. بمغرياتها التى عزف ، وظل اكثر من خمسين عاما يعزف عنها .. اراه الآن وراء مكتبه وبين يديه ،

هذا المجلد الضخم .. وحوله هذه الأرفف المزدحمة بمئات الكتب .. رأسه بين يديه .. وفكره مشتت .. مبعثر فى الف اتجاه .. فى الف موضوع .. وراء مئات الأسئلة التى لم يجد عليها ردا ، رغم بحثه طيلة هذا العمر .. (يضحك) ..

الشيطان : يؤسفنى جدا ، يا سيدى ، أن ..

دكتور فاوست : بدهشة هادئة ولكن .. ولكن من ؟؟ من أنت ؟؟

الشيطان : قلت : إنى آسف جدا ، لازعاجك فى هذه اللحظات ، التى أعلم كم هى غالية عليك .

دكتور فاوست : (بوقار العالم) : حسنا .. حسنا .. وأنا أقبل اعتذارك ، ولكن من أنت .. ثم هل .. أقصد اليس من المحتمل ، أن تكون قد أخطأت الطريق الى من تريد أن تزوره فى هذه الساعة المتأخرة من الليل .. أعتقد أنك لا تعرفنى ..

الشيطان : (بضحكة خفيفة جدا) سيدى .. من الذى لا يعرفك فى هذه البلد ..؟؟ من الذى لا يعرف الدكتور العلامة المنقطع للعلم والمعرفة .. من الذى لا يعرف دكتور فاوست ..

دكتور فاوست : حسنا .. حسنا .. ولكن ، لم تقل لى بعد من أنت ؟؟

الشيطان : (بضحكة خفيفة) من أنا ؟؟ (يضحك) .. أنا .. أنا يا سيدى .. أستغرب ألا تعرفنى يا سيدى .

دكتور فاوست : (معتذرا) أعذرنى فانى ، كما ترى ، فى هذه السن العالية .. رأيت الكثيرين ، ولعل لى بعض الحق فى أن أنسى كثيرين ممن رأيت .

الشيطان : (بضحكة مؤدبة) بالطبع .. بالطبع .. والمحزن يا سيدى ، أنك لم تنس الناس فحسب ، وانما نسيت نفسك أيضا .

دكتور فاوست : حديثك لا يخلو من متعة .. فيك شىء من الفطنة والذكاء .. يغرينى بالتحدث اليك ، تفضل .. اجلس .. وقل لى ، كيف نسيت نفسى أيضا .

الشيطان : قد لا أجد فى هذا العالم كله ، من نسى نفسه مثلك .. ها أنت فى هذا المكتب بين هذه الأسفار ، وأمامك هذا المجلد الضخم ، لا يؤنس وحدتك القاسية ، الا

هذه الشمعة تضئ لك السطور التى تقرأها ..

دكتور فاوست : وهل يعنى هذا أنى نسيت نفسى ؟؟ خانك ذكاؤك .. بالعكس ، هذا يعنى أنى مع نفسى .. مع نفسى بالضبط ..

الشيطان : لو أنك تفتح احدى هذه النوافذ التى أسدلت عليها الستائر الكثيفة لسمعت المدينة كلها تهزج أهازيج العيد . وتمرح مرح العيد . ولرأيت كيف تهتز المدينة كلها وتنتفض انتفاضة الابتهاج بهذه الليلة من ليالى العيد . بينما أنت .. (بتحسر) .. بين هذه الجدران .. بين هذه الأسفار .. وتحت عينيك هذا المجلد الضخم .. الذى تبحث فيه عن .. عن ..

دكتور فاوست : لا أظن . أن ذكاءك . يصل الى أن تعلم . أو أن تحزر على الأقل . عم أبحث ..

الشيطان : (ضاحكا) بل أعرف .. حق المعرفة أنك تبحث عنى .. وقد قضيت أياما . وليالى طويلة . تجرب . الوسائل والطرق . والاحجية . والألغاز . والطلاسم . التى تتيح لك أن تستقدمنى .. أن تجعلنى بين يديك .. تحت تصرفك .. والآن (ضاحكا) هل عرفتنى يا سيدى ..؟؟

دكتور فاوست : (مرتعبا) أنت اذن .. أنت ..

الشيطان : ضاحكا هو ذاك يا سيدى .. أنا سمنى ما شئت .. ولست الآن الا خادمك . تحت تصرفك ..

دكتور فاوست : اذن .. فقد استطعت أن آتى بك أخيرا ..

الشيطان : لو سمح لى سيدى الأستاذ .. أن أقول . أنه قد طاب لى الليلة . أن البى نداءك . أن أستجيب لاحاجيك وطلاسمك .. كنت أؤجل هذا اللقاء . الى وقت مناسب .. واصارحك . بانى لم أجد وقتا مناسبا مثل هذه الليلة .. التى أرى فيها . كيف تنسى نفسك . وتقبع بين هذه الجدران بينما الناس يعبون الأفراح والملاذ .. يرتادون مناهل المتعة والسرور .. يغرقون أنفسهم فى ذلك البحر اللانهائى من الاستمتاع بالحياة ..

دكتور فاوست : (ساخرا) وتسمى هذه حياة ..؟؟ وتسمى هؤلاء الناس بشرا ؟؟ ما

الفرق بينهم وبين فصائل الحيوان المنطلقة وراء غرائزها .. ما الفرق بينهم الآن فى الملاهى والمسارح العبث وبين الوحوش التى تعيش فى الغاب ..؟؟

الشيطان : وأنت يا سيدى ما الفرق بينك وبينهم ؟ الست بشرا ؟؟ الست من طينتهم ؟؟

دكتور فاوست : لا أنكر أبدا ، أنى بشر .. من طينتهم .. ولكنى بشر انسان .. بشر ، صارع غرائزه ... صارع الحيوان فى طبيعته .. صارع الظلام والشر والفساد ، واستطاع أن يقترب قليلا ـ أعترف .. قليلا ـ .. من (يتردد كمن يبحثون كلمة ملائمة) .. من ..

الشيطان : (مقاطعاقى خبث) من الملائكة ؟؟ هل هذا ما تريد أن تقوله يا سيدى ؟

دكتور فاوست : لا .. أبدا .. وانما من الانسان ، كما تري المثل والأخلاق والفضائل التى تصنع منه البشر ، الانسان ..

الشيطان : (ضحكة صاخبة) المثل .. والاخلاق ، والفضائل ؟؟ (يوالى ضحكاته الصاخبة) .. واين هى يا سيدى الأستاذ ؟؟ أين هى فى هذه المدينة التى يسكنها مئات الألوف .. أين هى ، من سكان هذا الكوكب .. هذه الأرض .. (متوسلا) .. أرجوك يا دكتور أن تفتح هذه النوافذ وأن تلقى على الشارع ، لترى هذه الألوف ، كيف تصخب ... كيف تتسابق الى الملاذ .. الى المتعة .. الى الحياة ..

دكتور فاوست : الحياة ؟؟

الشيطان : أجل يا سيدى .. الى الحياة ..

دكتور فاوست : الى الحياة قلت ؟؟ .. كلا انها تتسابق الى الموت .. الى الاندثار .. انها تقتل الانسان .. انها تموت ..

الشيطان : (مرتعبا) الموت شئ كريه يا سيدى .. (يتصنع التفجع) .. الموت .. أوه .. لا أظنك تخالفنى يا سيدى ، فى أنه شئ رهيب .. حتى أنت يا سيدى ، عفوك اذا قلت ، حتى أنت يا سيدى لا تطيق فكرة الموت ..

الدكتور فاوست : (بتفكير) الحياة .. ثم الموت .. (يردد) .. الموت .. الموت .. الموت

.. الموت .. الموت .. أنا معك .. الموت شئ لا يطاق .. رهيب جدا ..

الشيطان : وللأسف الشديد يا سيدى الدكتور ، لا سبيل أبدا الى الافلات منه ..

الدكتور فاوست : (يتحسر) للأسف .. فعلا لا سبيل الى الافلات منه .

الشيطان : ولكن .. اذا يا سيدى ، لو اتيحت لك وسيلة .. طريقة .. علاج مثلا يعيد اليك ، تلك الأيام الحلوة .. أيام الصبا .. الشباب ، أيام كنت تهيم غراما بجوليا ..

الدكتور فاوست : (بدهشة) : جوليا ؟؟ اراك ، بارعـا فى التجسس وتتبع أخبـار الناس ..

الشيطان : ليسمح لى سيدى الدكتور ، أن أقول ، إنى محيط بكثير من الأمور علما ..

الدكتور فاوست : (بتحسر) عليك اللعنة .. انها .. أقصد تلك الأيام .. قد طوتها الأيام والسنون الطويلة

الشيطان : كيف يا ترى لو وجدت سبيلا ، الى تلك الأيام .. بل الى أحلى وأجمل وأحفل منها بمشاعر الحب والجمال والفتنة والاستغراق فى رحاب (الحياة) .

الدكتور فاوست :(بتحسر) مستحيل بالطبع .. ذهبت .. ذهبت تلك الأيام ولن تعود ..

الشيطان : (فى خبث) فاذا استطعت أن أعيدك اليها ؟؟

الدكتور فاوست : (بدهشة) : تعيدنى اليها ؟؟ انك تخرف ..

الشيطان : (بهدوء) : أؤكد لسيدى الدكتور فاوست ، أنى أستطيع .. أستـطيع أن أفعل شيئا .. ثم لم يا ترى ظللت ، تلاحقنى بالطلاسم ، وتطلبنى لامثل بين يديك ؟؟ اليس هذا أفضل ماأستطيع أن أقدمه اليك ؟؟..

الدكتور فاوست : انك .. أقصد ، أجل أنت ، توقظ أشجانى .. (كمن يحدث نفسه) اللعنة على كل شئ من شأنه أن يخدع الروح ويغريها بالزخارف والاباطيل .. اللعنة على كل ما يلقى بالروح فى بؤرة هذه الحياة المليئة بالأحزان والهموم .. تبا .. للمظاهر الخلابة التى تملك منا الحواس .. وبعدا للأحلام التى تطمعنا فى الشهرة وخلود الذكر .. اللعنة .. على المال الذى يدفعنا الى المهالك من أجل كنوزه ونضاره ..

الشيطان (**بخبث**) : ما هذه الكآبة التى تذهب بك كل مذهب .. لكأنها الأفعوان ، تفغر فاها لتلتهمك ، وأنت على قيد الحياة .. سيدى الدكتور

الدكتور فاوست : ماذا ؟؟

الشيطان : إنى فى خدمتك ، مستعد أن أكون لك رفيق العمر ، بل عبدك الرقيق ..

الدكتور فاوست : ولكن .. ولكن لم تقل لى ماذا تريد منى لقاء كل ما سوف تقدمه لى من خدمات ؟؟

الشيطان (**بخبث**) : لا تهتم .. لا تهتم يا سيدى الدكتور . فامامنا متسع من الوقت .. قل لى فقط : إنك وافقت على أن أكون فى خدمتك ..

الدكتور فاوست : (بسخرية) : كلا .. فانى أعلم أن الابالسة ، لا يعملون عملا لوجه الله .. فقل لى منذ اللحظة ماذا ينبغى على أن أفعل لقاء ما تعرضه على ..؟؟

الشيطان : لا شئ .. لا شئ اطلاقا .. ثم .. الم تقل أن الموت شئ رهيب ؟؟

دكتور فاوست : رهيب جدا .. وما الذى عاد بك الى ذكره الآن ؟؟

الشيطان : لقاء أن أكون لك أطوع من بنانك ، ولقاء أن أعيد اليك أيام الصبا والشباب ، ومشاعر الحب والجمال .. لا أطلب شيئا أكثر من أن تكون لى .. طوع أمرى ، اذا انتقلت الى العالم الآخر .

الدكتور فاوست : (بسخرية) : اذا انتقلت الى العالم الآخر .. (يضحك ضحكة خفيفة) .. تقصد بعد أن أصبح جثة هامدة .. وماذا تفيدك هذه الجثة ؟..

الشيطان : قلت يا سيدى الدكتور .. اذا انتقلت الى العالم الآخر .. ولم أقل ، عندما تصبح جثة هامدة .. أنا معك أن جثتك لا تفيدنى .. وعلى الأصح تضايقنى جدا .

الدكتور فاوست : لعلى أرى ما ترمى اليه .. فـ .. (بتردد) فهمت .. فهمت ..

الشيطان : بارتياح فهل توافق اذن ؟؟

الدكتور فاوست : حين تأتى اللحظة ، التى أشعر فيها أنى أصبحت من السعداء .. اذا أحسست بالسعادة حقا فليكن ذلك اليوم ، آخر أيام عمرى ..

الشيطان : اتفقنا ، يا دكتور ، وكل ما أطلبه أن تكتب ، لى عهدا بذلك ..

الدكتور فاوست : أكتب لك عهدا بذلك ؟؟..

الشيطان : وتوقع العهد بقطرة من الدم ..

الدكتور فاوست : (بدهشة) : بقطرة من الدم ؟؟؟

الشيطان : قطرة .. قطرة واحدة من دمك يا سيدى الدكتور فاوست .. اذ عندى أن الدم عصير عجيب .. لا سبيل الى العدول عنه الى سواه ..

الدكتور فاوست : (مستعجلا) : حسنا .. حسنا .. ومتى تبدأ خدماتك ؟؟

الشيطان : (متأدبا فى خبث) : فى اللحظة التى توقع فيها عهدك بقطرة من دمك ..

الدكتور فاوست : هاك .. هذا هو العهد .. (ثم) .. وبهذا الدبوس .. أستنزف قطرة الدم التى تريد .. خذ .. ها هى ..

الشيطان : (يضحك ضحكاته الشيطانية معبرا عن الانتصار ..)

ونترك الدكتور فاوست ، مع المسرحية التى كتبها ، شاعر المانيا ، بل أعظم شعرائها ، فى عصره ، وربما فى كل عصر .. جوته .

عندما كان شاعر انجلترا ، لورد بايرون ، فى طريقه الى اليونان ، للاشتراك ، فى حربها للتخلص من حكم الامبراطورية العثمانية عام ١٨٢٣ .. كتب الى جوته يقول :

لئن قدر لى أن أعود من رحلتى هذه ، فسأبادر الى زيارة (ويمار) لكى أرفع فروض الولاء الخالص كواحد من الملايين المعجبين بأمير الادب فى أوروبا غير منازع .

ولد الشاعر الألمانى الكبير ، فى مدينة فرانكفورت .. فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس عام ألف وسبعمئة وتسعة وأربعين .. من أسرة متوسطة الحال ، استطاعت أن توفر له وسائل التنشئة والتثقيف فى منزله أولا .. ثم فى جامعة لايبزك .. وانتقل منها بعد مرض الم به الى جامعة ستراسبورج درس الطب والفلسفة .. وتحقيقا لرغبة أبيه درس القانون فى أستراسبورج كتب أولى مسرحياته .. وفى فرانكفورت ، أحب المرأة التى الهمته ، قصته المشهورة (آلام ورتر)

وقد نقل القصة الى اللغة العربية ، المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات .. وتعد الترجمة ، فى أسلوبها الرائع ، نموذجا فريدا فى البيان العربى ، نقلا عن اللغة التى ، ترجم منها الزيات ، وهى اللغة الانجليزية .

وفى فرانكفورت ، أخذت مكانته الأدبية ، تومض وتتألق ، حتى لقد زاره أمير (ويمار) ودعاه لزيارة مقاطعته فى المانيا .

وقام جوته بهذه الزيارة ، فاذا به يستقر فى ويمار ، ويتخذها مقاما مدى الحياة .

فى تاريخ حياة جوته ، أن ويمار أصبحت فى عهده البلد الذى لابد أن يقصده أكابر الشعراء والأدباء ورجال الفكر لزيارة الشاعر العظيم .

أشهر ما يعرفه العالم ، لجوته ، مسرحيته التى لم تمثل قط ، حتى اليوم (دكتور فاوست) ..

وقصته الرائعة (الام ورتر) ..

ولكن مؤلفاته فى اللغة الألمانية تنتظم أربعين مجلدا .

أكثر مما كتبه الشاعر الألمانى العظيم ، .. تغلب عليه الصبغة الغنائية .

له بيت شعر ترجمته الحرفية (ان الذى يعرف الشوق هو وحده الذى يدرك ما أعانى ..

وهو نفس المعنى ، الذى أتى به الشاعر العربى فى قوله :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

مسرحية دكتور فاوست ، تقع فى اثنى عشر ألفا ومئة وعشرة أبيات .. وفى جزئين . فى الجزء الأول أربعة آلاف وستمئة وثلاثة عشر بيتا .. وفى الجزء الثانى سبعة آلاف وأربعمئة وسبعة عشر بيتا ..

ظل جوته يكتب مسرحية الدكتور فاوست ، منذ أيام شبابه .. ولم يفرغ منها ، الا فى أواخر شيخوخته .

وموضوع مسرحية دكتور فاوست ، للشاعر الألمانى الكبير (جوته) .. ليس من ابتكاره وانما هو منتزع من أسطورة شعبية .. وان كان هناك الكثيرون ، الذين

يعتقدون ، أن شخصية فاوست شخصية حقيقية .. من القرن السادس الميلادى .. وكان يوصف ما يرويه الناس ، ويتناقلونه كاسطورة ، بانه رجل أفاق محتال مشعوذ .

ترجم الجزء الأول من مسرحية دكتور فاوست عن الألمانية الى اللغة العربية ترجمة أنيقة رائعة .. الدكتور محمد عوض محمد .. ومن النادر أن يوجد الكتاب فى الأسواق .. ولعل السبب أن الجزء الثانى لم يترجم حتى اليوم ..

***

باسكال

شهد القرن السادس عشر مرحلة من تاريخ الحياة الفكرية فى فرنسا ما يعتبر تمهيدا واقامة للأسس والقواعد التى قام عليها بناء هذه الحياة فى القرن السابع عشر ، وعلى الأخص فى السنوات الأخيرة الخمس عشرة من حكم الملك لويس الرابع عشر ، وقد اجمع المؤرخون ، على انه (العهد الذهبى) و(العهد الذى تألقت فيه فرنسا كوكبا يضئ جميع بلدان أوروبا من حولها) .

****

يقول فولتير فى وصفه لهذه الفترة ، من عهد لويس الرابع عشر انها (لويس الكبير) .. وحين يطلق فولتير مثل هذا الوصف ، فاننا ندرك مدى اعجاب الفرنسيين بذلك العهد .

****

والشخصية التى نستعرض جوانب من حياتها وأعمالها لم تكن من شخصيات هذا العهد الذهبى ، ولكنها تعتبر من أكبر وأعظم الشخصيات التى مهدت لعصر لويس الكبير .

****

شخصية (بليز با سكال) الذى يصفه مؤرخو الفكر والأدب الفرنسى ، بأنه (عالم الرياضيات) و(الفيلسوف الدينى) وأنه أحد الأعلام الذين

تأثروا فى تفكيرهم ، وفيما عالجوه من مواضيع الفكر والأدب ، بالمدرسة (الجنسينية) التى ناهضت بطبيعة مبادئها والقيم التى نادت بها ودعت اليها ، ما كان يطبق على فرنسا وأوروبا كلها من هرطقة وصراع طائفى اريقت معه دماء الكثيرين من الضحايا ، ولا من سبب جوهرى ، سوى الاختلاف فى وجهات النظر ، على قضايا يتعصب لها فريق ، ويقاومها فريق آخر ، مما استتبع اهتراء كل مقومات الحياة الفكرية ، ومعها الحياة الأدبية بطبيعة الحال .

ولد (باسكال) فى (كليرمون ـ فيران) عام ألف وستمائة وثلاثة وعشرين .. ويفاجئنا من كتبوا وأرخوا لسيرة حياته انه اكتشف النظريات الهندسية الأولى حين كان فى الثانية عشرة من عمره .. وعندما بلغ السادسة عشرة ، وكتب مقاله عن (المقاطع المخروطية) لم يملك (ديكارت) الا ان يعجب وان يبدى هذا الاعجاب ، وهو رجل الفكر الذى بلغ فى وقته اوج الشهرة ليس فى فرنسا وحدها ، وانما فى اوروبا ، وعلى الأخص فى هولاندا ، التى هاجر اليها ، واقام فيها عشرين عاما .. وقد بلغ من تقدير محافل الفكر لعبقريته ، وتقدير مؤرخى الفلسفة حتى اليوم لعمق تأملاته : ان سموه (ضمير عصره) .. ولكن نبوغ با سكال ، لم يقف عند هذا الحد فقد ابتكر آلة للعد .. وعندما بلغ الثامنة عشرة كان يعانى من عدة أمراض اسلمته الى الهزال ، ولكنه لم يتوقف عن التفكير والاشتغال بالرياضيات ، اذ فاجأ معاصريه وهو فى الرابعة والعشرين بتحقيق نظريات (تورشيلى) فى الضغط الجوى .. ولم تمض سنوات قلائل ، حتى وضع أساس (حساب التفاضل والتكامل) .. ولكن هذا النبوغ فى العلوم الرياضية ، وفى هذه السن المبكرة لم يمنعه من ان يزهد فى العلم ، عندما اجتذبته الحياة الروحية التى كان يعيشها جماعة (بورت رويال) وهم اتباع المدرسة الجنسينية ، فنراه ينقطع للتعبد والتأمل ويكتب هذه التأملات فيما سماه (الريفيات) ، التى يضعها النقاد ، نموذجا فريدا ورائعا فى تاريخ النشر والأدب الكلاسيكى .. والكتاب ، فى هدفه المنظور والقريب دفاع عن القيم التى تنادى بها المدرسة (الجنسينية) ، ولكنه ، فى ما ينقلها اليه من آفاق ، يستهدف تهذيب النفس ، وتطهير

الوجدان ، من نوازع الشر والحقد والكراهية ، ويدعو الى التمسك بالقيم الروحية ، والى الايمان المطلق بالله .

ومع ما هو معروف عن جنوح (فولتير) وتمرده الفكرى ، فهو يقول عن (الريفيات) : (ان فى هذه الرسائل ، كل ما يمكن أن تحلق فيه البلاغة من اجواء ، وفيه من المنطق ما لا يسع العقل الا التسليم به ، وفيه من توقد العاطفة ، ما يهز اعماق القلب ، وفيه من الابداع والصدق الفنيين ، ما يشيع فى نفوسنا الاعجاب بالقدرة على التصوير والبراعة فى الوصف والتمثيل .

ويقول النقاد عن هذا الكتاب ، انه (عقل المدرسة الكلاسيكية) ، وفيه ايضا حرصها التقليدى على الحق والجمال ، وقدرتها على تسخير الفن لخدمة الحقيقة مع الموضوعية الدقيقة التى تستبعد شخصية الكاتب ، فلا يشعر بها القارئ ، ولكنه يعيش الأفكار والصور والأهداف .

****

وبعد (الريفيات) انقطع باسكال الى الكتابة ، فيما كان يزمع ان يجعل منه دعوة الى الايمان بالمثل والقيم الروحية كما يراها وكما يؤمن بها .. ولكنه لم يكتب ما يمكن أن يسمى بحثا أو تحقيقا ، يعتمد على المصادر والمراجع العلمية ، وانما الذى كتبه هو تأملاته وحصيلة هذه التأملات ، ولم ينشر الكتاب أو لم تجمع أصوله الا بعد موته بثمان سنوات .. ولذلك ، سميت (الأفكار) .. وبطبيعة الحال ، ظل هذا الاسم ، هو الذى يطلق على فلسفة او تأملات باسكال .. ومع انه لا يوحى بشئ عن مضمونه ، فاننا عندما نوغل ، فى قراءتها نجد انها (افكار) فعلا ، وانها ترفض ان تسمى بأى اسم سوى انها (افكار) ..

****

ومع ان هذه (الأفكار) لم تنقل الى العربية فيما نعلم حتى الآن بينما نقل الكثير من الكتب التى تشكك فى القيم والمثل فان الاجماع منعقد ، لدى مؤرخى الفكر والأدب ، وحتى لدى مؤلفى الموسوعات الكبرى ، مثل الانسايكلوبيديا البريطانية على ان كتاب

(الأفكار) هذا .. اعمق واعظم ما تفتحت عنه عبقرية الانسان وقلبه فى محاولته المخلصة الجادة ، لازاحة الستار عن الحقيقة فى القيم والمثل الروحية ، ولاقناع القارئ ، بتفوق الايمان بالله على كل ما يدور حوله الفلاسفة والمفكرون ..

****

واشد ما يروعنا من مفاجآت فى تاريخ حياة باسكال الفكرية انه ـ وقد وضع بصماته على مسيرة الفكر ، وبهذا العمق ـ والتجرد والاخلاص ـ لم يعمر اكثر من تسع وثلاثين سنة .. منها طفولته وايام صباه ..



أوسكار وايلد

مما قد يستلفت انتباه الذين يتابعون حركة الترجمة عن الآداب العالمية . ويقبلون على قراءة ما يترجم من هذه الآداب ، أن أوسكار وايلد قد فاز بنصيب وافر من اهتمام الذين عنوا بالترجمة والنقل الى العربية من الكتاب الذين يعود اليهم الفضل فى التعريف بهذه الآداب .. وهو فضل ـ أنتهز الفرصة لأقول : إنه لم يلق ما يجب أن يلقاه من تقدير دوائر العلم والفن ومراكز الاشعاع الثقافي في عالمنا العربي .

وكما تختلف أساليب الكتاب ، تختلف أساليب الترجمة ، اذ ليس كل من يقرأ لغة غير اللغة العربية وينقل عنها ، الى لغتنا ، له نفس القدرة التى كان يتمتع بها أولئك الرواد فى العشرينات والثلاثينات أمثال « ابراهيم عبد القادر المازنى ، وعباس حافظ ، وأحمد الزيات ، وعلى أدهم ، وعبده حسن الزيات ، وفخرى أبو السعود ،وعوض محمد عوض » ولذلك فان أوسكار وايلد اذ كان له ذلك الحظ الموفور من اهتمام قراء الأدب الانجليزى ، فقد كان له أيضا مثل هذا الحظ فى تعدد من نقل الى العربية الاثر الواحد من آثاره ، وعلى الأخص منها مسرحية (سالومي) مما يتيح للمتذوق أن يرى كيف يهبط الاثر وكيف يرتفع .. كيف يهوى الى السفح أو القاع ، وكيف يتسنم القمة ، نتيجة لضعف الناقل الى العربية أو قوته ؛ أسلوبا ، وإحساسا بالمعنى الذى يجده فى اللغة الانجليزية ، وقدرة على نقل هذا المعنى باختيار الالفاظ ، التى تمتد لها نفس الظلال فى اللغة الأجنبية .

وأوسكار وايلد كاتب انجليزى . أو لنا أن نقول : إنه كتب كل آثاره باللغة الانجليزية ، ولكنه كالكثيرين من كتاب المسرح الانجليزى ، مولود فى (ايرلندة) .. وفى (دبلين) على التحديد ، وهى ظاهرة لم تجد من يعلل لها الا بالسخرية اللاذعة التى كان يسخر بها بيرنارد شو (وهو أيضا أيرلندى) من شيكسبير ، حين يسمع من يتباهون به من الإنجليز ، فيقول : (من الذى يستطيع أن يعرف أصل شيكسبير ؟) ... وهو صادق الى حد ، اذ قد بلغ شيكسبير من الشهرة والشموخ ، الحد الذى جعل كثيرا من الأمم تدعى أنه من أبنائها ... كما وجد بين المثقفين العرب ، من استطاع أن يدعيه ، فيقول : إنه عربى ، وأن أسمه الأصلى هو (شيخ زبير) ... وتحرفت الألفاظ أو الحروف العربية على السنة الإنجليز ، فسموه (شيكسبير) ...

وأوسكار وايلد ، يعتبر من أدباء القرن التاسع عشر ، اذ ولد فى عام ١٨٤٥ م وتوفى فى باريس عام ١٩٠٠ م وتلقى تعليمه الأولى فى كلية ترينيتى .. ثم انتقل الى جامعة أكسفورد فى عام ١٨٧٤ م حيث سطع نجمه منذ كان فى الجامعة ، فى ما كان يسمى شاعرا بالحركة (الجمالية) .

ومع أن أوسكار وايلد معروف ككاتب مسرحى ، فان الأدب العالمى ، يعتبره شاعرا ، اكثر منه كاتبا مسرحيا ... ويقول النقاد إن وايلد : قد استطاع أن يضيف أو أن يحقن الأدب الانجليزى الذى ظل يلتزم تقاليد المسرح التى تقررت فى عصر (فيكتوريا) بروح الكوميديا التى بدا كأنها قد فارقت هذا الأدب ..

ورائعة أوسكار وايلد فى الأدب المسرحى ، هى مسرحية (سالومى) التى رفضتها المسارح الانجليزية المعروفة فى أيامه بتزمتها والتزامها تقاليد العصر الفيكتورى فرحبت بها باريس ، ومثلتها سارة بيرنار ، فى دور سالومى ، ويذكر تاريخ المسرح أن سارة بيرنار كانت موهبة تمثيلية قل أن يجود الزمن بمثلها ، ويبالغون فيقولون : إن المسرح الفرنسى لم يشهد مثلها حتى اليوم .

وقد جرب وايلد كتابة القصة ، والأساطير ومنها (الأمير السعيد) ، ثم كتب الرواية التى لم يبق فى العالم من لم يقرأها ويعجب بها ، وهى (صورة دوريان جريه) .

اتهم وايلد بجريمة خلقية ، حكم عليه بالسجن من أجلها فسجن ، وبعد خروجه من السجن سافر الى فرنسا لأن المجتمع الانجليزى لم يعد يستطيع أن يفتح أبوابه لاستقباله ، بل لقد بلغ من حرص الانجليز على تقاليدهم ، أن تاريخ الأدب الانجليزى الى الأربعينات من هذا القرن ، كان لا يتطرق الى ذكره ، أو حتى مجرد الاشارة الى أى أثر من آثاره وذلك فى الكتب الأكاديمية التى تتداولها أيدى الطلاب فى الجامعات وان كان هذا لم يمنع اهتمام النقاد به فى انجلترا وفى خارجها ، بحيث بلغ عدد الكتب التى ألفت عنه أكثر من خمسين مؤلفا بأقلام كتاب لهم وزنهم ، ومنهم جورج بيرناردشو .

مات أوسكار وايلد فى باريس .. بين براثن الفاقة والجوع والتشرد ، ومع أنه لم يعدم من يعطفون على مأساته فقد وجد من النقاد من يعتبر وفاته بهذه الحال فى باريس ، نهاية يستحقها عقابا فوق ما لقيه من عقاب السجن ، والطرد من المجتمع والفاقة والجوع ..



فيرجيل

لا يزال الفكر الاغريقى ، والى حد ما ، الفكر الرومانى ، مفخرة الحضارة الغربية ويجمع مؤرخو الفكرين ، آدابا وفلسفة ، على أن الحضارة الغربية مدينة للاغريق والرومان ، ولكن مع اجماع على أن الفكر الاغريقى ـ وهو الأسبق ـ أعظم تأثيرا فى سيرة الحضارة والفكر على مر العصور والأجيال ..

ويأتى (هومير) أو (هوميروس) كما تعودنا أن نسميه فى اللغة العربية فى الطليعة ـ أو فى قمة هذه الطليعة من تاريخ الأدب العالمى ، اذ هو صاحب الملحمتين المشهورتين .. الالياذة والاوديسا .. ويصفه كل من نقلوا الالياذة من الكتاب الانجليز ، انه بهاتين الملحمتين قد رفع الشعلة فى الظلام الطويل الذى يعتقد انه ظل يغمر حياة الانسان . والفترة الزمنية التى تفصل بين ظهور هومير ، وغروب شمس الحضارة الاغريقية ، لترثها الحضارة الرومانية ، تبلغ سبعة قرون .. وكان مرآة هذه الحضارة ، (فيرجيل صاحب ملحمة) (أينيد) .

وفيرجيل يجمع النقاد على أنه أعظم شعراء الرومان ، وقد ولد سنة سبعين وتوفى سنة تسعة عشر قبل الميلاد .. وكان مسقط رأسه فى قرية (مانتوا) (أو مانشوا) وهى احدى المدن فى شمال ايطاليا وتلقى علومه فى مدارس كانت تعرف باسم (كريمونا) فى ميلانو وروما ..

ومع ان الدراسة التى تلقاها كانت تهيئ له مركزا وعملا مرموقا ، فان اعتلال

صحته ، ورهف حسه ، وجفوة طباعه ، جعلته لا يكاد ينهى دراسته حتى عاد الى قريته ، حيث مزرعة أبيه ، مستغنيا عن كل عمل ، الا التفرغ لكتابة الشعر . وهناك فترة غامضة فى حياته ، نتجت عن الحرب الأهلية التى نشبت فى عام ٤٢ قبل الميلاد ، يبدو أن جانبا من أعماله قد ضاع فى هذه الفترة لأن جانبا كبيرا من اراضيه وممتلكاته ، احتلته القوات المتصارعة ، ومع ذلك فهناك من يرجح انه اعاد كتابتها ، أو عثر عليها واستنقذها .

وملحمة (أينيد) هى قصة بطل أو قائد أسطورى اسمه (اينيس) ليس فى التاريخ المدون ما يثبت وجوده ، ولكن ما يروى عن بطولته كحكايا على السنة الناس كثيرة كانت تتوارثها الأجيال الى أن جاء فيرجيل ، واتخذ من هذه الحكايا مادة أو عنصر ملحمته . ومما يستلفت الانتباه ، أن (أينيس) هذا موضوع حكايات بدأت عند الاغريق قبل الرومان ، فاذا لم ننس أن الرومان قد أقاموا كيانهم الحضارى على أنقاض الحضارة الاغريقية ؛ فلا بد أن نسلم ، بأن فيرجيل حين اتخذ من (أينيس) موضوع ملحمته وأسبغ عليه ما أسبغ فى هذه الملحمة من الأمجاد فى اطار رومانى كان فى الواقع يتوخى تجريد الحضارة الاغريقية من أمجادها وحتى من أبطالها الخرافيين .

ولا أذكر أنى قرأت ترجمة لها الى اللغة العربية ، لأحيل القارئ اليها ، ولكن يمكن أن نقول : إن الملحمة كلها تقوم على ذكر البطولات الخارقة التى قام بها (أينيس) باعتباره بطلا رومانيا ، فى حروب تمجد الرومان .

وتبلغ الملحمة (أينيد) الذروة فى التعقيد أو الاوج فى الاحتدام عندما يبدأ الصراع بين (أينيس) عندما وافق (لاتينس) على زواج ابنته الوحيدة (لافينيا) من (اينيس) .. فقد كان لهذه الفتاة ـ وهى وحيدة أبويها ـ عاشق هو (جيونو) ما كاد يبلغه خبر موافقة (لاتينس) على زواج (لافينيا) من هذا الغريب (اينيس) حتى ثارت ثائرته ، وجن جنونه ، وأخذ يستعد للحرب ، مستعينا بتورنوس ملك احدى مقاطعات ايطاليا ، وهذا استعان وتحالف بدوره مع ملوك مقاطعات أخرى ، وكل ملك له جيشه وقواته ، بينما استعان (اينيس) بقوات من مستعمراته الاغريقية ، وتستمر

المعارك .. وتنتهى أخيرا بانتصار (اينيس) وقيامه (بذبح) خصمه العنيد (تورنوس) وليس جيونو الذى نشبت المعارك بسببه .. ويتزوج (اينيس) من (لافينيا) ويؤسس أو يبنى مدينة (لافينيام) تخليدا لذكراها .. وتستمر الملحمة بعد ذلك ، لتغطى مراحل أخرى ، وشخصيات جديدة ، الى أن يتم بناء مدينة (روما) عاصمة ايطاليا فى العصر الحاضر ..

ويقول النقاد : إن (فيرجيل) كان متأثرا الى حد بعيد بتقنية بناء القصص التى وجدها فى الاوديسا والإلياذة، لهوميروس .. ورغم توخيه تجريد الاغريق من أمجادهم ، فاننا نرى أن والدة (اينيس) هى (الزهرة) أو (فينوس) كما نرى فى (اينيد) طريقة هوميروس فيما يسمى (نتلا فلاش باك) أو العودة الى خلفيات الحديث أو الاستطراد ، متابعة لما وراء أو ما حدث قبل القصة التى يعطينا بدايتها ، ثم يعود بنا الى ما قبل هذه البداية .. أو يعطينا نهايتها الدرامية ، ثم يعود بنا الى بدايتها ..

ولكن هذا لم يكن لمجرد أن يفجر فيرجيل من طاقاته الفنية وقدرته على الابتكار وبناء المراحل فى الحدث بناء واعيا فيه الادراك المتعمق للفن فى هذا البناء وللهدف وهو تمجيد الرومان ، وترسيخ بطولاتهم ، ليس فقط كمحاربين ، وانما كسادة للعالم بكل من فيه من البشر .. ويذهب به الاعتزاز بالعنصر الرومانى الى حد الزعم الخرافى ، بأنهم ـ حتى اذا ماتوا وانتقلوا الى العالم الآخر ـ فسوف يستقبلهم هذا العالم استقبالا يليق بامجادهم وبطولاتهم ..

وتقع الملحمة فى ستة أجزاء ويقول المؤرخون والنقاد : إن (فيرجيل) حين كتب الجزء السادس ، بدا وكأنه يضع فلسفته الخاصة ونظرته الى الموت والحياة ، حيث نراه يؤمن بحياة بعد الموت ، وبالجزاء عقابا أو ثوابا .. ورغم أن تأثره بالالياذة والاوديسا واضح فى ملحمته ، فان ما يحسب له أنه أقل بدائية ، وأن خياله ، على اغراقه فى تصور اعمال خارقة يقوم بها أبطاله ، لم يكن يخلو من التعقل والمنطق ، والترابط بين المقدمة والنتيجة .. والسبب هو النضوج الثقافى الذى كان قد تحقق فى عصره ، الذى سطع فى أعقاب سلسلة طويلة من فلاسفة الاغريق ، وفى مقدمتهم سقراط ، وأفلاطون وأرسطو

الذين تركوا تراثـا فكريا لا يزال يعيش حتـى اليوم .. ولا سبيل الى أن ننسى أن هومير وس حين كتب أو قص الالياذة والاوديسا ، لم يكن لاولئك الفلاسفة وجود .. حتى لقد وجد ـ وما يزال يوجد ـ من يعتقد أن هومير وس نفسه شخصية لا وجود لها ، وأن الاوديسا والالياذة ، قد تكون من وضع متعددين وخلال قرون طويلة ، قبل النهضة الفكرية فى اليونان .

فى السنة التاسعة عشرة قبل الميلاد ، فرغ فيرجيل من ملحمته ، وقابل الامبراطور أغسطس فى أثينا والارجح أن الامبراطور ، قد سمع عن الملحمة ، قبل أن يمثل الشاعر بين يديه ، فاقترح عليه أن يصحبه الى روما ، ووافق فيرجيل ، وأعرب عن رغبته فى السفر بعد ذلك الى بعض بلدان آسيا الوسطى ، حيث وقعت احداث ملحمته ، بهدف اعادة النظر فى الملحمة ، وتهذيبها وتنقيح بعض ما جاء فيها وتجويد ادائها البلاغى .. واصطحبه الامبراطور فى رحلته الى روما .. وفى السفينـة التـى تبحـر بهما ، مرض فيرجيل ، وما كاد يصل إلى شواطئ ايطاليا ، حتى اشتد عليه المرض ، فمات ، ودفن ـ كما يرجح الكثير ون ، بالقرب من (نابولي) ..

ومما يروى ، عن رأى فيرجيل فى ملحمته ، أنه لم يكن راضيا عنها قبل وفاته لأنه كان يرى أنها لم تبلغ من الجودة الحد الذى يريده لها ، ولذلك فقد اعتزم أن يحرقها ، وكاد يفعل لئلا يسجل عليه عمل لا يرضاه ، فسمع الامبراطور أغسطس بالخبر ، فامر باستنقاذها منه .. واحتجزها .. حيث عمل على نشرها ـ بالأساليب والطرق المتاحة فى تلك الأيام ـ بعد وفاة فيرجيل بسنتين ..

كتب فيرجيل ملحمته باللغة اللاتينية .. ولهذا ظلت مصدرا ثرا لهذه اللغة ، يقرأها الأدباء والمفكرون ، فى أوروبا ويتأثرون بها ، جيلا بعد جيل وبالأخص فى العصور الوسطى ، ولولا أن تشوسر فى انجلترا ، وامثاله فى فرنسا قد اقتحموا اسوار اللغـة اللاتينية وحطموها ، حين بدأوا يكتبون باللغة الانجليزية والفرنسية التى يستعملهـا عامة الناس فى حياتهم اليومية ، لظلت اللاتينية هى اللغة المكتوبة ، وهى وحدها لغة الشعر والأدب فى أوروبا كلها .

وأعجب ، ما يسترعى الكثير من التأمل ، أن جذور الكثير من مفردات اللغة الانجليزية والألمانية والفرنسية ، فضلا عن الايطالية والأسبانية . لاتزال تعتمد على الأصل اللاتينى .. وهذا هو السبب فى أن أى كلية لأدب هذه اللغات ، تحتم دراسة اللغة اللاتينية باعتبارها الأساس ومصدر الاشتقاق فى ما لا يقل عن ستين فى المئة من المفردات ..



رابندرانات تاغور

أول شاعر ، ومفكر شرقي منح جائزة نوبل للسلام .. في عام ١٩١٩م.

ولد في مدينة (كلكتا) في الهند عام ١٨٦١م.. وتوفي عن عمر ناهز الثمانين .

وهو سليل أسرة عريقة ، وغنية ، وقد تلقى تعليما عاليا .. ورغم اجادته اللغة الانجليزية ، ولم يكن يوجد ما يمنع أن يكتب بها أشعاره وأدبه .. فقد كتب جميع مؤلفاته باللغة البنغالية .

من أشهر مؤلفاته ـ وهي كثيرة ـ وصغيرة الحجم .. ديوانه (جاتينجالي) الذي ترجمه (يوحنا قمبير) الى اللغة العربية .

ومنذ أكثر من ثلاثين عاما ، ترجم له الأستاذ اسماعيل مظهر (التضحية) . من روائع قصصه القصيرة ، التي نقلتها الى العربية (العم كابلي) .. و(سوبها) ، (وجيه من نايانجور) .. و(الوصية) ..

مايزال تاجور علما من أعلام الأدب العالمي ، ومفخرة من مفاخر الشرق ، وهو صاحب نظرية (العالم وطن واحد للجنس البشري) .

قام تاغور برحلات واسعة الى أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط ، وقد لقي الحفاوة والتكريم اللذين يليقان به كشاعر وفنان وفيلسوف .

أنشأ أكاديمية عرفت باسمه ، على أساس من منهج وضعه هو .. أساسه حرية الاختيار . فالطالب فيها حر في اختيار المادة التي يتعشق دراستها ، وأهم مواد

الأكاديمية ، الموسيقى والرسم ، والشعر ، والحوار الفلسفي .. والرقص الديني ، والانعتاق الروحي من أسر المادة والانطلاق الفكري في اتجاه الحب والسلام .

في كل قصة من قصصه القصيرة ، أو في روايته الطويلة (القلوب الضالة) ترى وتعيش غابات البنغال وغضبة النهر ، وهدير الرعد ،وزخات الأمطار الموسمية ، ورقة المرأة الهندية وسلامة طويتها ، واخلاصها المثالي لبيتها وزوجها ، الى جانب ذلك البؤس الذي يغلب على حياة الانسان الهندي ، نتيجة لقسوة الطبيعة والمجتمع .

من أغرب ما يروى عنه أنه كان يتفاءل بالرقم (١٤) لأنه كان الابن الرابع عشر لأبيه .. وأول قصيدة نشرت له عندما كان في مستهل الرابعة عشرة من عمره .. ولذلك كان يحتفظ بقفص فيه أربعة عشر طيرا من طيور غابات البنغال ..

ومع انه كان مناضلا قويا ضد الاستعمار البريطاني ، فقد منح لقب (سير) من الحكومة البريطانية ورغم أنه من أسرة برهمية (وثنية) عريقة ، فقد كان يؤمن بوحدانية الله .. ويرى أن روح الانسان هي قبس من روح الله .. وأن الانسان مفطور على الخير والطيبة وبراءة الأطفال .. وليس الشر الا حصيلة الطين .. والطريق الى الخير .. ان تتخلص من الوحل .. من الأرض ..



أسرة كل أفرادها شعراء

ليس نادرا ان تجد ابا شاعرا ، وابنا له يتعلق الشعر ، او ينظمه ، او أن تجد فنانا مبدعا ، كان احد اجداده فنانا ايضا .. ولكن يندر جدا أن تجد أسرة كان فيها الجد شاعرا ، والاخوان شعراء ، والأبناء والأحفاد شعراء بل وابناء الأحفاد أيضا يعدون فيمن يعد من الشعراء .

تلك هى أسرة الشاعر الجاهلى .. (زهير بن أبى سلمى) ..

زهير بن ابى سلمى ، هو الذى يأتى ثالثا بين أقطاب الشعر الجاهلى ، على ما ذهب اليه النقاد القدامى ، اذ كانت المقاييس التى يوزن بها شعر الشعراء تلك المقاييس التقليدية التى تعنى باللفظ يناسب الموضوع ، وبالمعنى يبرز فكرة الشاعر ، وقبل ذلك بالوزن يخلو من عيوب معينة كالأقواء ، ويناسب أو يتفق مع غرض الشاعر .. وقد لا يكون هذا رأى النقاد المحدثين ، اذا اختلفت المقاييس او انها تطورت ، بحيث يمكن ان يعد زهير بن ابى سلمى اول شعراء الجاهلية او شعراء المعلقات اطلاقا .

وقد نشأ زهير فى بيت عريق فى الشاعرية .. فقد كان ابوه شاعرا ، وخاله شاعرا .. وزوج أمه (اوس بن حجر) شاعرا ، واختاه سلمى والخنساء (وهى غير الخنساء الشاعرة المشهورة) كانتا شاعرتين ، وكان ابناه (بجير) و (كعب صاحب بانت سعاد) شاعرين ، وكان حفيداه سعيد وعقبة الملقب بـ (عرب) شاعرين وعرف من ابناء حفدته اربعة شعراء هم : (عمرو بن سعيد ، والسوار والعوام ابنا عقبه المضرب

وبشير بن العوام) .

قالوا : ولعل الشاعرية اتت زهير بن ابى سلمى من خاله وخال ابيه : (بشامه ابن الغدير) وكان شاعرا مشهورا وسيدا غنيا ، ولم يكن له ولد ، فاحب زهيرا وعنى بتنشئته ، وسمع زهير كثيرا من شعره .

ومما يروى ان بشامة كان من المعروفين فى قومه بالرأى والحزم ، فيستشار فى ما يمكن ان تقدم عليه غطفان ، فيشير عليهم بالرأى الذى تظهر لهم جدواه ، فيما يبرمون من امورهم فاذا رجعوا من الغزو مثلا ، وقد قدموا عليه برأى اشار به بشامة ، فانهم يقسمون له من غنائمهم مثل ما يقسمون لأفضلهم .. فكأنهم لا يجدون فرقا بين الفارس المقدام فى ساحة القتال ، وبين صاحب الرأى الحازم يشير به عليهم وهو فى خبائه .

قالوا .. حين حضرته الوفاة جعل يقسم امواله فى أهل بيته وبين بنى اخوته ، فجاءه زهير يقول : (يا خال .. لو قسمت لي من مالك ..) فقال : بشامة بن الغدير : (ولكنى يا ابن اختى .. والله لقد قسمت لك افضل ما عندى وأجزله ..) قال زهير : (وما هو ؟؟؟) فقال بشامة : (الشعر .. وقد ورثتيه) ثم قال : (من اين جئت بهذا الشعر ؟) لعلك ترى انك جئت به من مزينة يعنى قبيلة زهير وآباءه .. (لقد علمت العرب ان حصاتها وعين مائها فى الشعر لهذا الحى من غطفان .. ثم لى منهم ، وقد رويته عنى) ..

والقصة تروى فى سباق تأكيد تأثر زهير ، بخاله الشاعر بشامة بن الغدير ..

****

ويروى صاحب الأغانى ان زهيرا بن ابى سلمى كان يقضى اربعة اشهر فى نظم القصيدة من قصائده المشهورة ، ثم ينقحها فى اربعة اشهر ، ويعرضها على الفحول من رصفائه الشعراء اربعة اشهر .. فهو لا يلقيها ـ وكان الالقاء طريقة النشر الوحيدة فى ايامهم ـ الا بعد سنه .. ولذلك تسمى بعض قصائده بـ (الحوليات) ..

وفى الحكاية ـ ان صحت او لم تصح ـ اشارة الى ما عرف عن الشاعر من حرصه على ألا تخرج القصيدة من شعره الا بعد ان يوسعها تنقيحا وضبطا واختيار اللفظ

يناسب المعنى من معانيه التى تعكس نماذج من التقوى ، وايثار السلام على الحرب ، والتحذير من الخيانة والغدر والانطواء على الحقد ، وهى معان ينفرد بها زهير بين جميع شعراء العصر الجاهلى ، والكثير منها ظل طيلة هذه المئات من السنين ، يعيش كحقائق لا تتغير من حقائق العلاقات بين الناس .

****

ومع ان زهيرا من بنى مزينة فقد ولد لدى اخواله (غطفان) وفيهم ترعرع وشب ، وعندهم تزوج أم اوفى ، التى رزق منها أولادا ماتوا صغارا فتزوج أخرى - ومن غطفان أيضا رزق منها كعبا وبجيرا وسالما .. ومع ان أخباره تقول انه فارق ام اوفى ، حيث غارت من زوجته الثانية (كبشة بنت عمار) ، الا انه لم ينسها وكان دائم الحنين اليها ولعلها هى التى بدأ بها معلقته اذ يقول :

أمن (أم اوفى) دمنة لم تكلم بحومانة الدراج ، فالمتثلم
ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم

ويصفون اخلاق زهير فيقولون انه كان رزين الطبع ، يؤثر التروى والأناة ، لا يفتر عن النصح بالخير والسلام ، وان ذلك اكسبه احترام غطفان كلها ثم غيرها من القبائل التى عرفته وتناقلت فرائد شعره الذى ينبض بالحكمة والحق حتى وصفه النقاد فى العصور المتأخرة بأنه الشاعر الحكيم ..

على أن ابرز ما يستلفت النظر فى شعر زهير بن أبى سلمى - وتجمع أخباره على أنه مات قبل الاسلام - هو ايمانه بالبعث والحساب اذ يقول معلقته :

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر .. فيوضع فى كتاب ، فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

****

وحرب داحس والغبراء التى نشبت بين بنى عبس ، وبنى ذبيان ، والتى طالت والتهمت الكثير من قتلى القبيلتين - وكلاهما من غطفان - والتى لم يكن لها من سبب سوى مراهنة سيدى بنى عبس وبنى ذبيان على فرس لسيد بنى عبس اسمها

(داحس) وفرس لسيد بنى ذبيان اسمها (الغبراء) .. ايها يسبق الآخر .. هذه الحرب هى التى الهمت زهير بن ابى سلمى معلقته .. وهو لم يقلها تشجيعا لاحدى القبيلتين على الأخرى ، او تفاخرا بما حققته هذه أو تلك من انتصارات ، وانما قالها اعجابا بهرم بن سنان الذى كان من عقلاء القوم ومن اكابرهم ، فسعى ـ مع الحارث ابن عوف ـ لعقد الصلح بين القبيلتين وحقن الدماء ، على أن يحسب كل فريق قتلاه ، وتحمل الديات الى اهل القتلى الذين لم يثأروا لقتلاهم . وقد بلغت هذه الديات ثلاثة آلاف بعير تحملها هرم بن سنان والحارث بن عوف ، ودفعاها الى اهل القتلى فى ثلاث سنوات .

ولا شك ان اتجاه زهير بن ابى سلمى الى الاعجاب بالسلام وحقن الدماء وتكريسه معلقته على امتداح السيدين اللذين تحملا الديات ، اتجاه فريد فى الشعر الجاهلى خاصة ، وفى كل ما فاضت به قرائح الشعراء فى عصور لاحقة .

ومع ان موضوع المعلقة هو هذا الذى استثار شاعرية الشاعر ، فانه لم يستطع ان يخرج عن التقليد الشائع فى عصره ، إذ لا بد للشاعر ، ان يقف على الأطلال وان يذكر التى يحبها فيتغزل فيها ويحن الى لقائها ، ثم ينتهى الى موضوعه او ينطلق كيفما احب ، من مديح او هجاء ، او وصف ، أو رثاء الى آخر ما هنالك من فنون الشعر .

ويروى النقاد فى مجال تقدير الشاعر والاعجاب بمعلقته على الأخص ان ابن عباس رضى الله عنهما قال : (خرجت مع عمر بن الخطاب فى أول غزوة غزاها فقال لى ذات ليلة : (يابن عباس .. انشدنى لشاعر الشعراء ..) قلت : (ومن هو يا أمير المؤمنين ؟؟) قال : (ابن ابى سلمى) قلت : (وبم صار كذلك ؟؟) قال عمر رضى الله عنه : (لأنه لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظِل فى المنطق ، ولا يقول الا ما يعرف .. ولا يمتدح الرجل الا بما يكون فيه) .. ثم قال : (انشدنى له .. فانشدته حتى برق الفجر .. فقال : (حسبك الآن .. اقرأ القرآن ..)

قالوا : جرى ذكر الشعراء فى مجلس عبد الملك بن مروان ، فسأل قوما من الشعراء (أى بيت امدح) يعنى (ابلغ فى المدح) فاتفقوا على انه قول زهير :

(تراه ـ اذا ما جئته ـ متهللا كأنك تعطيه الذى انت سائله)

ويروى ان عثمان بن عفان رضى الله عنه انشد بيت زهير الذى يقول فيه:

(ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم)

وقال معلقا : (لقد احسن زهير وصدق .. فلو ان رجلا دخل بيتا فى جوف بيت .. لتحدث به الناس) .

ولزهير بن ابى سلمى بيته المشهور الذى قالوا انه جمع فيه عناصر اثبات الحق فى القضايا وخلافه . وهو :

فان الحق مقطعه ثلاث : .. يمين .. او نفار . او جلاء

يعنى يمينا .. أو رجوعا الى حاكم يقضى بالبينات .. او جلاء وهو بيان وبرهان يتجلى به الحق وتتضح به الدعوى .

وقال احد النقاد القدامى : (ما يقدم زهيرا على غيره من الشعراء أنه كان احسنهم شعرا .. وابعدهم من سخف .. واجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ .. واشدهم مبالغة فى المدح .. واكثرهم امثالا فى شعره)

ومع ان لزهير بن ابى سلمى ديوانا مطبوعا ، فان اكثر ما ينتشر على لهوات المعنيين بشعره ، هو من معلقته التى نقتطف منها ما يتسع له الوقت :

****

وفى المعلقة ما يثبت انه القاها ـ او فلنقل نشرها ـ بعد أن نيف على الثمانين اذ يقول : سئمت تكاليف الحياة .. ومن يعش .. ثمانين حولا – لا ابالك – يسأم ..

ومع ذلك فاننا نراه بعد هذا الدهر الطويل يحن الى ذكرى (ام اوفى) زوجته الأولى التى فارقها بعد ان تزوج (كبشة بنت عمار) وهو يبدأ بها معلقته اذ يقول :

أمن أم أوفى دمنه لم تكلم بحومانة الدراج فالمتلم

ثم يقول :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

فلما عرفت الدار . قلت لربعها الا انعم صباحا ايها الربع واسلم

ومنها :

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم ..ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ، فيوضع فى كتاب ، فيدخر ، ليوم حسابٍ أو يعجل فينقم

ومنها :

رأيت المنايا خبط عشواء من .. تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم

ثم يقول :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة ..يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه . يفره .. ومن لايتق الشتم يشتم

ومعنى « يفر » يكثر .. والمعنى من يجعل احسانه بين عرضه وكلام الناس ، يصون عرضه من الذم .

ثم يقول :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله .. على قومه يستغن عنه ويدمم

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه .. الى مطمئن البر .. لا يتحمحم ..

ومن اجمل ما فى المعلقة قوله :

ومن هاب اسباب المنايا ينلنه .. وان يرق اسباب السماء يسلم

ونرى نظرة متعمقة الى بعض خلائق البشر فى قوله :

ومن يجعل المعروف فى غير اهله . يكن حمده ذما عليه ويندم

ثم نرى قاعدة فى الذود عن الحياض ، او الدفاع عن الشرف ما تزال قاعدة حتى اليوم .. اذ يقول :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن المعلقة قوله :

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومنها :

لسان الفتى نصف .. ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

****

وبعد فزهير بن ابى سلمى ، وهو من ارومة الشعر العريقة ، قد انجب كما سبق ان ذكرنا ابناء شعراء وأحفادا شعراء ، وابناء احفاد شعراء ايضا .. ولكن ابرزهم من ابنائه .. كعب ، الذى تقدم الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه معتذرا بقصيدته المشهورة :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

وما سعاد ، غداة البين إذ رحلوا إلا اغن ، غضيض الطرف ، مكحول

ويقول فيها :

نبئت ان رسول الله اوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا .. هداك الذى اعطاك نافلة القرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى باقوال الوشاة ولم اذنب ، وان كثرت فى الأقاويل

الى أن يقول :

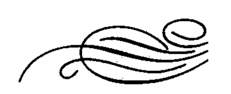
مازلت اقتطع البيداء ، مدرعا جنح الظلام وثوب الليل مسبول

حتى وضعت يمينى لا أنازعها فى كف ذى نقمات قيلة القيل

لذاك أهيب عندى اذ اكلمه وقيل : (انك منسوب .. ومسلول)

الى أن يقول :

ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول



لامية العرب

وصاحب لامية العرب هو الشنفرى ..

والشنفرى هو : ابن الأوس بن الغوث بن شيت بن زيد بن كهلان . قالوا : ان الشنفرى هو لقبه ، ولكنهم لم يقولوا ما اسمه .. فكان ان عرف بالشنفرى اسما .

ومعنى الشنفرى .. البعير الضخم .. وقيل هو الرجل عظيم الشفتين .

اما لماذا سميت قصيدته (لامية العرب) مع ان الشعر الجاهلى فيه العدد الكبير من اللاميات ، اى القصائد التى تكون قافيتها لاما ، مثل معلقة امرئ القيس ، وقصيدة كعب بن زهير بن ابى سلمى : (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) ، فليس من تعليل وسبب يمكن الركون اليه .. ليس من يعلل لماذا سميت قصيدة الشنفرى وحدها لامية العرب ، بين الكثير من قصائد الشعراء الجاهليين من ذوات قافية اللام . كما ان التسمية ليست حديثة او ناشئة من غرض التفريق بينها وبين لامية العجم للطغرائى التى ظهرت بعد لامية العرب بخمسمئة عام تقريبا ، والتى لا شك فى ان الطغرائى قد نظمها معارضة لقصيدة الشنفرى ..

****

واذا كانت هذه اللامية للشنفرى قد حظيت بعناية الأدباء القدماء ، فشرحها ابو العباس المبرد فى القرن الثالث الهجرى ، ثم شرحها العلامة الزمخشرى فى القرن الخامس فان ما حظيت به عند علماء الاستشراق من العنـاية بنقلهـا الى الألمانية

والانجليزية والفرنسية والبولونيه والايطالية ، ثم بشرحها شرحا وافيا ودراستها دراسة متعمقة يؤكد انها العمل الأدبي الضخم ، الذى يستحق ان يعنى به عشاق الأدب الرفيع فى هذا العصر ، وفى كل عصر .

وقد عنى بها عناية خاصة ، فشرحها وحققها الدكتور محمد بديع شريف من اكابر أدباء العراق ، فى عام الف وتسعمئة واربعة وستين ، وتمتاز دراسة هذا الأديب الكبير لها ، بمحاولة رائعة رائدة ، هى ترتيب ابياتها ترتيبا يربط بعضها ببعض فى المعانى ، بغرض ابراز الصور التى جاءت فيها على ما يجب ان تكون عليه .. وذلك كما يقول الدكتور محمد بديع شريف ، لأن الحافظة والرواية فرقت بين البيت واخيه وفرقت بين الأبيات والصور المكتمله التى كان الشاعر يريد رسمها .

****

يقول الدكتور محمد بديع شريف عن الشنفرى .. (ان سيرته غامضة وزمان ولادته مبهم ومكان وجوده لا يتبين المرء فيه الا بصيصا من شعاع يضئ بما جاء الينا عن شراح قصيدته والمعنيين بشأنه من رواد الأدب والرواية .. ذلك لأن تاريخ فتيان الجاهلية لم ينقش على الأحجار ، ولم يكتب على الرقوق ، بل كان يحفظ فى الصدور ..)

****

كان يضرب به المثل فى العدو .. فيقال : (اعدى من الشنفرى ..) وكان معاصرا لتابط شرا الذى عاش قبل مبعث النبوة بقليل .. والحديث عن سيرته طويل وعريض فيه طرافة .. وفيه ايضا ضرب من خرافة .

****

من الخرافة فى اخباره ، او مما يدخل فى بابها ومفهومها .. انه فى أيام صباه او طفولته وقع أسيرا فى بنى شبابه من بنى فهم ودرج فى هذه القبيلة .. ثم حدث ان فدت قبيلة بنى شبابة هذه اسيرا من رجالها لدى بنى سلامان بالشنفرى .. فبقى عند بنى سلامان معتقداً انه منهم ، وكان فى كنف رجل لعله خلطه باهله وولده ، ولكن احدى بنات هذا الرجل لطمت الشنفرى وانكرت أن يكون أخاها ، فعزت الاهانة عليه فذهب الى

ابيها ، وسأله : (ممن انا ؟؟؟) فلما قال الرجل : (انت من الأوس بن حجر من الأزد) توعده الشنفرى قائلا : (سأقتل منكم مئة رجل جزاء فعلتكم معى) . ثم بدأ بالرجل ابى الفتاة فقتله .. وظل يترصد ويتصيد رجال هذه القبيلة ، فقتل منهم تسعة وتسعين .. الى أن ترصد له اثنان منها ، فاسراه واخذا سلاحه وقطعا يده .. ثم قتلاه ، ولكن بقى واحد من العدد الذى حلف الشنفرى ان يبلغه من قتل رجالهم .. لم يقتله حيا .. ولكن جمجمته اكملت العدد ، اذ ضربها رجل من القبيلة بقدمه ، فعقرته ومات .. وبه تم العدد من قتلى الشنفرى ..

****

ويقول الدكتور محمد بديع شريف ، عن هذه الخرافة وعما عرف به الشنفرى من القدرة الفائقة على العدو ، وعن القصص التى تروى عن هذه القدرة ، وقدرة امثاله من العدَّائين المشهورين .. (هذه قصص وروايات ، تكتب تارة وتروى .. وتارة أخرى تنقش على الصخر أو الفخار ، واحيانا لا تكتب ولا تنقش ولكن تتناقلها الألسن مما حفظ فى الصدور وفى كثير من الأحيان تكون شعرا صرفا ، وفى بعض الأحيان تكون شرحا لشعر ، وفى بعضها تكون نثرا وشعرا .. وغاية كل هذه الروايات والأشعار تربية اجيال تلك الأمم على القوة والعزم ، والصبر والمروءة وما الى ذلك من معانى الرجولة ..

****

والشنفرى فى لاميته كما يراه ، الدكتور محمد بديع شريف : (يطلب من قومه الجد فى عظائم الأمور ، فان لم يفعلوا ، فهو يهجرهم الى وحوش الفلا .. الى الذئب والنمر والضبع .. الى هذه العشيرة التى يقول ، انها تحمى الجار ، وترعى الذمة ، وتحفظ السر .. الى هذه المرابع التى تعيش فيها هذه الكائنات القوية ، والتى يجد فيها الحر الكريم منأى عن الأذى والذله .. اذ فيها متسع لحفظ كرامته ، وفيها مواطن عزه بين اباة بواسل يرى نفسه فيهم اشد اباء ، واكثر شجاعة واقداما عند الكر . وهو اليف هموم ، وهو مهزوم عريان .. حاف لا يخشى حرا ولا بردا يتزمل بالصبر مع حزم فى قلب تغيره الارادة مثل قلب الذئب ..

ثم هو رجل لا يستبد به الخجل ، وليس همه ان يتدهن ويتكحل ويتلهى مع الحسان بالغزل .. فاذا اصابه الجوع طوى امعاءه عليه ، حتى يميته فتذهل نفسه عنه ولا تمتد يده الى احد حتى ولو ادى به الألم من الجوع ان يستف تراب الأرض .. فاذا مدت موائد بالطعام فان يده آخر ما تمتد اليه لسعة فضله على الغير .. وعنده ان الغنى ليس صعب المنال على من يضرب فى الأرض .. والثروة والفقر عنده امران عارضان يذهبان ويجيئان .

وهو سريع العدو ، يسابق القطا الى الماء على انها اسرع الطير وردا .. وهو يغزو اعداءه فى الليلة شديدة البرد ، فلا تثنيه عقبة ، فيقاتل ويقتل ويترك وراءه الأرامل والايتام ويعود من غزوته والليل لا تزال فحمته فى لمة الفجر ..

****

والمستشرق جورج يعقوب واحد من المستشرقين الذين عنوا عناية كبيرة بدراسة لامية العرب والشنفرى ، وهو يسمى هذه اللامية : (نشيد الصحراء) ويذهب الى ان مواطنها ، تلك المرابع من جنوب مكة .. بين الجبال التى تقع فى شمال اليمن ، حيث مضارب الأزد عشيرة الشاعر .. فهى نتاج ابن الجبال ، الذى يقطع المفاوز ويمشى فى القفار .. ويتخذ من الوحوش الضوارى عشيرة يحط رحاله عندها، بل من قومه الذين لا يحذرون الأخطار ولا يتوقعون الشرور .. والمستشرق جورج يعقوب - فيما نقله عنه الدكتور محمد بديع شريف - يرى ان هذه القصيدة اصدق قطعة شعرية فى أغانى الصحراء ..

****

من هذه اللامية العربية .. أو من لامية العرب للشنفرى :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل

لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ ... سرى راغبا او راهبا وهو يعقل

وعن الأهل الذين يختارهم ، وهم الوحوش الضوارى يقول :

هم الرهط ، لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجانى بما جر يخذل

ويقول

وان مدت الأيدى الى الـزاد لم أكن		بأعجلهـم إذ أجشـع القـوم أعجل

ويقول

أديم مطـال الجـوع حتـى اميته		واضرب عنه الـذكر صفحـا فاذهل

واسـتف ترب الأرض كيلا يرى له		على من الطـول ، أمرؤ متطول

ويصف ليلة من ليالى غزواته فيقول :

وليلـة نحس يصـطلى القـوس ربها		وأقطعـه اللاتـى بهـا يتنبل

دعسـت على بغش وغـطش وصحبتى		سعـار وارزيز ووجـر وافكل

فايمـت بسوانـا ، وايتمـت إلدة		وعـدت كما ابـدأت ، والليل اليل

****

ولا شك ان مما يحجب لامية العرب عن مدارك الناشئين والشداة مفردات اللغة فيها . وهى فى هذا لا تختلف عن الشعر الجاهلى كله ، الذى اصبح يندر ان تجد من يحفظ شيئا من نصوصه بين ابنائنا من الجيل الصاعد .. ولذلك ، فان مما يتطلبه التعلق بالتراث ، وعلى الأخص منه ، هذا النوع الذى يذكى مشاعر العزة والاعتزاز ، وينعش حوافز الطموح ، ان تعنى دوائر التعليم فى العالم العربى عامة وفى المملكة خاصة ، بدراسة هذه النصوص ، وشرح مفردات اللغة التى تحجبها عن مدارك الناشئة ولعل ، اهتمام الغرب ، بقصيدة (كلامية العرب) الى حد نقلها الى اكثر من سبع لغات حية ، يلفتنا الى ما فيها وفى امثالها من مكامن القوة والجمال ، فنوليها بعض ما تستحق من عناية بالدراسة ، والشرح ، والتناول القوى ، حتى فى الطباعة والنشر ..

الحطيئة

الشك فى نسبه كان أهم عامل فيما عاناه من حياة مضطربة قلقة تغلب عليها القسوة والشظف ، وما يقرب من التشرد فى الترحال التماسا للرزق بشاعريته الفذة التى كرسها للهجاء فتسنم بها الذروة من الشعراء الهجائين فى الأدب العربى ، بحيث لا يذكر الهجاء ، أو يذكر شعراؤه فى أى عصر من العصور ، حتى يقفز اسمه الى الطليعة ، وحتى تكون اهاجيه نموذجا للاقذاع .. وحتى تكون الأبيات من هذا الشعر على الألسنة امثلة للموجع الجارح من القول ، بقيت وما تزال باقية حتى اليوم . فكأن هذه الحياة المضطربة وهذا النسب الوضيع أو المشكوك فيه ، كانا سبيله الى هذه المكانة السامقه التى نهضت باسمه فكان علما من الأعلام الذين يحتفل بهم تاريخ الأدب العربى ، فلا يتجاوزه بأية حال .

****

والحطيئة ليس اسمه وانما هو لقبه الذى غلب عليه ، ومعناه (القصير) لأنه كان من قصر القامه بحيث لم يكن يرتفع عن الأرض الا قليلا . اما اسمه .. فـ (جرول) . والإجماع منعقد على انه ابن (اوس بن مالك العبسى) ولكن أمه الضراء شككته فى الانتساب الى اوس هذا ، اذ قالت له فيما قالت : (انت .. لست لواحد ، ولا لاثنين ..) لأنها كانت مستهترة يبلغ من استهتارها ان تقول لابنها ما قالته. ولا عجب اذ كانت جارية لبنت رباح بن عمرو ، ولم يكن مما يستغرب فى الجاهلية ان

تستهتر الجارية فلا تجد فى البغاء ما يشين او يهين .

****

ولم يستطع جرول (أو الحطيئة) ان ينسى هذه الطعنة الجارحة فى نسبه ، فقد نشأ وهو يشعر فى اعماقه أنه (زنيم) ، فليس له أن يفخر كما يفخر غيره من الناس ، وليس له ان يعتز بنسبه كما يعتز الناس ، وانما نصيبه الموكوس ان يغض طرفه وان يعيش الضعة والهوان ، فلا عجب ان ينقم على أمه خاصة ثم على الناس جميعا ، ولا عجب ان نراه ينتقل من قبيلة الى قبيلة ، فى محاولة يائسه مريرة للاستقرار على نسب ينقذه من هذا الضياع الذى لم يكن له فيه ذنب بالطبع .

****

قالوا : إن اوسا (أبا الحطيئة) تزوج بعد الضراء امرأة حرة هى سيدة الضراء .. ومن هذه الحرة ، انجب ولدين ثم مات ، ثم حدث ان تزوجت (الضراء) رجلا من عبس هو (الكلب بن كنيس) فولدت له ولدين .. فكان للحطيئة اخوان من ابيه (اوس) واخوان من أمه (الضراء) فلما ترعرع الحطيئة ذهب الى اخويه من اوس يطالبهما بميراثه من ابيه ، فلم يعترفا له بحق فى الميراث ، وانما قالا له : (اقم معنا فنحن نواسيك).فعز عليه هذا الرد ففارقهما بعد ان هجاهما ، وقصد اليمامه حيث يعيش أهل امرأة أبيه من بنى (ذهل)،وقد اوهمته امه الضراء ، أنه ابن الأفقم اخى زوجة ابيه اوس ، وطالب بميراثه المزعوم من الأفقم ، والتمس الى المطالبه مدحهم بقصيدة يقول فيها :

قومى بنو عمرو بن عو ف ، ان اراد العلم عالم

وبقصيدة أخرى يقول فيها :

ان اليمامه خير ساكنها اهل القرية من بنى ذهل

واشفق عليه أبناء الأفقم،واعطوه نخلات عرفت فيما بعد بـ (نخلات ام مليكة) وهى امرأة الحطيئة .. ولكنه لم يقنع بهذه التسوية ، وانما ظل يطالب بميراثه كاملا ، ولج والح فى الطلب ، حتى احرجهم ، فلم يجدوا بدا من ان يمنعوه طلبه ، وان يضربوه

ايضا ، وسلاحه الشعر فيما يقع عليه وفيما ينشأ له من خصوم واعداء .. فهجا بنى ذهل هؤلاء فى قصيدة منها :

ان اليمامــة شر ساكنها أهــل القــرية من بنـــى ذهل

وانتهى به الأمر الى العودة الى بنى عبس ، واستقر على الانتساب الى أوس ابن مالك وبذلك عرف ، فهو اليوم (جرول بن اوس بن مالك العبسى) .

****

هذا التشكيك او الشك فى نسبه ، يفسر اسرافه فى الهجاء ، وعلى الأخص هجاء أمه وابيه بل ونفسه أيضا .. كما يعلل لهذا السخط الذى طبع اكثر ما عرف له من الشعر الذى نال به من اعراض الناس حقا وباطلا ، وهو سخط ونقمه جعلاه لا يبالى ما يقترف من شر وسفه ، وما يسرف فيه من السؤال الملحف ، والجشع الكريه ، مما طبع شخصيته بخسة النفس ولؤم الطوية ، مع البخل وضعف الاهتمام بشرف العواطف ، وترفع النفس عن الدنايا ، والعرفان بالجميل .. ولا عجب ، أن تتجمع فيه كل هذه النقائص ، وهو الذى وجد نفسه مشردا يتدافع بين القبائل فى بيئة ، النسب فيها اصل من اصول الكرامة والعزة والإباء ، وهو فيها المحروم من هذا الأصل الأصيل .

****

قال عنه ابن قتيبة الدينورى صاحب (عيون الأخبار) : (كان الحطيئة رقيق الدين .. لئيم الطبع) .. وقال ابو الفرج فى اغانيه (كان من اولاد الزنا الذين شرفوا) .. وهو يعنى ما تحقق له من الشهرة وذيوع الصيت ، ورهبة الناس منه ، بما نبغ فيه من هذا الشعر الذى ظل قويا رائعا ، وان كان موضوعه الهجاء .

****

والهجاء كما نعلم فن من فنون الشعر العربى بل هو فن من فنون الشعر فى كل لغة من اللغات الحية ، تظهر فيه كما تظهر فى غيره من اغراض الشعر بلاغة الشاعر ، وقدرته على التصرف فى اداء المعانى ، واختيار الألفاظ ، والوقوع على اصول البلاغة والبيان وفق هذه الأصول فيما يرسل من التعبير عن غرضه مع تلمس لبق لمكامن الجمال

فيا يعالج من الوصف مادحا او هاجيا او ماشاء من اغراض .

ومن هنا كان للحطيئة حظه من تقدير النقاد واجماعهم على انه من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم . وانه اذ اشتهر بالهجاء . لم يكن اقل فحولة وتقدما وفصاحة فى المديح والفخر والنسيب والوصف وانه (متين الشعر .. شرود القافيه . لا مطعن فى شعره .) بل وجد من قال : (انه أشعر الشعراء بعد زهير بن ابى سلمى .. وذهب بعضهم الى المجاهرة بأنه (اشعر الناس) .

****

وكالمألوف من تعذر تحديد تاريخ مولد الكثيرين من الاعلام فى الشعر وفى غير الشعر فان الأخبار عن تاريخ مولد الحطيئة تتضارب الى حد يصعب معه شئ من التحديد اوحتى التقريب . ولكن لا شك فى أنه عاش دهرا قبل الاسلام . اذ نجد فى اخباره انه اشترك فى حرب داحس والغبراء . وانه كان بفد على حاتم الطائى . وانه اشترك فى غزوة كان فيها عنتره العبسى . وهذا الى ما تناقله الرواة من شعره مادحا او هاجيا . لشخصيات لها مكانتها قبل الاسلام .

ومع ان المشهور أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانشده . فان ابن قتيبه يتردد فى قبول ذلك . ويرى أنه لم يسلم الا بعد وفاة النبى عليه افضل الصلاة والسلام .. وايا كان الصواب . فان الثابت ان الحطيئة قد اسلم . ولكنه ارتد مع من ارتد فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه . وقال عن هذه الخلافة شعرا قصد به اهاجة قومه من المرتدين . مما يثبت انه كان رقيق الاسلام . على انه لم يلبث أن وقع أسيرا فى حروب الردة فاقلع عن كفره . وعاد يظهر الاسلام . والأرجح أنه بعد هذه الردة قد حسن اسلامه اذ يروى انه كان فى صفوف المسلمين فى القادسية سنة ١٤ هـ . فى اوائل أيام خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ونسمع انه قال شعرا يحث فيه المسلمين على الاستبسال ضد الفرس .

****

وكما يتعذر أن نعرف متى ولد . فيتعذر ان نعرف متى تزوج . ولكن أخباره تقول إنه

تزوج امرأة أو اثنتين احداهما (أم مليكة) ، وانه رزق عددا من البنات وابنين هما (سوادة .. واياس) . ومما يستوقف النظر فى سيرته وهو الهجاء المقذع ، والذى تجمعت فيه أوصاف الشر والسفه والبخل والجشع ، وقلة الخير ، انه كان برا بأهله رقيق القلب معهم ، كثير العطف عليهم ، حتى لنجده يزمع الرحيل وقد قدمت له راحلته ليركب ، فيسمع ام مليكة تقول له :

اذكر تحننـــا اليك وشوقنا وارحـــم بناتــك انهـــن صغار

فيقف ، ليقول : (حطوا .. لا رحلت لسفر ابدا)

وليس فى أخباره ما يسعفنا لنعلم بواعثه على التمسك بعادته التى جرى عليها قبل الاسلام ، وهى التنقل بين الأجواد ، يطرق أبوابهم ، بأماديحه فاذا لم يفز منهم بما كان يرجو ، يبادرهم باهاجيه ، ولكن ليس من شك فى انه كان دائم الحاجة الى المال ينفق منه على أهله وعياله ، وان هذه الحاجة ظلت تلاحقه منذ وجد نفسه محروما من ارث من انتسب اليهم ، الى أن تزوج واعول . واذا لم يكن له من سبيل الى سد هذه الحاجة الا الشعر يمدح به من يجود عليه ، ويهجو به من يبخل بعطائه ، فقد اتخذه وسيلة الى التكسب ، بحيث أصبحت المسألة فى النهاية احترافا ... لم يكن فيه بدعا ، اذ ما اكثر ما حفل به تاريخ الأدب العربى ، بعد الاسلام ، فى العصرين الأموى والعباسى من الشعراء الذين كان الشعر مدحا او هجاء ، سبيلهم الى التكسب والارتزاق ، على اختلاف فى الحظ والمكانة عند الممدوحين ، وعلى اختلاف فى نصيب هؤلاء الممدوحين من الجاه والسلطان والثراء .

****

والى جانب ما عرف من رقة قلبه وشدة عطفه على أهله وولده ، فاننا نجد له ما يمكن ان يدخل فى معنى المشاعر الوجدانية الصادقة ، التى يقدمها فى أسلوب قصصى ، اذا لم يتفرد به من حيث الرواية ، فقد تفرد فيه من حيث الموضوع الوجدانى الذى عالجه وهو ما يكاد يكون نادرا فى الأدب العربى القديم .

قال يروى موقف رجل فى الفلاة ، ازاء ضيف طرأ عليه فى ساعة من ليل :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخى جفوة ، فيه من الأنس وحشة يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
تفرد فى شعب ، عجوزا ازاءها ثلاثة اشباح تخالهم بهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبزملة ولا عرفوا للبر ، مذ خلقوا طعما

****

رأى شبحا وسط الظلام فراعه فلما بدا ضيفا تشمر واهتما
فقال ابنه ، لما رآه بحيرة ايا أبت اذبحنى ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم ، علَّ الذى طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروى قليلا ، ثم احجم برهة وان هو لم يذبح فتاه فقد هما
وقال :
هيا ربـاه . ضيف ولا قرى بحقك ، لا تحرمه تا الليلة اللحما
فبيناهم ، عنت ، على البعد ، عانة قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

بينما كان الرجل وابنه فى هذه الحيرة ، وهذا الموقف المتأزم الذى بلغ حد التفكير فى ذبح الفتى وقد عرض نفسه لذلك وبعد أن تضرع الى الله ألا يحرم الضيف اللحم ، ظهرت على البعد عانة وهى قطيع من حمر الوحش : ثم يقول :

ظماء ، تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها الى دمها أظمأ
فأمهلها ، حتى تروت عطاشها فارسل فيها من كنانته سهما

وكم هو رائع ، وانسانى المشاعر ، حين يمهل العانة حتى تروى ظمأها .. فلا يرسل سهمه الا بعد ان ترتوى .. ثم نجده يقول :

فخرت نحوص ذات جحش ، فتية قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما
فيا بشره اذ جرها نحو أهله ويا بشرهم لما رأوا ، كلمها يدمى
فباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم فلم يغرموا غرما وقد غنموا غنما

ويصل الى القمة من التعبير عن وقع الفرحة فى نفس الرجل وأهله حين يختم القصيدة ، او هى القصة الرائعة بهذا الختام :

فباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم فلم يغرموا غرما ، وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته ابا لضيفهم ، والأم من بشرها أما

ومن أبرز الأحداث فى حياة الحطيئة موقفه مع الزبرقان الذى تقول الأخبار إنه كان من الولاة منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كان قادما الى المدينة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليؤدى الصدقات ، حين لقى الحطيئة فى احدى قرى اليمامة ، فعرفه الحطيئة ، وقد اصطحب معه امرأته وبناته وابناءه ..

قال له الزبرقان : (اين تريد ؟؟؟؟) فأجاب الحطيئة : (أريد العراق ، فقد حطمتنا هذه السنه) وكانت سنة مجدبة .

قال الزبرقان يسأله : (وتصنع ماذا ؟)

قال الحطيئة : (أصادف رجلا يكفينى مؤونة عيالى واصفيه مدحى أبدا .)

قال الزبرقان : (قد اصبته .. فهل لك فيه يوسعك لبنا وتمرا ، ويجاورك أحسن جوار واكرمه ؟؟) .

فتهلل الحطيئة فرحا وقال : (هذا .. وابيك العيش وما كنت ارجو هذا كله .) وعرفه الزبرقان بنفسه ، ودله على مكانه وسيره الى زوجته فرحل الحطيئة واكرمته المرأة واحسنت اليه .

وكان من قوم الزبرقان ، قوم بنى أنف الناقه ولكنهم كانوا ينافسونه الشرف وقد استعلى عليهم بشخصيته ومكانته .. على انهم كانوا يعيرون بهذا الاسم : (انف الناقة) الذى ركبهم ، لأن احد اجدادهم ، نحر ناقة ، وقسمها بين نسائه ولم يبق منها الا الرأس والعنق ، فجاء ابنه يطلب قسمة أمه ، فدفع اليه هذا الذى بقى من الناقه ، فأدخل ابنه يده فى أنف الناقة وجر الرأس والعنق ومضى به .. فسخر الناس به ، وذهبوا يسمونه (انف الناقه) ولحق اسمه بأبنائه واحفاده فكانوا (بنى انف الناقه) .

رأى بنو انف الناقة الحطيئة وعرفوا خطره حين يجاور الزبرقان ، وعرفوا ما يمكن ان يكون للشاعر الضخم من اثر لو انهم ميلوه اليهم ، فسعوا اليه ، وزعموا ان امرأة الزبرقان قصرت به فيما خصته من الرفد والرعاية .. فلما عجزوا ان يستميلوه دسوا الى

زوجة الزبرقان من قال لها ان زوجها يهم بأن يتزوج (مليكة) ابنة الحطيئة وكانت جميلة .. وبهذا السعي ، وبغيره ، من قصة تطول استطاعوا ان يستميلوا الحطيئة ، وان يفرقوا بينه وبين الزبرقان .. فضربوا له قبة وربطوا له بكل طنب (أى مغرز وتد من أوتادها) قفة تمر من هجر واكثروا له من اللبن ، واعطوه عددا من النوق والكسى .

ورجع الزبرقان من رحلته فأهاب (بجاره) .. فخيروا الحطيئة ، فاذا به يختار بنى انف الناقه .. وشرع يمدحهم بقصائد منها تلك التى قال فيها :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

ثم ، تجاوز هذا المديح الذى جعل القوم يفخرون بأنف الناقه الذى كانوا يعيرون به الى هجاء الزبرقان بقصائد منها تلك القصيدة التى قال فيها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسى

وتقدم الزبرقان ، الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، شاكيا مما وجد فى هذا البيت من هجو جارح ، ولا شك ان عمر ، لم يكن يجهل ما فيه من الجرح ولكنه احب أن يحكم على بينة ، فاستقدم حسان بن ثابت ، الذى ما سمع البيت حتى قال : (لقد هجاه واقبح به) .. فأمر عمر بحبس الحطيئة ، فيما شبهه الشاعر بحفرة او بئر . ويبدو ان حبسه قد طال امدا ، فاخذ يستعطف ويسترحم ويشرح ما يعطف الخليفة عليه بقصائد من شعره ، نرى فى احداها مرة أخرى ، حد به على أهله ونظرته الى صغاره ، واشفاقه عليهم ، اذ يقول فى اشهر هذه القصائد :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ؟ زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر

وهو يبلغ من الرقة حدا رائعا ، حين يشبه أطفاله بافراخ الطير ، ويؤكد هذا التشبيه ، حين يقول أنهم (زغب الحواصل) ، وفى التشبيه على اطلاقه احساس بضعف هؤلاء الصغار ، هو دون شك احساس شاعر رقيق الوجدان .

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
القيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ، يا عمر
انت الأمين الذى من بعد صاحبه القى اليك مقاليد النهى البشر

وهو يلتفت التفاتة ذكية بارعة ، حين يلاحق هذا البيت بقوله :

لم يؤثـروك بهـا . اذ قدمـوك لها لكن لأنفسهـم كانـت بك الأثر

ثم يقول :

فامنـن على صبية بالرمل مسكنهم بـين الأباطـح تغشاهـم بهـا القرر

فاطلقه عمر رضى الله عنه بعد ان نهاه عن الذم ، او كما قالوا ، اشترى منه اعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

اما اهاجيه الكثيرة ، فأغر بها هجاؤه لنفسه :

قال :

ابـت شفتـاى اليوم الا تكلما بسـوء ، فما ادرى لمن انـا قائله

ارى لي وجهـا شوه اللـه خلقه فقبـح من وجـه ، وقبـح حامله

ومن قصيدة يهجو بها أمه ، وقد سبق أن ذكرنا انها سبب بلائه اذ قالت له : (أنت .. لست لواحد ولا لاثنين) يقول :

اغربـالا اذا استودعـت سرا وكانـو نا على المتحدثينا

حياتـك ما علمـت حياة سوء وموتـك قد يسر الصالحينا

وهو لا يتورع ان يهجو ضيوفه ، وقد كانوا يتحامونه .. اذ هجا احدهم فقال :

وسلـم مرتـين ، فقلـت مهلا كفتـك المرة الأولى سلاما

ونقنـق بطنـه ودعـا رؤوسا لما قد نال من شبـع وناما

واطرف ما فى قصة حياة الحطيئة ، تلك الوصية التى اوصاها حين حضرته الوفاة فقد قيل له (اوص يا ابا مليكة) . فقال : (ويل للشعر من رواة السوء ..) فأعادوا عليه : (اوص رحمك الله) . فقال : ابلغوا هل ضابى (وهو شاعر من بنى تميم) انه شاعر حيث قال : (لكل جديد لذة غير اننى رأيت جديد الموت غير لذيذ) .

قالوا له : (فاوص للفقراء بشئ ..) قال : (اوصيهم بالالحاح فى المسألة) أى أن يظلوا يتسولون .. فلما سئل : (وما تقول فى مالك ؟)

فاذا به يقول ؛ (للأنثى من ولدى مثل حظ الذكرين) .. فلما قال احدهم : (ولكن

ليس هكذا قضى الله ..) قال غفر الله له : (لكنى هكذا قضيت ..) وسألوه ماذا يوصى لليتامى ؟ فاذا به يقترف انفلاتا آخر اذ يقول : (كلوا أموالهم) واذ يئسوا من ان يوصى بشئ سألوه : (فهل شئ غير هذا ؟؟) فاذا به يفاجئهم بأغرب ما يوصى به انسان على فراش الموت اذ قال : (نعم .. تحملونى على اتان .. وتتركونى راكبها حتى أموت) وعقب مفسرا : (فان الكريم لا يموت على فراشه) .. وزاد فقال : (والأتان لم يمت عليه كريم قط) .

ويقول الخبر انهم حملوه على اتان كما اوصى وجعلوا يذهبون ويجيئون به حتى مات وهو يقول :

لا أحــد الأم من حطيئة هجــا بنيه وهجــا المرية
من لؤمه مات على فريه



أبو الطيب المتنبي

كان من نفسه الكبير في جيش وفي كبرياء ذي سلطان .

قال هذا أبو القاسم المظفر في رثاء أبي الطيب المتنبي . وكان من معاصريه . وقال هو عن نفسه :

وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مغردا

وقال ـ وهو يعاتب سيف الدولة :

أنا الذى نظر الأعمى الى ادبى واسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وقد بلغ به الاعتزاز بشخصيته ان يقول :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والضرب والطعن والقرطاس والقلم

وهناك رواية لهذا البيت تقول :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والأرجح عندنا . هو البيت الأول .. لأن الضرب والطعن اجدر بأن يختارهما المتنبى على السيف والرمح ـ اذ هاتان اداتان من ادوات الحرب . يمكن ان يستعملهما المحارب وان يستعمل غيرهما .. بينما الضرب والطعن من اسماء معان تشمل السيف والرمح . وغيرهما من ادوات الحرب واسلحتها ..

ويقول صاحب يتيمة الدهر :

هو وان كان كوفى المولد .. شامى النشأة .. وبها تخرج ومنها خرج ..

وابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (الثعالبى) معروف بتحزبه لأهل الشام ، وحرصه على ان يميزهم بالفضل والسبق . فانه ـ وقد طارت للمتنبى هذه الشهرة تملأ آفاق الدولة العربية ، من فارس الى الأندلس ، يبخل بهذه العبقرية ان تنتسب لغير الشام ، وان كان صاحبها قد ولد بالكوفه .

****

ويمضى الثعالبى بعد ان ينتزعه من الكوفة ويذكرنا بأنه شاعر سيف الدولة فيقول فى تقريظه للمتنبى :

نادرة الفلك .. وواسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر .. سار ذكره مسير الشمس والقمر .. وكادت الليالى تنشده والأيام تحفظه ..

ثم يقول :

فليس اليوم ـ وكان كلامه فى المئة الرابعة للهجرة ـ فليس اليوم مجالس الدرس اعمر بشعر ابى الطيب من مجالس الأنس .. ولا اقلام كتاب الرسائل ، احرى من السن الخطباء فى المحافل .. ولا لحون المغنين والقوالين اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين .. وقد ألفت الكتب فى تفسيره .. وحل مشكلة وعويصه .. وكسرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه وتكلم الأفاضل فى الوساطة بينه وبين خصومه والأفصاح عن انكار كلامه وعونه .

والعون .. جمع عوان .. وهى النصف او متوسطة العمر من النساء .. وتفرقوا فرقا فى مدحه والقدح فيه ، والنضح عنه (اى الدفاع عنه) والتعصب له وعليه ..

ويخلص الثعالبى بهذه المقدمة الى ان ذلك : (اول دليل على وفور فضله وتقدم قدمه .. وتفرده على اهل زمانه .. يملك رقاب القوافى .. ورق المعانى .. ثم يعقب قائلا :

فالكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته

****

ويكرس الثعالبى . للمتنبى من كتابه (يتيمة الدهر) . اكثر مما كرس لأى شاعر من عشرات الشعراء الذين تحدث عنهم ناقدا . او ذكرهم راويا . او اشاد بأخبارهم مادحا ومقرظا وفيهم سيف الدولة الحمدانى الذى يقول عنه أنه المشهور بسيادة آل حمدان وواسطة قلادتهم .. وكان غرة الزمان وعماد الاسلام ومن به سداد الثغور . وسداد الأمور .. وحضرته ـ يعنى مقر وجوده ـ قبلة الآمال .. ومحط الرحال . وموسم الأدباء .. وحلبة الشعراء .

****

ومع ان حاسدى المتنبى . على ما تحقق له من شهرة وذيوع صيت كانوا يعيرونه بأن أباه كان سقاء . فى الكوفه . فاننا نرى الثعالبى . لا يذكر ذلك . حين يتكلم عن ابداء امر المتنبى .. ولكنه يحرص على ان يشير الى ان اباه قد إنتقل به الى الشام . ليؤكد فضل الشام عليه .. او لينتزع شرفه من أهل الكوفه ليضفيه على أهل الشام . ويقول عن ابى المتنبى : لم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها .. ويسلمه فى المكاتب . ويردده فى القبائل . حتى توفى وقد ترعرع ابو الطيب . وشعر وبرع وبلغ من كبر نفسه . وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوما .. وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره الى والى البلدة . ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده ..

ومرة أخرى نرى الثعالبى يتجنب ذكر ما اجمع عليه تقريبا من كتبوا عن المتنبى أو خاضوا فى سيرته وذكر أخباره وهو ادعاؤه النبوة . وكان هذا الادعاء سبب وصفه بالمتنبى ويوهم القارىء بأنه انما حبس لدعوته قوما الى بيعته .. والدعوة بهذا المعنى طلب للحكم والسلطان . وليس فيها ما يلمح الى ادعاء النبوة الذى يعود فيذكره الثعالبى بعبارة تشكك فى صحة الخبر . اذ يقول : (ويحكى انه تنبأ فى صباه . وفتن شرذمة بقوة ادبه وحسن كلامه .. ثم يعقب على هذه (الحكاية) بما تشعر معه انه يلتمس للمتنبى عذرا او سبيلا الى العذر حين يروى عن ابن جنى انه قال : (سمعت ابا الطيب يقول : انما لقبت بالمتنبى لقولى :

انــا ترب النـــدى ورب القوافى وسهام العـــدا وغيظ الحسود
أنـــا فى أمـــة تداركهـــا اللـ ــــه غريب كصالــــح فى ثمود

وبغض النظر عن الحافز الذى حمل الثعالبى على تخطى هذا الخبر وايراده مورد الحكاية التى لك ان تشك فيها او ان تصدقها .. فان ما رواه مسندا الى ابن جنى حتى على فرض صدقه فى الاسناد انما ان نشك فيه اذ فى القصيدة التى جاء فيها هذا البيت ، ما يثبت ان المتنبى انشدها وهو قد تخطى مدارج الصبـا ، بل والشبـاب ، ودلف الى الشيخوخة او على الأقل الى السن التى يسطع فيها الشيب فى شعر الرأس .

والقصيدة ، مع اصرار الرواة على انه قالها فى صباه ، من روائع المتنبى وكل شعره روائع : فهى القصيدة التى مطلعها :

كم قتيل كما قتلــت شهيد ببياض الــطلى وورد الخدود
وعيون المهـــا .. ولا كعيون فتــكت بالمتيم المعمود

ويتعذر أن نجد هذه القوة فى المطلع . فى شعر يقول الرواة انه مما قاله فى صباه .. واغلب الظن انهم مالوا الى هذا الرأى لأن المتنبى يقول فى البيت الثالث من هذه القصيدة :

در در الصبا ، أيام تجرير ذيولى بدار أثلة عودى

ومنها قوله :

عمرك الله .. هل رأيت بدورا طلعت فى براقع وعقود
راميات بأسهم ريشها الهــد ..ب تشق القلوب قبل الجلود

ومنها :

ذات فرع كأنما ضرب العنبر فيه بماء ورد وعود

وأخيرا مما يؤكد أن المتنبى قال هذه القصيدة فى السن التى كان الشيب قد سطع فى رأسه قوله :

شيب رأسى وذلتـــى ونحولى ودموعـــى على هواكَ شهودى

ورغم ما عرف به المرحوم عباس محمود العقاد من الدقة والتحسب فى الأخذ عن الرواة . فاننا نجده فيما كتب عن المتنبى . يرجع ما اسنده الثعالبى وغيره الى ابن جنى فيقول :

ان العلامة ابن جنى ربما كان قد ذكر الصواب حين قال : انه لقب بالمتنبى بقوله :

أنا فى أمة تداركها الله   غريب كصالح فى ثمود

مع ان فى القصيدة ذلك البيت الذى اشرنا اليه . والذى ينفى ان يكون المتنبى قد قال ما قال فى صباه . وانه السبب فى اللقب الذى ظل يلازمه . وما يزال حتى اليوم .

****

والمشهور من نسبة المتنبى . انه احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفى الكندى .. ونسبة الكندى هنا . ليست لقبيلة كندة . كما قد يتبادر الى الذهن وانما الى محله أو ناحية فى الكوفة كانت تسمى (كندة) .

ويبدو أن الكثيرين من خصومه وحاسديه اذ كانوا يعيرونه بأن أباه كان سقاء يحمل الماء الى البيوت فى الكوفة ـ وهو ما حرص الثعالبى على عدم الخوض فيه ـ كانوا يغضون من نسبه . ويستصغرون شأنه بضعف نسبه .. وليس من شك . فى ان ذلك كان يؤذى المتنبى . ولكنه يشمخ على الأذى . ويسمو على الهجو . حين يقول :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرت لا بجدودى

ولكنه يستدرك . أن يأخذوا عليه استهانته بجدوده دليلا على ضعة نسبة فيقول فى البيت الذى يليه :

وبهم فخر كل من نطق الضاد   وعوذ الجانى وغوث الطريد

****

وكثير من الدارسين المعاصرين . وفى مقدمتهم المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد . يرى ان المتنبى قد سبق الفيلسوف الألمانى نيتشه . فى فلسفة القوة التى عرف بها هذا الأخير . ولا شك ان فى شعر المتنبى . ما ينبض بهذه الفلسفة او يتلامح بعناصرها الأساسية . ولكن ليس المتنبى فريدا او سابقا غيره من الشعراء فى هذا

النبض او التلامح بفلسفة القوة او بتعشقها وتمجيدها .. فاننا لا نستطيع ان ننسى معلقة عمرو بن كلثوم ، من العصر الجاهلى ، التى يكاد كل بيت فيها ينبض بالقوة وفلسفتها ، اذا كانت فلسفة القوة هى الفخر والاعتزاز بالبطولة فى ساحات الوغى ..

وحسبنا ان نقرأ قول عمرو بن كلثوم :

ونحن الحاكمون اذا اطعنا ونحن العازمون اذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا
وكنا الأيمنين اذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ومنها

وانا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ومنها

لنا الدنيا ومن امسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا ما الملك سام الناس خسفا ابينا ان نقر الخسف فينا
نسمى ظالمين . وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا
اذا بلغ الفطام لناصبى تخر له الجبابر ساجدينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا
الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

حسبنا ان نقرأ هذا الشعر للشاعر الجاهلى . لنطمئن الى ان شعر القوة وفلسفتها والتفاخر بها والدعوة اليها . عناصر السجايا العربية الأصيلة تظهر عند المتنبى بطبيعة السجية العربية فيه كما ظلت تظهر عند كل شاعر تتوفر فى دمائه هذه السجايا فى الماضى السحيق . وفى المستقبل الممتد على السواء .

****

وقصة مقتل المتنبى . شاهد من اقوى الشواهد على تعلقه بالبطولة . وطبيعة الفارس

فيه .. اذ يروى ـ اذا صحت الرواية ـ انه كاد يتقبل الهزيمة امام الذين هاجموه من الاعراب ، وان يفر على صهوة جواده . ولم يكن ذلك متعذرا عليه وله ما يبرر الفرار بالكثرة التى احاطت به ، ولكن عبدا له ، ذكره بأنه القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والضرب والطعن والقرطاس والقلم

فكر على اعدائه ، وكروا عليه ، فقتلوه ومعه ابنه (محسد) ونفر من غلمانه ..

****

والمتنبى سيد شعراء العربية ، فيما يذهب مثلا من الشعر ومن ذلك انصاف الأبيات كقوله :

هيهات تكتم فى الظلام .. مشاعل

وكم هو رائع حين يفاضل بين مطلبين فيقول :

بجبهة العير .. يفدى حافر الفرس ..

وفى التماس العذر لمن يرضى بالقليل ، وهو القادر على الكثير ..

والجوع يرضى الأسود بالجيف ؟

ويريك فى نصف بيت ، دنيا من المعانى تمتد لها الظلال ، ويسبح فى افيائها الخيال حين يقول :

وفى عنق الحسناء يستحسن العقد

ويعطيك الفرق بين الأصالة ، والافتعال .. حين يقول :

ليس التكحل فى العينين كالكحل

وله البيت الكامل الذى تجد فى كل من شطريه ـ صدرا وعجزا ـ ما يذهب مثلا ، ويؤخذ قضية لا يسعك الا التسليم بمنطقها حين يقول :

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وحين يبلغ به الضيق ، حدا تأباه كرامته واعتزازه بنفسه يحلق ويتسنم ملاعب النسور ويقول :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من اختها بدل

ومن منا لا يذكر بيته الذى ما يزال يحلق فى آفاق النفس الأبية كلما اقتحم عليها اباءها من يرضى بالذل والهوان فى سبيل غرض عارض ، او غرض زائل :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وتتكشف له الحياة عن تناقضاتها حين يرتفع فيها شأن فلان من الناس وهو الغارق فى ظلمات الجهل . وينخفض شأن الفاضل منهم . وهو العالم الجهيد او الأديب الأريب .

فيقول :

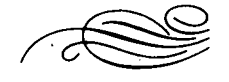
أفاضل الناس أغراض لذا الزمن .. يخلو من الهم اخلاهم من الفطن ..

ويعطيك أسلوبا ومنهجا ، فى رد الكيد ، والترفع عن الحوار مع من لا يستحق الا التجاهل والاهمال حين يقول :

واتعب من ناداك من لا تجيبه واغيظ من عاداك من لا تشاكل

ويفتح لك ثغرة ترى عبرها واقع اللئيم فى اعماق نفسه . والكريم فى صفاء طويته بقوله :

اذا انت اكرمت الكريم ملكته وان انت اكرمت اللئيم تمردا



أبو فراس الحمداني

وصناعتى ضرب السيوف واننى .. متعرض ، فى الشعر ، بالشعراء

****

صناعته ضرب السيوف .. ولم يقل ذلك شاعر يحسن الفخر .. بل قاله أمير فارس

قالوا عنه : زين الشباب ابو فراس .. لم يمتع بالشباب .

****

وأبو فراس شاب لم يمتع بشبابه حقا .. وأبو فراس أمير فارس لم يوفق فى امارته ، وإن كان بطلا شهدت له ساحات الوغى بالبطولة والشجاعة وجرأة القلب والصبر على الأهوال .

****

أبو فراس ، الحارث بن سعيد بن حمدان ، بن حمدون الحمدانى ولد فى العشرين بعد الثلاثمئة للهجرة .

فبيننا اليوم وبينه ألف وسبعون عاما .

ومع ذلك ، فكم من فرائد أبياته ، وغرر قصائده ما يزال على السنة الفحول من الشعراء .

كانت أسرته أسرة امراء .. كانوا فى ابهة عزهم ومجدهم .

كان جده حمدان فارسا تسامعت ببطولته الآفاق .. ورددت أخبار بأس شدته على

الأعداء مجالس الملوك والأمراء . وهذا الى جانب ما عرف به من الكرم ، والنجدة وبعد النظر فى السياسة والحكم .

****

قالوا : انه غرس هذه الصفات فى أولاده فشبوا على حب المجد وتسابقوا الى ساحات الوغى ، وما اكثر هذه الساحات فى أواخر أيام الخلافة العباسية !

كان الصراع بين القادة ومن آل اليهم أمر الخلافة من الفرس والترك ، وقد اوغلوا فى كيانها ، واعملوا معارك الهدم فى بنيانها فاعتصروا عنفوانها ، وتركوا سلطانها ممزقا بين عديد من الملوك والأمراء .. وكان من نصيب عبد الله ، والد سيف الدولة وعم ابى فراس ، ان يحكم الموصل فى العراق .. واورثها ابنه المعروف باسم (ناصر الدولة) وكان أخوه ناصر الدولة هذا وابناء عمه قد تفرقوا فى مقاطعات سورية الشمالية فتامروا عليها مع اقرارهم بسلطة الخليفة العباسى عليهم جميعها .. وقد كان جميع من تامروا فى تلك الفترة من تاريخ الدولة العباسية ، يعترف للخليفة بالسلطة ، وان كان لا يعرف لأحد عليه من سلطان ..

****

وقد كان من حظ سيف الدولة أن سبق اخوته وابناء عمه الى تقرير سلطانه على حمص ، ثم انتزع مدينة حلب من يد اميرها (أحمد بن سعيد الكلابى) ، فأنشأ حوله بلاط جمع الكثير من الأدباء والشعراء واللغويين ، ومنهم المتنبى . وحسبك ان يكون المتنبى فى عداد من حفل بهم بلاط سيف الدولة لتدرك ابهة هذه الامارة ، ومدى ما اجتمع لها - فى حدودها - من ظهور وتفرد بين الكثير من الامارات العربية التى كانت تقوم فى ذلك العصر .

وفى أيام سيف الدولة ترعرع ابو فراس .. وإذ كان من هذه الدوحة الباسقة وقد امتد لها الظل فى هذا العهد ، وسطع لها ما سطع من مظاهر المجد والعزة ، فان هذا الفارس الأمير والشاعر قد شب على الفخر بجده وابيه واعمامه وعلى الأخص منهم سيف الدولة ، امير البلاد .

****

وفى البداية كان سيف الدولة يعطف على نسيبه الصغير . ويخصه بالحب ويطوقه بالحنان والعطف ، فاتخذه فى مجلسه . ويقول الثعالبى انه كان يأنس بحديثه ويتوسم فيه سجايا الفارس ، وخلائق الأديب .

وما كاد أبو فراس يبلغ اشده حتى حقق آمال ابن عمه . فانخرط فى عسكره وتولى قيادة بعض جيوشه فى هجماته على الروم ، فيحارب قائد قوادهم فى آسيا الصغرى - أو ما هو معروف باسم (الأناضول) اليوم .. فاذا توقف القتال كان ابو فراس يعود الى مجلس سيف الدولة . ولم يكن احفل من هذه المجالس بالشعراء والأدباء والظرفاء .. ولم يكن ابو فراس متطفلا على مائدة الفكر والفن . بل كان من ابرز الملتفين حولها . حتى لقد بلغ من فحولته كشاعر ، ان عدد للمتنبى نفسه وهو من هو فى بلاط سيف الدولة . وعلى لهوات المفتونين بشعره ، سرقات فى قصيدته المشهوره التى مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ..

وهو ما لا يزال يذكره النقاد فيما يذكرونه او يتسقطونه على المتنبى ، وما يمتدحون به ابا فراس .

****

ولئن كان الأمراء والوزراء يصلون الشعراء على اماديحهم . صلات تتفاوت قدرا ، فان سيف الدولة قد اقطع ابا فراس ضيعة ، قالوا انها تغل الفى دينار فى منبج ، جائزة استحقها الشاعر الفارس ، اثر مساجلة شعرية فى مجلس ابن عمه الأمير .. ولم يطل به الأمر حتى صار واليا على منبج كلها .. وعلى قدر احساسه بعزة السلطان فى ولايته ، كان حرصه على أن يؤكد حسن الظن به . تما ظل يتقحم سن حروب مع الروم .. مهاجما او مدافعا . وفى دفاعه وهجومه ما يؤكد البطولة ويغريها بالتماس المزيد من المجد بالمزيد من النضال .

****

وطبيعة الحرب ان تحقق للفارس ما يطمح اليه من نصر وفخر . وان تواجهه بما لابد منه من هزيمة واندحار .. وفى الحالين يظل البطل فى اطاره بطلا يتربص الفرص ليأخذ من الميادين عطاءها السجال ..

ومن ذلك أنه أسر في معركة تعرف باسم (مغارة الكحل) . فحمله الروم الى (خرشنة) وهى بليدة على الفرات . كان للروم فيها معقل حصين يطل على النهر .. وكان الروم والعرب يتداولون الاستيلاء عليها فهى للروم اليوم وللعرب غدا .. وهذا ما يؤكده ابو فراس فى بيت من قصيدة يقول فيه :

ان زرت خرشنة اسيرا فقد حللت بها مغيرا

****

وفى قصة خلاصه من الأسر اختلف الرواة فى التفاصيل ولكنهم لم يختلفوا ان جعلوا فى خلاصه ما يشبه اسطورة يبدو أنهم رأوا انها ما يليق ببطولة الفارس الشاعر .. ومن هذه الأسطورة او الأساطير انه ركب فرسه وركضه برجله فاهوى به من اعلى الحصن الى الفرات .. وهى قصة لا تختلف فى ما يؤكد البطولة عن مثيلاتها من قصص حيكت حول خلاص غيره من الأسر .

وبغض النظر عن جانب الأسطورة فى القصة فان ابا فراس قد تخلص من الأسر فى هذه المرة . اما بعمل بطولى كالذى حيكت منه القصة الأسطورية واما بأن فداه ابن عمه سيف الدولة وقد كان الفداء مألوفا وعلى الأخص حين يكون الأسير فى مثل مكانة ابى فراس .

ولكن ما يلفت النظر هو ان مدة هذا الأسر قد طالت حتى بلغت سبع سنوات فاين كان فداء سيف الدولة له؟؟ثم ما لابد ان يكون قد اختلط على المؤرخين والرواة عن مدة الأسر هو ان ابا فراس قد اسر مرة أخرى . واخذ الى القسطنطينية حيث اقام اربع سنوات .. ومرة أخرى نجد سيف الدولة لا يحرك ساكنا لتخليص ابى فراس .. بل نجد الشاعر الفارس فى قصائده التى يسميها الثعالبى (الروميات) يعتب على سيف الدولة حينا ويستعطفه حينا . فلا يجد من ابن عمه صدى للعتب أو للاستعطاف .. ويزيد فى استنكار موقف سيف الدولة ان ابا فراس قد أسر بعد اصابته بسهم فى فخذه . وان أمه عجوز مسكينة ليس لها سواه . ظلت تترقب اخبار وحيدها فلا تظفر بطائل . ولا يكترث سيف الدولة لما تعانيه من القلق والحزن على ابنها الفارس

الأسير . وهو الفتى الذى افنى حياته فى خدمة الأمير . بل ويبلغ عدم اكتراث سيف الدولة بأسر ابى فراس ، حد عدم الرد على رسائله وقصائده . ويشعر ابو فراس بالمرارة والأسى . وبالعجز عن ان يصل الى شئ فيقول فى احدى قصائده (الروميات) ..

يا أمنا لا تحزنى وثقى بفضل الله فيه
كم حادث عنا جلا ه .. وكم كفانا من بلية
أوصيك بالصبر الجميل فانه خير الوصية

ومن هذه القصيدة بيت نرى فيه مبلغ ما اصبح يعانيه من اليأس اذ يقول :

لولا العجوز بمنبج ما (خاف) اسباب المنية

ومع ذلك فان سيف الدولة يبدو غير مكترث لابن عمه أو لأمه التى جاءت من منبج تستعطفه فلا تجد غير الاهمال . ويسمع ابو فراس فيكتب الى سيف الدولة يستأذنه فى ان يراسل أهل خراسان ليفادوه وينوبوا عنه . وفى ذلك تأنيب يثور عليه سيف الدولة فيكتب اليه (ومن يعرفك بخراسان ؟؟؟) فيجيب أبو فراس بقصيدة يقول فيها :

وان خراسان ان انكرت علاى فقد عرفتها حلب

ومع ذلك لا يجد بدا من المصانعه والاستعطاف وعلى الأخص حين سمع موقف الأمير من أمه فيقول :

يا حسرة ما اكاد احملها آخرها مزعج واولها
بأى عذر رددت والهة عليك دون الورى معولها
ارحامنا منك لم تقطعها ولم نزل دائما نوصلها

ولا يفوته ان يقارن بين ما ينعم به الأمير من الرفاهية والترف . وبين حاله فى الأسر فيقول :

يا ناعم الثوب كيف تبدله ثيابنا الصوف ما نبدلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا نحمل اقيادنا ونتقلها

وماتت أمه وهو فى الأسر دون ان يصنع سيف الدولة شيئا فيقول :

أيا أمـــاه كم بشرى بقربى | اتتــك ، ودونهـــا الأجــل القصير
الى من اشتــكى ولمن اناجى | اذا ضاقــت بمـــا فيهـــا الصدور

****

قالوا ، يلتمسون لسيف الدولة اعذارا فى عدم اكتراثه بابن عمه ، أنه كان يعانى من هجمات الروم ، حتى لقد اكتسحوا مملكة الحمدانيين فى الشمال ، وان حلب نفسها قد سقطت فى ايديهم .. وان سيف الدولة لم يتنفس الصعداء الا بعد زمن طويل فأسرع يفتدى اسراه ومنهم ابن عمه ابو فراس .. وخرج سيف الدولة من هذه الحروب ليموت بعد سنة من خلاص ابن عمه من الأسر .. فآل الملك الى ابنه (ابى المعالى) وكان فتى ترك لمولى من مواليه ان يبسط يده باسمه على المملكة وان يصرف أمورها واحوالها ومن ذلك ، انه ضاق بخاله ابى فراس الذى طمع فى ان يكون له نصيب فى الحكم والولاية فحاصره فى حمص بجيش ضيق عليه حتى قتله فى الثانى من جمادى الأولى عام ثلاثمئة وسبعة وخمسين .



أبو القاسم الفردوسي

الملحمة فن من فنون الأدب ، سبق اليه الاغريق ، بالياذة هوميروس ، ثم بالاوديسا ثم الرومان ، بملحمة (فيرجيل) التى امتازت عن الاوديسا أو الإلياذة بانها جاءت فى أعقاب مرحلة من الحضارة الاغريقية ، لترث ما تركته من أثر عميق فى الفكر ، وفى كثير من قضايا الفن والأدب ، ولتعكس هذا الأثر ، بما فى (أنييد) وهى ملحمة (فيرجيل) عن كبح لجماح الخيال الاسطورى ، أو الخرافى ، وجنوح الى المنطق فى طبيعة الأحداث .

ومع ذلك ، فان موضوع الملحمة عند فيرجيل لم يختلف عن موضوعها وهدفها عند هوميروس ، وهو تمجيد البطولة والأبطال ، ومن هذا المنطلق ، ترك هوميروس لخياله أن يضفى على شخصيات ملحمتيه (الالياذة والاوديسا) ما كان يتفق مع بدائية الفكر الذى لا يعرف قيودا أو حدودا ، فى تصور أعمال خارقة يقوم بها أبطال ، خرافيون لا سبيل الى تصور وجودهم التاريخى أو الحقيقى بأى شكل من الأشكال .

وجاء فيرجيل ، فلم يختلف عن هوميروس ، فى تمجيد البطولة والأبطال ، ولكن بحماس المواطن الرومانى ، الذى يضفى على التاريخ الرومانى ، وينسب اليه بطولات ، يمكن أن تبلغ حد الاسطورة ، ولكن بشئ من التحسب ، وفى إهاب من التعقل ومسايرة المنطق الى حد يتفق مع ما وصلت اليه الحضارة فى عهده .

والى القرن الثامن عشر ، ظلت أوروبا متأثرة ، أو تكاد لا ترى غير (انييد)

لفرجيل مصدرا للالهام ونموذجا للملحمة وتراثا تجد فيه ذخيرتها من فنـون البلاغـة والبيان . والأرجح أن السبب فى ذلك ، هو أن ظل الحضارة الرومانية لم ينحسر عن شعور القارة ، وأن كان قد انحسر سلطانها المباشر فى الحكم والسيادة . ولهذا يمكن القول أن (الفردوس المفقود) للشاعر الإنجليزى (ملتـن) رغـم ، اختلافهـا عن موضوع الملحمة عند هوميروس وفيرجيل ، الا انها تظل متأثرة ببناء الملحمة عندهما ، وهذا بالاضافة الى المفردات اللاتينية الكثيرة ، التى لم يكن مما يعاب على الشاعر أن يستعملها ليتاح له التعبير عن المعانى التى يبدو أن اللغة الانجليزية كانت تعجز عن التعبير عنها .

أما فى الشرق فان فن الملحمة قد عرفته الهند . فى (المهابهارتا) قبل أن يعرفه الاغريق فى الالياذة والاوديسا أو الرومان فى (أنييد) على اختلاف فى نوع الاسطورة وفى نماذج البطولة . وفى الهدف ، اذ يغلب على المهابهارتا ، جانب الموعظة والحكمة فى اطار المعتقدات الوثنية ، التى ما تزال سائدة عند الهندوس حتى اليوم .

ومع أن الأدب العربى ، قد أثر وتأثر الى حد بالتـراث الفـارسى ، بعـد الفتـح الاسلامى وفى العصر العباسى الأول على الأخص ، وهذا الى جانب ما نقـل الى العربية من اللغة السنسـكريتية (الهنـدية) ، فان ممـا يستلفـت النظـر أن الأدب الفارسى ، كالأدب العربى ، لم يعرف فن الملحمة بمفهومه عند الاغريق أو الرومان أو الهنود الى القرن العاشر الميلادى أو فى القرن الرابع الهجرى ، عندما ظهر فى فارس شاعرها الكبير (أبو القاسم الفردوسى) . والقرن الرابع الهجرى هو القرن الذى ظهرت فيه الدويلات الاسلامية فى مختلف الاصقاع التى كانت تنتمى الى الخلافة العباسية ، مع تمتع كل منها بشخصية سياسية تكاد تكون مستقلة تمام الاستقلال عن غيرها .

ولابد لنا أن نعلل لظهور (أبى القاسم الفردوسى) كشاعر باللغة الفارسية فى هذا القرن ، بما طرأ على الخلافة العباسية من عوامل التفكك والانحلال ، الى الحد الذى يجعل فارس تلتفت الى أمجادها القديمة ـ قبل الفتح الاسلامى ـ ويجعل أبا القاسم الفردوسى يكتب ملحمته الشهيرة باسم (شاهنامة) .. وفيها يعيد الى الأذهان أمجاد

الفرس ابتداء من ثلاثة آلاف وستمئة سنة قبل الميلاد . الى سنة ٦٥١ بعده .. ونلاحظ هنا أن السنة التى توقف عندها الفردوسى تقع فى نفس القرن الذى ظهر فيه الاسلام ..

وتقع شاهنامة الفردوسى فى ما يقرب من ستة آلاف مقطع . تتحدث كلها عن ملوك الفرس .. وكلمة (شاهنامة) نفسها معناها (كتاب الملوك) .. ومع أن الفردوسى قد عنى بتمجيد البطولات . الا أنه . كان أقرب الى المؤرخ منه الى الشاعر . ومن هنا . نجد له التفاتات الى الأخطاء والعثرات . التى وقع فيها من يتحدث عنهم من الأبطال .

وتاريخ الأدب العالمى . يضع أبا القاسم الفردوسى . فى القمة من عبقرية الشعر فى تاريخ الفرس على امتداده . وعلى تعدد الشعراء العظام فيه أمثال السعدى وعمر الخيام . وليس من شك . فى أن الفضل فى تقديره وبلوغه هذه المكانة فى تاريخ الأدب الفارسى يعود الى الشاهنامة . التى تعتبر عملا ضخما قل أن وفق اليه مثله أو غيره من الشعراء .

وأشهر أبطال الشاهنامة رستم . وسهراب . وعقدتها . أن الأب (سهراب) والابن (رستم) يجهل كل منهما علاقته بالآخر . ويحدث أن تقوم بينهما معارك طاحنة وصراع . يبدع الفردوسى فى تصويره ايما ابداع .. وينتهى بمقتل الابن وانتصار الأب .

وبغض النظر عن موضوع الملحمة . وهدفها وما فيها من الخيال الاسطورى . فان ما امتاز به الفردوسى . هو قدرته الرائعة على التصوير . وبلاغته فى أداء الصورة التى يبدعها الفردوسى . بحيث نجد فى الكثير من المقطوعات . هذه القدرة التى تجعل من المقطوعة تحفة فنية لا نملك ازاءها الا الاعجاب البالغ والتقدير الكبير .

ابن حمديس

سيشيلى .. أو سيشيليا ، اليوم ، جزيرة يندر أن يذكر أحد أنها هى صقلية وسكانها ايطاليون ، وهى تقع فى أقصى شبه جزيرة ايطاليا ، وهنـاك مشروع لجسر يدرس والأرجح انه قد نفذ ، يربط هذه الجزيرة بايطاليا ، وهندسة هذا الجسر من أدق وأروع وأجمل ما تمخض عنه الفن الايطالى .

ويقول الذين زاروا سيشيلى : إن فى لغتهم كثيرا من الكلمات العربية ، وأن فى حياة الأسرة عندهم الكثير من التقاليد التى لا تختلف عن تقاليد الأسرة العربية القديمة ، وعلى الأخص منها الترابط الأسرى ، والذود عن العرض والشرف حتى الموت .

وقد بدأ المسلمون فتح صقلية فى عام ٢١١ هجرية على يد أسد بن الفرات أيام ابن الأغلب والى أفريقية ، وتم اخضاعها للحكم الاسلامى اخضاعا تاما ، فى عهد الخلافة الفاطمية ، على أيدى بنى ابن الحسين الكلبى .

ويطول الحديث عن تاريخ المسلمين فى صقلية أو فى سيشيلى كما تسمـى اليوم ويكفينا أن نعلم أنها ـ كغيرها من البلدان التى فتحها المسلمون ـ استقر فيها العرب وازدهرت فيها حياتهم ، فترة من الزمن ، ان كانت قد قصرت ، ثم انتهت وخرجت من أيديهم فلنفس الأسباب ، التى خرجوا فيها من الأندلس .. وهى التنازع والشقاق وانتفاض قويهم على من تظهر عليه بوادر الضعف من اخوتهم وأبناء عمومتهم .

وقد شهدت صقلية نشاطا وازدهارا فى العلوم والفنون والآداب، وكان عبد الجبار بن حمديس واحدا - ربما من كثيرين من الشعراء لم نسمع عنهم - من شعراء صقلية، ومع انه من أصل عربى (ازدى) فلعله الوحيد بين شعراء عصره الذى لا يفتخر بأصله العربى . أو بنسبه الأزدى . وانما زهوه وافتخاره بوطنه ويشهد الشعر الذى نقرأه له فى ديوانه الذى حققه وكتب له مقدمة حافلة بمعلومات قيمة ومنسية عن العرب فى صقلية الدكتور احسان عباس ، الذى ننتهز هذه المناسبة لنقول أن خدمته للأدب العربى ، فيما حقق من الكتب . وفيما عالج من بحوث فى مختلف فنون الآداب ، تضعه - عن جدارة - فى الطليعة من العلماء المحققين منذ أوائل الخمسينات من هذا القرن .. يشهد هذا الشعر أن الأدب العربى قد ازدهر فى صقلية ازدهارا لا يقل عن ازدهاره فى الأندلس او فى غيرها من هذه الممالك والبلدان التى فتحها المسلمون . ومع أن المحقق الأستاذ احسان عباس يقول (لم تنجب صقلية مثله) فى الشعر ، فاننا نرى أن فى هذا التقرير بعض المجازفة . اذا كان لا يفوتنا أن انتصار النورمان على العرب ، استتبع الاستيلاء على تراثهم . أو التصرف فى هذا التراث بالحرق والافناء . بحيث لا يتعذر القول أن صقلية - كالأندلس - كان فيها شعراء فحول ، ضاعت آثارهم ، ولم يبق منها الا القليل .. ومن هذا القليل الذى بقى . وحفظ فى مكتبة الفاتيكان ، (ديوان ابن حمديس) .

وأعجب ما نجده فى شعر ابن حمديس ارتباطه بوطنه (صقلية) وحنينه اليه وحسرته على ضياعه . وتفجعه لما يلقاه المسلمون من هزائم . بحيث يمكن أن يوضع فى مقدمة القلة من الشعراء الأندلسيين الذين ندبوا وبكوا وتفجعوا على ما رأوه من حكم استمر خمسة قرون ..

فهو يقول مثلا :

ولله أرضى التى لم تزل	**كناس الظباء وغيل الأسود**
فمن شادن بابلى الجفون	**نفور الوصال ، أنيس الصدود**
يدير الهوى منه طرف كليل	**يفل ذلاقة طرف الحديد**

ومن قسور شائك البرثنين له لبدة سردت من حديد
زبانية خلقوا للحروب يشبون نيرانها بالوقود

الى أن يقول :

تخر رؤوس العدى فى الوغى لها سجدا .. ياله من سجود

ولا يختلف ابن حمديس عن غيره من شعراء عصره ، أو العصور التى سبقته ، فى المديح ولكن نسبة الأماديح فى شعره أقل كثيرا من نسبته فى شعر رصفائه ، وهذا الى جانب ظاهرة أخرى ، وهى ندرة وقفته على الطلول ، أما فى الغزل والوصف فهو قد لا يأتى بجديد فى استعاراته وتشابيهه وفنون بلاغته ، ولكن له مع ذلك . التفاتات حلوة وتناول لطيف .. يقول فى احدى أماديحه :

طار قلبى نحوها لما مشى حسنها نحوى ، للقلب جناح
فى اقتراب الدار اشكو بعدها واقتراب الدار بالهجر انتزاح
وكأنى لعبة فى يدها مالها تتلف جدى بالمزاح
أو هذا كله من لمة أبتمرت فيها بياض الشيب لاح
ما تريد الخود من شيخ غدا فى مدى السبعين بالعمر وراح



ابن زيدون

يعزى الى شعراء الأندلس ذلك التوثب نحو التجديد ، الذى خلخل إن لم يفك بعض قيود الشعر العربى وقدم النماذج التى لم يعرفها المشرق العربى . وان كان العقد الفريد لابن عبد ربه لم يعن بهذا التجديد . ولا بما أخذ الشعر الأندلسى يمتاز به من الخفة على السمع . والانسجام مع الموسيقى التى لا نشك أنها هى أيضا قد تطورت فى الأندلس بحيث قد لا يسرف من يرى أن الكثير من الألحان أو الأنغام أو المقامات التى نقلها زرياب من المشرق الى الأندلس قد تطورت . وظلت تتقبل التجديد ، الى أن استقرت فى مصر ثم فى تركيا ، ثم عادت منها الى مصر .

وابن زيدون طليعة من طلائع هؤلاء الشعراء الأندلسيين .. ولد فى قرطبة سنة ٣٩٤ هـ فى بيت من بيوت الطليعة الراقية . ليس بالثراء والجاه فحسب ، وانما بالعلم والفقه والقضاء أيضا .. وقرطبة فى الفترة التى نشأ فيها ابن زيدون كانت منارة من منارات العلم والأدب فى العالم كله فاذا أضفنا الى ازدهار العلم والفن فيها ، تلك البيئة الرفيعة التى نشأ فيها الشاعر . فاننا نستطيع أن نرى . طبيعة الذروة الشامخة التى كان من الطبيعى أن يتسنمها .

ولكن لا بأس بأن نلقى نظرة على أهم حدث فى حياته .. وهو حبه للولادة بنت المستكفى .. والمستكفى هنا خليفة من خلفاء الأندلس .. ليس مما يهمنا أن نورد ما وصفه به معاصروه .. وانما المهم أنه عنى بتربية ولادة ابنته عناية من كان يرى فيها

تلك الزهرة النضرة التى لابد أن يتعهدها بالسقيا من مناهل الأدب والفن .. وتفتحت الزهرة ، أى تفتح ، وسطع لها اللون والأرج العبق الذى ملأ حياة قرطبة كلها اعجابا بها ، وتوقا الى اللمحة منها . كانت ولادة .. نادرة من الجمال ، والشهرة ، والصوت والغناء ، والتفنن فى الضرب على آلات الطرب .. وقدر لابن زيدون ، أن يكون واحدا ممن يدورون فى فلكها ، ثم ينجذبون اليها ، ثم يستغرقون فى حمى الهيام بها .. وأعجب ما فى قصة هذا الحب ، أن ولادة غضبت وهجرت ابن زيدون ، لأنه انتقد بيتا من مقطوعة شعرية لها .. ولكن هذا أضعف الأقوال عن سبب الجفوة بينهما ، فولادة ككل حسناء ذات دل وجمال وفن وثراء يصعب أن ننتظر منها وفاء لواحد من العشاق والفلك حولها يدور فيه الكثيرون من العشاق .

وفى حياة ابن زيدون مآس ، وآلام ، وارتفاع إلى الذروة ، وانحدار الى القاع .. ولكنه يظل احدى القمم الشامخة فى الأدب الأندلسى .. بل وفى الأدب العربى كله .

من قصيدته التى نظمها بعد خروجه من السجن التى عبر فيها عن حنينه الى ولادة ، والتى مطلعها

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

من هذه القصيدة التى عارضها كثيرون ، ومنهم الشاعر المرحوم أحمد شوقى .. قوله ..

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ، ليالينا

اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا



أحمد شوقي

بغض النظر عن رضانا أو سخطنا وعن موافقتنا أو رفضنا لفكرة الامارة فى الشعر والشعراء ، وباستبعاد ما اذا كان يستحق أن يؤمر على الشعر أم لا يستحق ، فان الشاعر أحمد شوقى يظل أميرا للشعراء ، فى تلك الفترة التى اتفق كثير من أعلام الشعر على أن يقلدوه لواء الامارة عليهم ، وأن يقف فى موقع الريادة والقيادة من صفوفهم ، رغم كل ما جره عليه ذلك من حرب ضارية حمل لواءها من يمكن أن يستحق لقب (امارة النقد) فى ذلك العهد ، وكان من عطاء تلك الحرب تصحيح مفهوم الشعر ، والخروج بهذا المفهوم من الدائرة التى ألفها النقد فى الأدب العربى ، الى دائرة أو الى آفاق أوسع ، لا يعالج فيها بناء العمل الفنى فحسب ، وانما هو يعالج روح الصدق فيه ، وانتزاع معانيه من روح العصر ، ومن صور الحياة فى هذا العصر وليس من شك فى أن هذا الشاعر وأولئك النقاد ، قد استطاعوا ، أن يبعثوا فى الشعر روحا جديدة ، رأينا اشراقها فى شعراء مدرسة أبولو ، كمرحلة لا تختلف كثيرا عن الرومانسية فى الآداب الأوروبية أو العالمية ، ثم فى من يظهر اليوم من الشعراء ، الذين يمثلون مرحلة من التطور ، قد لا نرضى عنها ، ولكن ليس بعيدا ذلك اليوم الذى تتمخض فيه حركة هذا التطور عن مدرسة لها قواعدها وأصولها وروحها التى يرضى عنها من يتذوقون الشعر والفن ، كما أصبح العالم يتذوقها اليوم رغم كل ما يحيط بها من غموض وابهام ، ومن شحوب وهزال .

ولا نزيح ستارا عن مجهول ، حين نقول ان شوقى ولد بباب الخديوى اسماعيل وأنه نشأ فى هذه الابهاء التى تكمن فى كل قطعة أثاث فيها ، وفى كل لمسة زخرف فى بنائها سمات الاريستوقراطية الشامخة ، التى لا يرضيها من الحياة وعطاء الحياة الا الأجمل والأكمل والأشد بهاء وسطوعا .. وكما يقول عنه الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى مقدمة الجزء الأول من شعر شوقى . (فان شوقى قد خلق شاعرا ، والشاعر يتأثر أضعاف ما يتأثر سائر الناس وكان لكل هذه العوامل أثر باد فى شعره وحياته . ومع أن شوقى درس فى مصر ثم أتم دراسته فى أوروبا وتأثر بالوسط الأوروبى وبالحياة الأوروبية وبالشعر الأوروبى تأثرا كبيرا . فقد ظل تأثره بالبيئة التى نشأ فيها ظاهرا) ..

وقد أصدر أمير الشعراء أول دواوينه ، أو ديوانه الأول عام ألف وثمانمئة وثمانية وتسعين ولكنه عاد فأصدر نفس الديوان فى عام ١٩٢٦ بعد أن استبعد من الطبعة الأولى عشرات من القصائد التى لم يرض عنها ، وكان ينشرها دون توقيع أو بتوقيع رمزى مثل (النديم) و (السائح) و (شين) و (أنا) و (شرم برم) و (شاب مصرى) وعندما توفى فى عام ١٩٣٢ ، كان قد ملأ العالم العربى احساسا بشاعريته التى قد يختلف على مستواها حكم النقاد ، ولكنهم لا يختلفون اطلاقا فى أنه قد استطاع أن يغنى الشعر العربى ، وأن يؤكد نهضته ، وأن يعيد اليه تلك الروح التى ظل يفتقدها طوال عصور الظلام ، ولذلك لم يكن مما يستغرب، من كان يقارنه بالمتنبى ، والمتنبى واحد من اكبر شعراء العربية ، وشعره ما يزال على كل لسان حتى اليوم وقد ينسى الكثيرون الكثير من قصائد شوقى ، ولعلهم لم يعودوا يقرأونها ، ولكن من الذى استطاع أن ينسى (سلوا قلبى غداة سلا وتابا .. لعل على الجمال له عتابا) ومنها ذلك البيت (الذى يندر أن تجد من لا يحفظه اليوم حتى بين الذين لا يقرأون ولا يكتبون وهو (وما نيل المطالب بالتمنى .. ولكن تؤخذ الدنيا غلابا ..) ثم من الذى يستطيع أن ينكر أن أحمد شوقى هو الذى كتب المسرحية الشعرية التى لم يسبق أن كتبها قبله شاعر ولا أسرف اذ قلت : إنه لم يأت بعد من كتبها بتلك البراعة والقدرة

المعجزة ، على احتواء الموضوع ، رغم كل ما يعترض الشاعر العمودى من قيود الوزن والقافية .

من الذى يستطيع أن ينسى مسرحياته . (مجنون ليلى) و(كليوباترا) و(قمبيز) التى وضعت أساس المسرحية الشعرية فى الأدب العربى ، وهو أساس ، يؤسفنا أنه ظل لا يرتفع فوقه البناء ، رغم كل ما ظهر بعده من محاولات المسرحية الشعرية التى ظلت مجرد محاولات ، لا تستهوى القارئ فضلا عن أن تستهوى النظارة فى المسرح مع ما توفر لاخراجها من كفاءات .

سيظل أحمد شوقى ـ رحمه الله ـ أمير الشعراء ، مهما أنكر عليه النقاد أن يكون أميرا أو حتى شاعرا .. وسيظل الشعر العربى ، يعانى ما يعانيه من حركة التطور الى أن يستقر على ما يرضى النقد والذوق الفنى كما كان يرضيهما شوقى ، ومن سبقه من فحول الشعر ، فى المئة الرابعة من الهجرة .



عبد الرحمن شكري

ان تبحث بين أكوام الرمال ، وعلى أكتاف الجبال ، لتجد شذرة ذهب ، تبشر بمنجم يفيض بهذا المعدن الثمين ، خير من أن تغوص على محارة تجد فيها لؤلؤة صغيرة ثم لا تجد غيرها على كثرة تعدد مرات الغوص .. ومع ذلك فما أقل من يحاول العثور على كفاءة يشجعها ويفتح لها الطريق الى النجاح والتألق والفيض بما فيها من معدن الذهب الثمين ، وهو هنا الفكر والفن ، والابداع فيهما الى الحد الذى يغنى تراث الأمة ، بالجديد البكر ، الذى يؤكد حيويتها واستمرار تدفق دماء الشباب فى كيانها .

الشاعر عبد الرحمن شكرى ، يعتبر من أوائل الرواد فى الانطلاق بالشعر من أساليبه الكلاسيكية ـ من حيث الموضوع ـ التى ظل الشعراء يتمسكون بها ، الى آفاق تشبه الى حد بعيد آفاق الرومانسية التى عرف بها الشعر الانجليزى خاصة .. وتعزى انطلاقته العملاقة ـ فى حينها ـ الى ثقافته الانجليزية المتعمقة ، وهو فى هذه الثقافة ثالث ثلاثة تزاملوا فترة من الزمن عرفت فى تاريخ النقد والأدب العربى ـ فى مصر ـ بفترة الديوان .. وهم عبد الرحمن شكرى وابراهيم عبد القادر المازنى ، وعباس محمود العقاد يرحمهم الله جميعا .

أصدر عبد الرحمن شكرى سبعة دواوين ، تعتبر حتى اليوم أروع ما امتاز به الشعر العربى من محاولات الانطلاق والتجديد .. حتى لقد يكون من الممكن أن تعتبر انطلاقة مدرسة أبولو نوعا من امتداد لوثبة عبد الرحمن شكرى ، وان كان الدكتور محمد زكى أبو

شادى . قد رسخ فى الأذهان انتماءها الى شاعر القطرين خليل مطران وقد صدرت دواوين عبد الرحمن شكري ، متوالية ، فى فترة لم تزد على عشر سنوات وعلى التحديد من عام ١٩٠٩ الى عام ١٩١٩ م .

مما يؤخذ على المازنى والعقاد رحمهما الله انهما تنكرا لصديقهما وثالث ثلاثتهما فى الوثبة الفكرية الفنية . وليس من سبب لهذا التنكر سوى حقد المنافسة وشرتها .. كانت حملاتهما عليه سببا مباشرا فى انكماش الشاعر عن الحياة . وليس عن الشعر فحسب .. كأن فجيعته فى الصديقين ، كانت آخر ما يمكن أن يخطر له ببال .. وقد ظل ينطوى على نفسه ويهرب من نداء الحياة ، الى أن أصيب بالشلل وظل يعانى العلة وحيدا مجفوا ومنسيا عدة سنوات الى أن مات رحمه الله .

حافظ ابراهيم . وهو الذى لا يذكر شوقى حتى يذكر هو حتى لقد عرفت الفترة التى حملا فيها لواء الشعر . بأنها فترة حافظ وشوقى . نظرا لمكانتهما الرفيعة فى الريادة تغريدا ملأ الحياة العربية صداحا وتوثبا لاستعادة ما فقده الشعر العربى من قوته بعد القرن الرابع الهجرى .. حافظ ابراهيم نفسه قال عن عبد الرحمن شكرى كلاما ، يتعذر أن يؤخذ مأخذ المجاملة أو جبر الخاطر أو التشجيع .. قال :

أفى العشرين تعجز كل طوق ... وترقصنا باحكام القوافى
شهدت بأن شعرك لا يجارى ... وزكيت الشهادة باعترافى
لقد بايعت قبل الناس شكرى ... فمن هذا يكابر بالخلاف

وقال عنه العقاد قبل أن ينقلب عليه . وقبل أن تجرفه حمى المنافسة :

(ان شعر شكرى لا ينحدر انحدار السيل فى شدة وصخب وانصباب ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق وسكون) .

وفى بعض المصادر . ان الذى بدأ أسباب التنافر بين شكرى وزميليه . هو مقال كتبه عبد الرحمن شكرى فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ذكر فيه شيئا عن سرقات المازنى .. فغضب هذا . ودعمه العقاد .. وكتب المازنى فصلين فى الديوان هاجم فيهما شكرى وسماه (صنم الالاعيب) . ومن هنا يمكن القول ان (الديوان) الذى يعتبره

الكثيرون أول مدارس النقد انما قام على أنقاض أو على محاولة هدم عبد الرحمن شكرى فى الدرجة الأولى .. وقد تخلل ذلك أراء الكاتبين ـ المازنى والعقاد ـ فى تجديد الشعر وان كانت لا تختلف فى الواقع عن رأى أو أراء عبد الرحمن شكرى ، التى لخصها فى بيته المشهور الذى يقول فيه :

الا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

ومن هذا المنطلق ، كانت حملات العقاد المشهورة على شوقى ـ وفى كتاب الديوان أيضا .. ويقول فيها ما خلاصته أن عيوب شعر شوقى وأمثاله هى : (التفكك .. وانعدام الوحدة العضوية .. والاحالة) ويقصد افساد المعنى بالاعتساف والشطط والمبالغة ومخالفة الحقائق والخروج على المعقول والتقليد وأظهر ما فيه تكرير المألوف من القوالب اللفظية والمعانى وأيسره على المقلد الاقتباس والسرقة ، وأخيرا الولع بالاعراض دون الجوهر) .

ويدهشنا عبد الرحمن شكرى ، بأنه لخص كل هذا الذى ظل يدور حوله نقد العقاد فيما يلى :

أولاً : الشعر لازم للحياة لزوم الاحساس للنفس والتفكير والعقل .

ثانيا : مجال الشعر هو الاحساس بخوالج النفس وشرح ما يعتورها .

ثالثا : الشاعر الصميم يرى أن الشعر أجل عمل يعمله فى حياته وأنه خلق للشعر .

رابعا : على الشاعر أن يتعهد شعره بالتهذيب .

خامسا : ينبغى للشاعر أن يتذكر وهو يكتب شعره أنه يكتب للعقل البشرى ونفس الانسان أين كان ، وأنه يكتب لكل يوم وكل دهر وهذا لا يعنى أنه لا يكتب لأمته وبيئته .

سادسا : يمتاز الشاعر العبقرى بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبا فى أن يفكر كل فكر وأن يحس كل احساس .

سابعا : ليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق والمفسر لها .

ثامنا : ليس الخيال مقصورا على التشبيه فانه يشمل روح القصيدة وموضوعها

وخواطرها .

هذه الحقائق المركزة والمقطرة من فهم عبد الرحمن شكرى للشعر . وقد تجلت فى الكثير من شعره .. هى نفسها التى دار عليها كل ما كتب العقاد . والمازنى فى نقدهما لشعر حافظ وشوقى وغيرهما وفى زعامتهما لمدرسة النقد فى الشعر .

أعجب ما فى أمر الدنيا أن عبد الرحمن شكرى . حتى بعد موته لم يأخذ حقه على الأدب العربى من التكريم والتقدير وقد كان ما يزال الأجدر والأحـق بأن يكون صاحب اللواء الأرفع فى نقد الشعر . وفى روائع الفن من هذا الشعر .



الدكتور ابراهيم ناجي

كان ظهور من كان يسمى شاعر السيف والقلم وهو محمود سامى البارودى . فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ايذانا وإرهاصا . بيقظة الشعر العربى بعد قرون من التدهور والتخلف والجمود .. ثم جاء شوقى وحافظ وخليل مطران . ليشهد العالـم العربى نهضة الشعر العربى . واشراق فجر جديد . وروحا تستمد مادة بقائها وقدرتها على التوهج من روح العصر . ليس فى عمود الشعر واوزانه وقوافيه . وانما فى معانيه واغراضه . وفى الحرص على وحدة القصيدة . لا البيت . وفى التخلص من قيود الشعر المألوفة فى التراث . كالابتداء بالوقوف على الاطلال ثم التخلص الى المديح أو الثناء ..
وكان من الطبيعى أن يعتبر النقاد ومتذوقو الشعر هذا الحد من التطور رغم الالـتزام بقيود القافية والوزن والمعتاد من أساليب البلاغة والبيان . تجديدا .. حتى لقد رأينا فى الثلاثينات من هذا القرن من يضع خليل مطران عملاقا من عمالقة التطوير والتجديد وحين اضطلع الدكتور أحمد زكى أبو شادى بمشروع مجلة أبولو . كان خليل مطران هو رئيس جماعة أبولو . وهذا مع ان خليل مطران . كشوقى وحافظ . لم يتحرر من قيود القافية والوزن . وان كان قد تحرر . من مألوف فنون الشعر أو ابوابه . الى حد قل معه عنده المديح . وكثر تنوع الأغراض والمواضيع التى يعالجها الشاعر . فى أسلوب جزل ولكنه مع هذه الجزالة يبتعد عن الألفاظ التى يحتاج معها الشاعر الى شرح معانيها أو يضطر القارىء الى البحث عن معناها فى القاموس ..

وباختصار يمكن القول ، أن هؤلاء العمالقة ، قد استطاعوا تجديد ديباجة الشعر ومواضيعه واغراضه ، واتصلوا بحياة عصرهم ، ومشاكل بيئتهم ، وتجارب حياتهم اتصالا قربهم من احاسيس جماهير المثقفين ، وفتح لهم أبواب الشهرة والمجد بحيث أمكن القول إن الشعر العربى قد نهض فعلا على أيديهم .

ولكن هذه النهضة ، ان كانت قد أعادت الى الشعر العربى ازدهاره ، وخلصته من الجمود الذى عانته الحياة الفكرية والفنية فى عصور الظلام ، فانها ظلت تلتزم القواعد العامة ، فى الوزن والقافية ، بل وحتى فى التشابيه والاستعارات وفنون البلاغة ، ومن هنا جاءت انطلاقة العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى ، كنقاد ، يثيرون مشكلة المضمون وينتقدون الأساليب التقليدية ، وكان (الديوان) الذى أصدره ثلاثتهم فى جزئين فى سنة ١٩٢١م ،انتفاضة يظل الشعر العربى مدينا لها ، فى كل ما طرأ عليه من تجديد . واستطاعت هذه الانتفاضة ، أن تجد طريقها الى نفوس جيل جديد من الشعراء يعالجون تجارب جديدة فى الشعر ، لا شك أنهم قد تأثروا فيها إما بحصيلتهم من الآداب العالمية ، فى اللغتين الفرنسية والانجليزية واما بما ترجم الى العربية من هذه الاداب ، وظل ينشر فى كثير من المجلات والصحف ، وعلى الأخص منها جريدة (السياسة الأسبوعية) التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين ويرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، ويتزاحم على النشر فيها كبار كتاب تلك الفترة ومنهم الدكتور طه حسين والمازني ، وعباس حافظ .. وفى هذه الجريدة ظهرت أسماء (على محمود طه المهندس) و (الدكتور ابراهيم ناجى) ومختار الوكيل ، وحسن كامل الصيرفى وغيرهم .. ولكن ظهورها لم يستلفت الأنظار ولم يثر اهتمام الكثيرين من القراء ، الا أولئك الذين تأثروا أو أيدوا وجهة نظر عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى ..

ولكن يبدو أن الدكتور أحمد زكى أبو شادى ـ وهو من شعراء التجديد فى تلك الفترة ، وله رصيده الضخم من الثقافة الغربية ـ قد توهم أن الظرف قد تهيأ لأن تفتح الحياة الفنية ذراعيها لاستقبال شعراء الشباب فأقدم على تأسيس ما سمى (جماعة أبولو)

تحت رياسة خليل مطران . واصدر مجلة متخصصة . تحمل نفس الاسم احسن استقبالها خاصة المثقفين فى تلك الأيام . وفيها لمعت أسماء الدكتور ابراهيم ناجى . وعلى محمود طه . وحسن كامل الصيرفى وصالح جودت . ومختار الوكيل . والهمشرى . ومع هؤلاء من غير المصريين (أبو القاسم الشابى) ..

ولم تمض فترة قصيرة . حتى صدر للدكتور ابراهيم ناجى ديوانه الأول (وراء الغمام) الذى جمع فيه قصائده التى سبق أن نشرها فى جريدة السياسة الأسبوعية وفى المقتطف . وفى الهلال .. وبصدور هذا الديوان . تقررت شخصية الدكتور ابراهيم ناجى كشاعر رصيف لعلى محمود طه . ولغيره من شعراء مدرسة أبولو أو المدرسة الحديثة كما كانت تسمى فى الثلاثينات ..

ولد ابراهيم ناجى سنة ١٨٩٨م .ومع انه كان يتعشق الشعر والأدب منذ طفولته وايام صباه . فقد اتجه لدراسة الطب .. وتخرج طبيبا فى عام ١٩٢٣م ولكنه ظل على تعشقه للأدب . والشعر على الأخص . الى جانب جولات واسعة فى أبحاث ادبية تنشر فى هذه المجلة أو تلك . والأرجح انه لم يصدر أو لم يطبع ديوانا أخر فى حياته سوى (ليالى القاهرة) . وبعد وفاته ظهر له ديوان جمعه أحد أصدقائه بعنوان (الطائر الجريح ..) ..

بعد وفاته . استفاضت شهرته . ولم يبق فى العالم العربى من لا يذكر اليوم اسمه . وذلك لأن سيدة الغناء العربى . وفلتة هذا القرن . بل وكل قرن مضى فى الصوت العبقرى . السيدة أم كلثوم . قد غنت له قصيدة (الأطلال) التى يقدم لها بقوله : (هذه قصة حب عاثر . التقيا وتحابا .. ثم انتهت القصة بأنها صارت اطلال جسد . وصار هو أطلال روح ..)

ولعل أجمل وأعمق ما فى هذه القصيدة قوله :

لست أنساك وقد أغريتنى .. بفم عذب المناداة رقيق

ويد تمتد نحوى كيد .. من خلال الموج مدت لغريق

عمر أبو ريشة

ليس مما يهم المستمع كثيرا أن يعرف ، متى بدأ الشاعر عمر أبو ريشة أول انتاجه ولكن ما يهمنا هو أن نعرف أن هذا الشاعر لم يكن من هؤلاء الشعراء الذين يتعجلون الشهرة . فيسرفون على أنفسهم وعلى الناس بما ينشرون من شعر يظل مجرد ترديد لمعان يندر فيها الوميض والالق ، فاذا استثنينا القدرة على النظم وزنا وقافية ، يظل ما تقرأ لهم كلاما مكرورا ، لا تكاد تمضى فى محاولة توخى روح الشعر فيه ، حتى تشعر أن بين الشاعر وهذه الروح التى تشبه الزهر الفواح بالأرج ، المتبرج بالألوان والظلال ، لا يختلف عما بين الجثة الخامدة آن لها أن تدفن قبل أن تفوح منها رائحة الموت ..

ولعل الذاكرة لا تخوننى ، اذا قلت : إن أول عهدى بشعر عمر أبو ريشه هو أوائل الأربعينات من هذا القرن .. ولست أدرى فى أى مجلة أو جريدة قرأت له قصيدة يقول فيها :

أنـا حفنـة من رمـاد المنى	على مجمـر الزمـن الازور
هويتـك فى غصـة المؤمنين	الى جرعة من فم الكوثر
وفـوق جفونـى عصـاب الذهول	فلـم اتبصر ولـم أبصر
ظلمتـك ظلـم انهيار الخيال	على يقظـة الشاعـر العبقرى

وكان باعث اعجابى أو تعلقى بهذه الأبيات ، ولا بأس بالاعتراف اليوم ـ أنى كنت أعيش التجربة التى صورها الشاعر .. وان كنت قد توقفت قليلا عند قوله (فم الكوثر) اذ تختلف صورة الكوثر عندى ، فهو نهر من أنهار الجنة ، ليس له هذه الصنابير أو الأفواه .

وقد ظللت بعد ذلك أتتبع شعر عمر أبى ريشة ، فاقرأ له ، وأعجب ، ثم اضيق أشد الضيق ، حين يفاجئنى بقصر نفسه ، اذ أشعر أنه يقف بالقصيدة فى اللحظة التى تترامى فيها الآفاق أمام القارئ لمزيد من الدفق والعطاء .. ومع ذلك فقد وجدت أن هذا أيضا فن من الفن .. اذ ليس أجمل من أن يترك الشاعر للقارئ خياله واحلامه وآفاقه .. مكتفيا بأنه قد استطاع أن يفتح لك نافذة الى هذه الآفاق والخيالات والأحلام .

ووقع فى يدى ذات يوم ما أظنه أول ما صدر للشاعر فى شكل ديوان أو مجموعة من قصائده ، وهو ما اصدرته مجلة الأديب فحرصت على هذه المجموعة بين ما يجتمع فى مكتبتى المتواضعة من دواوين الشعراء . فى انتظار المزيد من الجديد من عطائه .. الى أن جاءتنى (مجموعة باسم ديوان عمر أبو ريشة) أصدرتها دار العودة فى بيروت ، وفيها ما نشر له من شعر فى المجموعة التى أصدرتها مجلة الأديب ، ولكن فيها وغدا أيضا بديوان لقصائد لم تنشر ..

وبديهى ـ فيما أعتقد ـ أن أعنى بشعر الشاعر ، أو بالشاعر كشاعر دون أن اتتبع مسيرة حياته واعطتنا المجموعة الجديدة ملامح من هذه المسيرة ، لنرى أنه عضو المجمع العلمى العربى فى دمشق وعضو الأكاديمية البرازيلية للآداب « كاريوكا » وعضو المجمع الهندى للثقافة العالمية ، ثم هذه السلسلة من المناصب الديبلوماسية بداءة من وزير مفوض ونهاية عند سفارته لسوريا لدى الهند .. ثم النهاية الأخرى التى يقول فيها الناشر (يقيم هذه الأيام فى بيروت ، بعد أن شردته الكلمة اثنين وعشرين عاما فى مشارق الأرض ومغاربها) .

وابتسمت ، للكلمة التى تشرد (عمر أبو ريشة) فى مشارق الأرض ومغاربها ،

وتهامست مشاعرى ، عن هذه الكلمة للشعراء والكتاب فى عالمنا العربى ، التى يكون نصيب أصحابها فى الأغلب التشريد ، ان لم يكن فى مشارق الأرض ومغاربها ، ففى ظلمات أعماقها موتا ، أو حياة كالموت. ولم يطل عجبى ، اذ انداحت فى ذاكرتى ، مسيرة الكلمة عبر التاريخ وكيف ظلت دائما لا تحظى بغير التشريد والملاحقة ، ومع ذلك تظل هى مهماز الحركة والحياة والتطور. وحافز الحضارة التى يعيشها انسان اليوم ، ومثلها الأعلى الذى يمكن أن تشهده الأجيال المقبلة من البشر .

ويجيد عمر أبو ريشة التعبير عن الدور القيادى للكلمة فى حياة الأمم حين يقول فى احدى قصائده القديمة عن الشعر والشاعر :

فالعبى يا عواصف الدهر ما شئت   فلن تجرحيه فى وجدانه
رب شاد على الظمأ اسلم الروح   وروى الأجيال نبع بيانه

وعن موقف الأحرار من الكلمة أو من واقع العالم العربى يقول :

اين .. لا أين ؟؟ موئل عربى   يسرح الحرفى ظلال أمانه
تعب البغى . وهو يضرب فيه   ويروى ثراه من أضغانه

واليوم .. وقد أوى الشاعر الى مستقره فى لبنان ، يراه قراء شعره ، قمة شامخة تترامى الامداء بينها وبين المناصب الديبلوماسية التى شردته فى مشارق الأرض ومغاربها .. وهى قمة تسنمها الشاعر بهذه الكلمة وحدها ، وأعظم ما فيها أنها وقد احتضنته ستظل حانية عليه . حياة قد لا يكون المأوى فيها أكثر من كوخ ، وقد لا يكون المرتزق الا لقيمات من أعشاب الأرض ، ولكنها الحياة التى تمتد عبر الأجيال .

جون كيتس

العبقرية زهرة برية تتفتح فى شق من هذه الشقوق التى نراها فى الجبال تحتضن الأزهار الغريبة فى بواكير الربيع . تستوقفنا الزهرة بما يتوفر فيها من الوان ، وما يتبرج به تكوينها من ابداع ، وما يعبق من اريجها الأخاذ . ولكننا ننسى الشق الذى نبتت فيه ، فلا يحظى منا حتى بلمحة من تفكير ، ودفقة من اعجاب .

وهكذا كان الشاعر الانجليزى (جون كيتس) الذى يقول مؤرخو سيرته ، ان أباه (توماس كيتس) لم يكن اكثر من مطمر للخيل ، ربما بلغ ان يكون مديرا لاسطبل تملكه مؤسسة ، تعهد اليها بجوادك لتطميره او العناية به ، ولك ان تستأجر منها الجواد الذى تحتاجه أو عددا من الجياد تجر مركبتك الفخمة فى أيام كانت الخيل فيها عصب الحياة الاجتماعية الراقية فى انجلترا ، وفى أوروبا كلها .

وبيئة مطمر الخيل او مدربها ، لابد وان نستبعد عنها أى علاقة بالأدب والفن فاذا بدا لنا ان نحسن الظن بها ، فلا ننتظر اكثر من ان نرى الأب يعنى بتربية ابنائه ، فيسمح لهم بأن ينالوا حظا من التعليم ينعطفون بعده الى حرفة ابيهم وقد كانت حرفة رابحة ، وكانت المؤسسة نفسها من المؤسسات الناجحة فى هذا النوع من النشاط .

ولا نجد فى الفتاة التى تزوجها (توماس كيتس) ، وهى ابنة مالك الاسطبل ما يمكن ان يكون له أثر فى اتجاه ابنها نحو الشعر بل لا نجد فى مراحل حياتها وقد انجبت بعد جون اولادا وبنات ، ما يتيح لها التفرغ لتوجيه ابنائها اتجاها من أى نوع

يمت الى الفكر بصلة .

ولكن الأحداث التى توالت فى حياة جون حيث مات أبوه ، على أثر سقوطه من جواد كان يمتطيه ذات ليلة في عودته الى البيت ، قبل أن يبلغ جون التاسعة من العمر ، ثم موت والدته قبل أن يبلغ الخامسة عشرة ، ثم موت جدته ... يمكن أن تسهم ولو بنصيب قليل ، فى استثارة عواطفه ، وايقاظ مشاعره ، وان كان مؤرخوا سيرته يستبعدون مثل هذا التأثير ، لأن موت من مات من أهله لم يؤثر على ما ينعم به جون والأحياء من اخوته ، من حياة رغدة وادعة ، توفرت لها أسباب الدعة والعيش الكريم ، مما ترك الأب والجد ، وبعدهما الجدة من مال وعقار .

ومع خلو حياة الأب والأم والأسرة كلها من عناصر الفكر والثقافة ، فاننا نلمح بصيصا من العوامل التى كان لها الفضل فى اتجاه جون كيتس الى الأدب .. والى الشعر خاصة .. ذلك ان ما كانت تنعم به الأسرة من اليسر ورخاء العيش ، قد يسر لوالدته ـ بعد وفاة ابيه ـ ان تحقق املها فى الحاق جون بمدرسة (هارو) التى كانت واحدة من مدارس العلية ، تضم ابناء الطبقة الميسورة فى المجتمع ، كما كانت قريبة من مقر الأسرة .. ومع ان اقامة جون فيها لم يطل كثيرا اذ انتقل الى مدرسة كان يدرس فيها اخواله (انفيلد) الا أن ذلك المستوى الرفيع الذى شهده فى هارو ـ رغم قصر المدة ـ لا يبعد ان يكون قد ترك فى نفسه بوادر من حوافز الطموح الذى يتطلع ان يكون فيها اكثر من ابن مدرب الخيل .

وكانت مدرسة (انفيلد) على تواضعها بالنسبة لهارو ـ تتمتع بادارة رجل حصيف ينتهج فى تربية تلاميذه نهجا ينمى دوافع التطلع ويغذى حوافز الطموح . ولابد ان نفترض لهذا ابعد الأثر فيما سطع من نبوغ كيتس فيما بعد ، وان كانت حياته الدراسية الى ان بلغ الرابعة عشرة خالية من أى بارقة تبشر بأنه يمكن ان يكون هذا الشاعر العبقرى ، الذى لايكاد يذكر بايرون وشيلي ، حتى يذكر هو معهما ، فلا يهبط عن المكانة التى يقتعدانها ، فى القمة من الحركة الرومانسية فى الأدب الانجليزى .

كانت حياته الدراسية . لا تبشر بشئ من هذا الشعر الذى يكاد لا يفقد ما توفر له من خيال مبدع وجمال أخاذ فى المبتكر الرقيق من الصور والمعانى والمشاعر التى يهتز بها وجدانه . فيتدفق بها قلمه عطاء ثرا . يجمع النقاد على انه عطاء العبقرية التى لا تخضع لمقياس . ولا تعترف بحدود او قيود .

كان الى الرابعة عشرة من عمره . تلميذا يتفوق فى ساحات اللعب . وفى المباريات الرياضية . الى حد جعل زملاءه ومدرسيه . يرجحون ان مستقبله سيكون فى الجيش أو فى البحرية . وقد كان احد اخواله من رجال البحر .

ولكن الرابعة عشرة . كانت اشبه بحد فاصل بين ذلك الفتى الرياضى . وبين هذا الطالب الذى اصبح يعكف على المطالعة فى شغف . ويلازم المكتبة فى انهماك واستغراق . لا ليدرس المقررات المدرسية . وانما ليراه زملاؤه منكبا على نصوص الميثولوجيا الاغريقية يقرأها ويتابع مصادرها وما كتب عنها . ثم لا يكتفى بالاطلاع والاستيعاب . وانما يذهب الى حد محاولة النقل الى اللغة الانجليزية من النصوص الاغريقية .. بل لقد بلغ من تعلقه بآداب الاغريق والرومان . ان اقدم على ترجمة (اينيد) لفيرجيل عن اللاتينية التى أصاب منها حظا طيبا . وهى خطوة فيها الكثير من الجرأة ان لم يكن الغرور . ومع ذلك فهى قد اكدت ان طلائع النبوغ قد لاحت . وان اشعاع العبقرية قد اخذ يومض مؤذنا بالتوهج والسطوع . ويستمر هذا التحول الحاد من ساحات اللعب وملاعب المباريات الرياضية . فاذا بجون كيتس فى الخامسة عشرة يفوز بجميع جوائز التفوق فى نهاية العام الدراسى . فينسى مدرسوه وزملاؤه ذلك الفتى المشغوف بالنشاط الرياضى . وقد ندر ان تفوق فى مقررات الدراسة طيلة السنوات الماضية . ليجتمعوا حوله معجبين بتفوقه وبانصرافه مع ذلك الى الأدب .. والى الشعر منه على الأخص فى هذا العام .

والخامسة عشرة فى عمر الفتى أو الفتاة . هى ميعة الصبا وفورة الشباب . وهى السن التى يتجنح فيها الخيال . فتتلامح فى الوجدان عوالم غامضة فيها بواعث الشوق الى المجهول . ونوازع التوثب نحو المكنون فى دنيا تظل مستمرة آسرة من الآمال

والأحلام . فاذا تراءت معها عرائس الفن وحوريات الشعر . وتوفرت سبل التطواف فى هذه الآفاق التى طوف فيها الأعلام من الشعراء والفنانين فليس ما يمنع ان يمتلئ الشراع بريح رخاء . وان تبدأ فى حياة الشاب مسيرته نحو الفن .

ولا شك ان هذا ما كان يحلم به او ما يوشك ان يندفع اليه جون كيتس حين انتهت مرحلة دراسته فى اينفيلد ولكن الوصى عليه كان له رأى آخر يتفق مع حرصه على مستقبل الفتى . ومع رغبته فى ان يضمن له حياة كريمة موفورة ليس مما يتفق مع طبيعة الأشياء ان يضمنها الأدب بأية حال .. ولذلك فقد أصر على أن يوجه جون كيتس الى دراسة الطب والجراحة .. ويبدو ان كلمة الوصى هى الحاسمة التى لا يملك الفتى ان يناقشها فلم يكن له من بد ان يتجه الى حيث وجّهه الوصى . ولكن الميثولوجيا الاغريقية والكثير من روائع التراث فى اللغة اللاتينية . اقامت بينه وبين دراسة الطب والجراحة عقبة من الضيق والسخط افضت بعد فترة . الى ان يشتبك مع استاذه اشتباكا لم يجد الوصى معه سبيلا الا ان ينقل جون الى لندن . وان يعهد به الى معهد يكمل فيه دراسة الطب اذ لم يكن فى وسعه ان يختار له سواه .. وتحقق للوصى ما يرضى ضميره اذ استطاع فتاه ان يدرس اربع سنوات . وان يتخرج باجازة فى الصيدلة فى عام ١٨١٦م وعرض الوصى عليه بعد حصوله على ترخيص بممارسة المهنة . ان يمول له افتتاح صيدلية وعيادة طبيب فى توتنهام . وفى نفسه أنه بهذه الخطوة سيحقق لجون سبيله الى تلك الحياة الرخية الرغدة التى يرتضيها له . ولعله كان ينتظر ان يفرح الفتى وان يبدأ مسيرته راضيا ممتنا . فاذا بجون يفاجئه بأنه يرفض كليا ان يمارس المهنة التى درسها . لأنه سيتفرغ لما لم يكن خطر للوصى على بال . وهو قرض الشعر .

وفى حياة جون كيتس عندما كان فى مدرسة اينفيلد . شاب هو ابن ناظر المدرسة وقد كان قوى الشخصية واسع الثقافة والاطلاع . توثقت بينه وبين كيتس اواصر الصداقة والود التى ظلت متصلة فى الفترة التى كان فيها جون يدرس الطب واتصل معها اقباله على المطالعة بما يستعيره منه من الكتب . ومناقشة الكثير مما فى هذه الكتب من ابحاث وآراء . ومن هذه الكتب أعظم مؤلفات سبنسر وهو قصيدته الكبرى (الملكة الجنية)

التى لم يكن يتمكن جون من قراءتها ودراستها لو لم يكن لديه ذلك الاستعداد وتلك الموهبة اللذان افسحا للشاب الصديق ولوالده الناظر سبيل قيادة جون فى المسالك الوعرة . لفهم واستيعاب الكثير من الأعمال الأدبية لمشاهير الكتاب والشعراء .

****

ولم يقف جون كيتس عند مجرد الاطلاع والدرس . بل انتقل الى كتابة الشعر ليس بعد تخرجه صيدليا فى عام ١٨١٦م. وانما منذ كان في اينفيلد . ولا شك ان محاولاته الأولى كانت تقليدا ومحاكاة لمشاهير الشعراء . وفى مقدمتهم سبنسر ولكن بعد أن تفرغ لكتابة الشعر كان رئيس تحرير صحيفة (الاكزامينر) (لاى هنت) هو الذى استأثر باعجاب كيتس . فلما سجن هذا . لأسباب سياسية . منها دعوته الى التجديد والعودة الى الطبيعة . ازداد اعجاب كيتس به . فما كاد يطلق سراحه حتى نظم كيتس قصيدة يتحمس فيها للكاتب ولآرائه الى حد بدا معه وكأنه يتمنى ان يتهم بمثل ما اتهم به الكاتب . وان يسجن كما سجن .. وكانت هذه القصيدة . بداية العلاقة بين الكاتب السياسى الكبير . وبين الشاعر الناشىء .. قام تشارلز كلارك . ابن ناظر مدرسة اينفيلد . بتقديم جون الى الكاتب فاذا به يلقى لديه ترحيبا كبيرا ليس فى بيته فحسب . وانما فى الأكزامينر . وهى المجلة المرموقة فى ذلك العهد .

وفى الأكزامينر كتب رئيس تحريرها لاى هنت . مقالا بعنوان (شعراء وشبان) ابرز فيه شاعرين . هما شيلى وجون كيتس . .. تحدث عن كل منهما . وبشر بنبوغهما . واستشهد على نبوغ كيتس باحدى قصائده التى يقول النقاد انها كانت وما تزال من انبل وانقى اشعار جون كيتس .

وبعد هذه الخطوة الحاسمة . فى حياة كيتس كشاعر واديب توالى ظهور قصائده فى الأكزامينر . ثم ظهرت هذه القصائد فى ديوان يحمل اسم كيتس . كان يمكن ألا يلتفت اليه القراء والنقاد . ولكن لاى هنت . كتب عن الديوان فى مجلته والقى عليه الأضواء . ونبه الى (النهضة الحقيقية) التى يمثلها (الشعر الجديد) . فكان لذلك اثره الحاسم - مرة أخرى - فى تقرير شخصية الشاعر الشاب .

وفى سنة ١٨١٧م ، وهى السنة التى ظهر فيها ديوانه. غادر الشاعر مدينة لندن الى جزيرة (وايت) حيث اعتزل الناس ، وتفرغ لكتابة قصيدته الكبرى (انديميون) وهى ملحمة تنتزع موضوعها من احدى اساطير الاغريق التى ظلت ولعلها ما تزال ينبوعا للكثير من روائع العمل الأدبى فى انجلترا . وعلى الأخص فى عصر النهضة . ثم فى الفترة التى سيطرت فيها الرومانسية على الحركة الأدبية فى اوروبا .

وقد بلغ من قدرة جون كيتس على تصوير جو الملحمة الأسطورى ان احدهم سأل الشاعر (شيلى) وهو واحد من رصفاء كيتس (من اين يا ترى لابن مطمر الخيل ان يتعمق هذه الصورة الاغريقية . وان يبدع هذا الابداع فى تصويرها ؟؟) وكان جواب الشاعر : (لأن الشاعر اغريقى الروح) .

****

ولا ننسى بالطبع ان جون كيتس واحد من كبار شعراء الرومانسية الانجليز ولذلك فان الروح الاغريقية حين تسيطر على ملحمة (انديميون) فانها توغل فى نفس الوقت وبنفس القوة فى اجواء الرومانسية التى تترامى فيها مرائى الطبيعة ومسارح الخيال فى المكنون والظاهر من جمالها . بالوقفة المتأملة عند هذه المرائى فى البرارى والحقول .. وفى المخارف والوديان . وفى الجداول والغدران . وفى الأزهار البريه . ومع اسراب الطير على الأشجار السامقه تمد ظلالها العميقة الممتدة على سطح البحيرة عند الفجر او عند الغسق .. فتمزج بين اساطير الاغريق فى الأولمب ، وبين هذه الطبيعة التى يسبغ عليها الفنان الوانا من مشاعره واحلاما من اشتغال وجدانه ، واطيافا من اشواق القلب المفتون بالحب والجمال .

****

ويبلغ عدد الأبيات التى استغرقتها ملحمة (انديميون) نيفا واربعة آلاف بيت ، نظم الشاعر أكثرها حين غادر لندن الى جزيرة (وايت) .. ولكن قبل ان يُتمَّها غادر الجزيرة ليصحب اخاه توم . وقد ظهرت عليه اعراض السل . الى كنتربرى . ومنها الى اوكسفورد . حيث عهد اليه رئيس تحرير صحيفة (تشامبيون) بعمل الناقد المسرحى

فى صحيفته . وهو العمل الذى كان يقوم به الشاعر (ماتيو رينولدز) وكان انتقاله الى اوكسفورد فى الشتاء .. فما كاد الربيع يخلع على الأرض حلله من سندس واستبرق وارجوان فى سنة ١٨١٨م حتى تدفقت شاعرية جون كيتس فيما يشبه اندفاع الشلال اذ كان يكتب فى كل يوم واحدة من قصائده الطويلة . الرائعة . ومن اروعهـا قصيدة (ايزابيلا) .

****

وكثيرة هى آراء النقاد فى شعر كيتس . وهذه الآراء لا تعفى بواكير انتاجه من النقد، بل هى لا تعفى (انديميون) من النقد اللاذع المرير الذى بلغ حد التجريح،ولكنها تقف مبهورة بعد موته . لتقرر انه العبقرى الذى قل ان انجبت مثله انكلترا . اطلت براعمها فى الخامسة عشرة من عمره . وتفتحت هذه البراعم فكانت انضر واجمل ازهار عبقت باريجها الحياة الأدبية فى عنفوان الرومانسية . ثم ما لبثت ان تحملت اشهى وانضج الثمار لترحل عن الحياة فى الخامسة والعشرين .. فى احفل سنوات العمر بتوفز مشاعر الحب ومشاغل القلب ورعشات الوجدان .

****

بعد ظهور ملحمة (انديميون) . وحين كان يفتح عينيه كل صباح على ما ظلت تنشره الصحف من مقالات النقاد تتناول الملحمة بالتقـريظ ولا تعفيهـا من تسقط الأخطاء وتتبع الهنات . وقد تبلغ حد التجريح . وقع جون كيتس فى غرام من يصفها احد كتاب سيرته بأنها : (مخلوق فاتن .. لها كل مرح الشباب . وكل نزوات المزاج المتقلب . والهوى الذى لا يستقر على حال . اشبه ما تكون بفرس حرون نزق . فى انوثة غزلة يستخفها العبث) فتشتعل نيران الغيرة فى قلب عاشقها لتحيل حياته الى حريق مدمر . لم يسترح منه الا بالموت . الذى اخترم تلك الحياة الخصبة . التى اضرم حب تلك الفتاة فى عطائها ما جعل قصائده الأخيرة تسطع بأضواء فن عبقرى فريد .

****

ولقد مات جون كيتس فى ايطاليا . وفى قلبه حب تلك الفتاة التى تزوجها وعاش

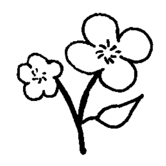
جحيم غيرته عليها ، وفى صدره مخالب السل الذى كان قد أصيب به منـذ الثانية والعشرين . والذى نجده يخترم حياة عدد كبير من الشعراء والفنانين فى ذلك العصر .

****

مما التفت اليه كبار النقاد ، فى شعر جون كيتس ، قدرته على التصـوير ، وعلى التصوير بالألوان اذ لا يكاد يصور منظرا من مناظر الطبيعة ـ وما اكثرها فى شعره ـ حتى يلتفت الى الألوان فى هذا المنظر ، وهو يلتفت اليها بنظرة رسام يبدع فى احساسه بها وفى ما يضفيه هذا الاحساس على كل لون من سحر وجمال .

****

كانت ملحمة (انديميون) من بواكير أعمال جون كيتس ، ومع ذلك فهى اضخمها واقواها وله من روائعه قصائد او مطولات ، منها (هيبريون) و(لاميا) و(ايزابيلا) التى لا يذكرها النقاد حتى نجدهم يقولون : (ليس كثيرا ولا من المبالغة فى شئ ان نقول : ان هذه الأعمال لجون كيتس ، كانت وستظل أجمل عمل شعرى حظيت به الدنيا من شاعر لا ندرى كيف كان يمكن أن يتفوق على نفسه لولم يمت فى الخامسة والعشرين) .



جين دي لافونتين

جين دى لافونتين ، شاعر فرنسى ، ادق ما يمكن ان يوصف به انه متعدد القدرات الفنية ، خصب العطاء ، ومتوفر الطاقة فى الانتاج ، حيث ضرب بسهم مقدور فى كتابة المسرحية ، وقصائد الهجو والسخرية ، الى جانب المقطوعات الشعرية الخفيفة . ولكن شهرته الواسعة وخلود ذكره فى تاريخ الأدب العالمى وفى الأدب الفرنسى على الأخص ، تكونت مما يسمى (أقاصيص قصيرة وجديدة) . وهى تعالج باسلوب تغلب عليه الخفة وشهقات المرح ومواضيع الحب يعمد فيها الى ما يشبه الغمز واللمز بالسخرية اللاذعة والنقد الضاحك ، ووراء الضحكة صعقة خاطفة يصعب ان ينسى لها الأثر العميق .. ومواضيع الحب هذه خفيفة مجنحة ، من شخصياتها المرأة ، والقسس ومراسم الزواج وحفلاته . ويكمن فى القصة التى تأخذ شكل حكاية ، السخر الضاحك ، يظهر فى العقدة التى ينسج حولها حكايته ومعها النكات الذكيه الساخنة تتلاحق ، الواحدة منها تلو الأخرى ، مع تلاحق الأحداث السريع النابض بالحيوية والى جانب هذه الشخصيات ، نجد الزوج الأحمق الذى تأكل قلبه الغيرة ، أو الزوج المغلوب على أمره الى حد البؤس مع الزوجة الخبيثة اللعوب ، او السليطة الوقحة ، كما نجد الانسان المرح الذى يبتكر المواقف الضاحكة والمقالب المحرجة ثم الانسان الفشوش او ما نسميه بالعاميه (الفشار) .. ثم شخصية المرأة غير المخلصة لزوجها ، والراهب الذى

ليس له من الرهبانية الا مظهرها بينا هو منغمس فى اشد المنكرات فحشا .

ولافونتين فى هذا العمل . يحرص على الاختصار فى الوصف والتحليل . ومع ذلك لا تملك الا ان تشعر بأن الشخصيات التى يصورها ويتحدث عنها موجودة تزدحم بها الحياة وقد تصادفها اينما حللت من هذه الأرض .. وهو يستهدف بتقديم هذه النماذج ، وبهذا الأسلوب المفعم بالسخرية والاستهزاء ، استنفار القارئ ضد مساوئ الخلق ، وانحراف السلوك ، ولكن دون ان يستعمل كلمة واحدة تحمل معنى النصح أو الوعظ .. يترك للصورة نفسها ان تقول ما يريد هو ان يفهمه القارئ ويعيه ..

وحكايات لافونتين ليست كلها نثرا . بل اغلبها منظومات شعرية قصيرة .. ما يزال الكثير منها مما لابد ان يحفظه عن ظهر قلب كل فرنسى ، اذ لا يخلو كتاب مدرسى فى مختلف المراحل ، من مختارات له الى جانب ما لا يزالون يختارونه لكبار شعرائهم امثال الفونس دى لامارتين ، وفيكتور هوجو ..

وأول ما ظهر من هذه الحكايات الشعرية ، وبهذه المضامين كان فى سنة ١٦٦٤م ومصادر هذا العطاء الثر من هذا النوع من الأعمال الأدبية عند لافونتين ، هى تلك الحكايات الشعبية التى تتناقلها الأجيال عن الأجداد والجدات ، يقصونها على احفادهم فى ليالى الشتاء، وقبيل ساعات النوم ، وهو لم يكتف بما هو متداول ومعروف فى فرنسا ، وانما ظل يتسقط ما يسمعه فى مختلف بلدان أوروبا كلها ، ثم لم يكتف بذلك ، بل اخذ يستمد عناصر موضوعاته او حكاياته من اساطير الشرق ، كالفرس والهنود والصينيين . ثم توسع فاضاف اليها ما كان متداولا من اساطير الاغريق والرومان وهذا الى جانب الجديد الذى ربما كان يظهر هنا وهناك فى عصره ، وقد يكون البعض من وضعه او مما يؤلفه آخرون ولا يدون او لا يعنى احد بتدوينه فى فرنسا .. ومع ان النقاد يجمعون ، على ان الكثير من مواضيع هذه الحكايات كان يتسم بنظرة تشكيك على جانب من الخطورة فى الكثير من مألوف معتقدات الناس ، فان اسلوب لافونتين ، الذى كان يتميز بالبساطة والعفوية ، وبالبدائية التى تبدو كأنها منبثة من وجدان الطبيعة فى طفولتها .. هذا الأسلوب جعل هؤلاء النقاد يجمعون ايضا على ان لافونتين

كان وما يزال اعظم قاص للحكايات والخرافات والأساطير التى يكمن فيها مضمون معين يجعلها ذات اثر توجيهى بالنسبة للنشء وعلى الأخص فى مراحل الطفولة والصبا .

****

ولد (جين دى لافونتين) عام الف وستمئة وواحد وعشرين وتوفى عام الف وستمئة وثلاثة وتسعين . فى شاتوتييرى من اسرة تنتمى الى طبقة النبلاء .. وكان ابواه يتمنيان ان يتجه الى دراسة اللاهوت ولعلهما قد حاولا أن يحققا امنيتهما . ولكن طبيعة لافونتين اللاهبه سرحت به الى بارس . حيث وجد فيها تلك الأفلاك المشعه من اكابر رجال الفن والأدب امثال (بوالو) و (راسين) و (موليير) .. وحيث اتيح له ان ينضم اليهم وان تنعقد له مع كل منهم الصلات والصداقات الحميمه .. ويبدو انه كان من الطبيعى ان تتقرر له عند هؤلاء الأعلام شخصية متميزه لأنه بدأ نوعا من الأعمال الأدبية يختلف كليا عما عرف به العباقرة الآخرون . وهو (الحكاية) الخرافية او الأسطورة على السنة الحيوانات او غيرها من المخلوقات التى لم يسبق للأدب الفرنسى ان كان له فيها متخصصون او حتى معنيون بالنظر اليها اكثر من انها (حكايات) شعبية ليس فيها ما ينسجم مع رسالة الأديب الكبير . ومستوى الأدب الرفيع .

وبعد (الأقاصيص القصيرة الجديدة) التى سبق ذكرها توالت حكايات لافونتين .

****

وأخذت حكايات لافونتين تظهر بعد كتابه الأول ببضع سنوات واغلبها على السنة الحيوانات . وقد بدا فيها مقلدا للطريقة التقليدية التى عرف بها الكاتب الاغريقى (ايسوب) الذى كتب هذه الأساطير فى العام السادس قبل الميلاد والذى لا يعرف عنه مؤرخو الأدب العالمى الا القليل . ويبلغ ببعضهم الأمر حد الشك فى انه قد وجد اطلاقا . ويذهبون الى انه من الشخصيات التى نحلها الاغريق هذه الحكايات فى العصور الحديثة بالنسبة لتاريخهم الممتد . بغرض جمع حكاياتهم الشعبية ونسبتها الى مؤلف اخترعوا له هذا الاسم . ومع ذلك فان المؤرخ الاغريقى المعروف (هيرودوتس) يذكر (ايسوب) ويقول : إنه كان عبدا يعيش فى (ساموس) فى القرن السادس

قبل الميلاد . وانه قد لقى حتفه فى دلفى حين ابتعثه ملك (ليديا) بعد ان اعتقه سيده من الرق . وايا كانت الحقيقة عن ايسوب هذا . فان قدماء الاغريق يجمعون على ان جميع اساطيرهم التى عرفها تاريخهم قد الفها ايسوب ، وانه هو الذى أسس او ابتدع هذا النوع من الأدب او العمل الفنى .

ولم يأخذ النقاد على جين دى لافونتين هذا التقليد او المحاكاة . من ناحية الشكل لأن المضمون فى حكايات لافونتين كان جديدا على الأدب من جهة . ولأن اسلوب لافونتين ، كان ـ كما سبق ان قلنا ـ يمتاز بذلك المرح . والدعابة والسخرية الضاحكة اللاذعة . ولأن هذه الحكايات ، كانت تجد الترحيب والاقبال لما يتوفر لها من القدرة على امتاع القارئ فى مختلف مراحل العمر .. فالأطفال مثلا يجدون فيها القصة النابضة بالمفاجأة والحيوية مع الآداء الفنى الذى يزودهم برصيد ثمين من المعانى والمفردات تمكنهم من القدرة على التعبير . والكبار لا يعدمون المتعة الفنية فى طريقة نظمه للقصة . وحبكه للعقدة . مع طلاوة الأسلوب وعفوية المعانى وبساطة الآداء مع التتبع الدقيق للتفاصيل التى تكشف عن دقة الملاحظة فى التصوير .

****

ومع ما لقيته اساطير لافونتين من التقدير والذيوع والانتشار فليس من يقول من نقاده أنه المتفرد بها او انه اول من ابتكرها . اذ هى كما سبق القول مجموعة حكايات من مصادر مختلفة . وحتى مع استبعاد تأثره او محاكاته لأيسوب الاغريقى ، فان (حكايات كانتربرى) لتشوسر وهو الذى ابتدأ به تاريخ الأدب باللغة الانجليزية قبل اكثر من خمسمائة عام . وقصص (دى كاميرون) لجيوفانى بوكاشيو الايطالى ، لا تختلف كثيرا عن حكايات لافونتين . وان كانت قصص (دى كاميرون) اكثر اهتماما بقضايا الحب وهى اقرب الى القصة القصيرة . او لعلها بين القصة القصيرة والرواية ، وهذا الى جانب ما امتاز به جيوفانى بوكاشيو من عنايته بجوانب أخرى من الأعمال الأدبية ومنها كتابته سير (دانتى) وعلاقته بـ (بترارك) شاعر الأريستوقراطية الايطالية فى القرن الثالث عشر .

كتاب (البخلاء) للجاحظ

والجاحظ هو هذه الشخصية التى ما تزال تعيش فى ذهن كل اديب عربى . يعرف سبيله الى جواهر التراث . وأغلى معادنه . واوفرها قدرة على شد العود . وتقويم الكيان الفكرى باداته الأولى والأهم وهى البيان المبدع ليس بفصاحته وسلامته من أخطاء اللغة وأخطاء النحو والصرف فحسب . وانما التفنن فى اصطياد المعانى الشاردة . ثم فى ادائها ، ذلك النوع من الاداء . الذى يجعلك ترى الصورة وأنت لا تراها ، وتشعر بوزنها فى نفسك وأعماق مشاعرك . بينما هى أخف على القلب من أنفاس الطفولة البريئة فى جوٍّ الرضاع .

وحديثنا الآن ليس عن الجاحظ نفسه وانما عن كتابه . (البخلاء) . وقد لا يهم أن يعرف . من الذى عنى بطبعه لأول مرة . وعن أى النسخ تمت الطباعة . ثم الطبعات الجديدة للكتاب بعد طبعته الأولى . وعن جهد التحقيق فى هذه الطباعة ومنهج هذا التحقيق .. قد لا يهتم القارىء بشىء من هذا ولكن قد يدهش . وتحفزه الدهشة . الى الحركة النابضة . بحثا عن الدفين والضائع من هذا التراث فيعنى بطبعه وتحقيقه فيلقى بذلك المزيد من الضوء على التراث .. قد يدهش حين يعلم . أن أول من عنى بطباعة كتاب البخلاء للجاحظ هو المستشرق الألمانى (فان فلوتن) فى عام الف وتسعمائة . ويزداد دهشة حين يعلم أن هذا الكتاب قد ترجمه الى الفرنسية الأستاذ (شارف بيلا) وقامت بطبع الترجمة ونشرها منظمة (اليونسكو) ..

ولعل خير من يصف أو يتحدث عن مضمون كتاب البخلاء هو الجاحظ نفسه اذ يقول : (ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء . تبين حجة طريفة .. أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة .. وأنت فى ضحك منه اذا شئت ، وفى لهو اذا مللت الجد) .

والتفاتات الجاحظ ، التى تؤكد غزارة علمه ، واتساع فهمه ، وحدة ذكائه اكثر من أن يستوعبها مثل هذا الحديث عنه أو عن كتابه .. ولكن قد يذهلنا أننا نسمع منه رأيا عن بكاء الطفل ، لا يختلف فى شئ عن آراء المحدثين من أطباء الأطفال وعلماء التربية ، وعلماء النفس . فهو مثلا يقول عن بكاء الأطفال : (قال بعض الحكماء لرجل اشتد جزعه من بكاء صبى له . « لا تجزع ، فانه ـ ويعنى البكاء ـ افتح لجرمه ، واصح لبصره » ثم يمضى على طريقته فى الانتقال أو الاستطراد الذى يسرق ذهنك ، من حيث لا تشعر ، فاذا به بعد أن تحدث عن البكاء والبكائيين ، الى الحديث عن الضحك .. فيورد الحجة تلو الحجة من المعقول والمنقول على فوائده ، واضرار البكاء فنجده يقول ، (الضحك أول خير يظهر من الصبى ، وبه تطيب نفسه . وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته . ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وبسام ، وبطلق .. وبطليق ..)

وأما عن نوادر البخلاء وما يحتجون به لأنفسهم وطبائعهم من الحجج ، على من يعيبون عليهم البخل ، فذلك ما لن نفيد القارئ شيئا اذا اكتفينا بالاشارة ، اليه أو حتى بالمثال له كما لن نفيده شيئا اذا ذهبنا نوغل فى الكثير الذى يتدفق به الجاحظ من الملح والطرف ، وفى كل منها الكثير من العلم الذى عرف فى القرن الثالث من الهجرة أى منذ أكثر من الف ومئتى عام ..

فسهل بن هارون مثلا . يحتج على الذين عابوا عليه أن يقول لغلامه . (اذا زدت فى المرق فزد فى الانضاج لنجمع بين التأدم باللحم والمرق) بالحجة التى لا قبل لهم بالصمود أمامها وهى : (قد قال النبى صلى الله عليه وسلم . اذا طبختم لحما فزيدوا فى الماء ، فان لم يصب أحدهم لحما أصاب مرقا ..) وبمثل هذه الحجة يحتج على من عابه بخصف النعال وتصدير القميص (أى رقعه) فيقول : (وقد كان النبى صلى الله عليه

وسلم يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول : لو أتيت بذراع لأكلت ، ولو دعيت الى كراع لأجبت ..)

كلا لن نفيد القارىء شيئا ذا بال مهما تحدثنا عن الجاحظ وبخلائه ، وانما الذى يفيده حقا أن يقرأ الكتاب . قراءة درس واستيعاب وهضم ، ولن يعسر ذلك عليه اذا كان يتطلع الى أن يستمتع بالجواهر الغوالى فى تراثنا العربى العريق ..



أبو حيان التوحيدي

يقتعد أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، الجاحظ أشد القمم سموقا بين اعلام النثر وائمة البلاغة والبيان فى الأدب العربى ، ويندر أن تجد بين النقاد والدارسين من يرضى له بدرجة أدنى ، من الطليعة بين هؤلاء الأئمة والاعلام ، ليس فقط ببيانه وتبيينه ، وحيوانه وبخلائه ، والكثير من كتبه ، ككتاب اللصوص ، وكتاب المعلمين ، وكتاب الجوارى ، ومن رسائله ، كرسالته فى ذم النبيذ ، ورسالته فى النرد والشطرنج ، ورسالته فى القضاة والولاة ، وانما بما استطاع أن يشيعه فى كتبه ورسائله من خفة الظل ، ولطف المأخذ وحسن التناول ، الى جانب ذلك الاطلاع الواسع والعلم المتمكن بأكثر المعارف فى العصر الذى عاش فيه ، بحيث لا يسعك وانت تغوص فى بحره ، الا أن تذهل متسائلا ، كيف أتيح له أن يختزن كل ما اختزنه من هذه المعارف التى يمدك بها بسخاء ويعلق عليها بذكاء ، وليس بما يدخل فى باب الطرفه العابرة واللمحة السائرة الطائرة ، وانما بما يشبه التقرير العلمى والتوثيق المنهجى الدقيق .

ولكن حين نحسب للجاحظ كل هذا لابد لنا ان نحسب عليه رصيدا ضخما من (حسن الحظ) ونصيبا موفورا عاليا من الذكاء ، مكنا له من نفوس عشاق الأدب ونقاده فى عصره ثم فيما بعد عصره ، وعلى مر العصور حتى اليوم .

ونقول : (حسن الحظ) لأن أسلوب الجاحظ رغم جزالته وفخامته ، ورغم انطلاقه وبعده من التكلف والصنعه ، وعلى تدفقه القوى من مناهل اللغة الثرة ... هذا الأسلوب

حين يعتبر متطورا فريدا فى عصره . فانه يظل بعيدا عن مستوى ذلك التطور الذى بلغه النثر فى القرن الرابع . حيث ازداد تعقيد الحياة العربية . وتعـددت مطالبهـا واتسعت آفاقها وتنوعت تبعا لذلك الأغراض التى يتأتى للكاتب أن يعالجها ليس فقط بما كان يطرأ من الأحداث السياسية على هياكل الحكم . وانمـا فيما استتبعتـه هذه الأحداث من تكاثر الروافد الفكرية . بحكم اتساع رقعة الدولة وامتداد ظلها الى ما لم يسبق ان امتد اليه فى العصرين الأموى والعباسي الأول . مما استلزم بطبيعته تطور الكاتب . وتطور النثر . بحيث يساير واقع الحياة ويواجه ما ظهر فيها من تحديات .

ومع ان كبار أدباء النثر فى القرن الرابع . ظلوا وراء الراية التى رفعها الجاحظ اماما وعلما . بل ومرجعا يحتج بارائه النقاد . فان مستوى التطور فى النثر الذى بلغه هؤلاء فى القرن الرابع . يعتبر اكمل نماذج التطور التى أكدت قدرة اللغة وأساليب البيان على تناول مختلف المطالب ومواجهة مختلف التحديات . بحيث يمكن القول ان تلك النماذج ما تزال حتى اليوم هى النماذج التى لا تجد كاتبا لا يتأثر بها أو يتطلع إلى بلوغ مستواها الرفيع . ولعل مما ينبغى أن يدركه عشاق الأدب والمتطلعون الى التخصص بأسلوب يميزهم بين أساليب العصر . هو ان اعلام الأدب من امثال العقاد والمازنى والدكتور طه حسين واحمد حسن الزيات . حين قدموا هذه النماذج المتطورة من أساليبهم فيما عالجوا من فنون الأدب وأغراضه . لم يفعلوا فى الواقع اكثر من بعث واحياء أساليب اعلام النثر العربى القدماء . وعلى الأخص منهم أولئك الذين تطور النثر على أيديهم فى القرن الرابع . ومنهم شخصية (أبو حيان التوحيدى) الذى نتحدث عنه .

****

وأبو حيان التوحيدى . كما عانى من خمول الذكر وجفوة النقاد وتجاهل أو اعراض الدارسين عنه فى حياته . فقد ظل يعانى كل هذا طيلة العصور بعده . وحتى اليوم اذ ما أقل ما عنى اعلام النقد ومحققو كتب التراث . بدراسته واظهار مدى التكامل الفنى فى أسلوبه الذى يضعه عن جدارة فى مقدمة اعلام النثر فى الأدب العربى حتى بالنسبة للجاحظ الذى يعترف له أبو حيان بالأستاذية والتقدم والفضل ..

والسر في تجاهل ابى حيان ، كما يبدو ، هو ان الرجل قد نشأ ـ كما يقول الدكتور زكى مبارك رحمه الله فى كتابه : (النثر الفنى فى القرن الرابع) ـ (نشأ فى بيئة خاملة وهو رجل خلقته البأساء ، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه) .

ثم يقول : (لا تسأل متى ولد ولا أين ولد ؟..ويكفى أن تعرف انه فارسى الأصل وانهم ترددوا فى نسبته الى اواسط نيسابور او شيراز ، وانه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس) .

****

قالوا : كان أبوه يبيع نوعا من التمر يسمى (التوحيد) ولهذا لقب (بالتوحيدى) وان كان هناك من يعلل اللقب ، بأنه كان من المعتز له (أهل العدل والتوحيد) ولنا أن نتساءل ، عن علاقة نشأته فى بيئة خاملة ، بخمول ذكره ؟ اذ ما اكثر ما نجد فى الأدب العربى من الاعلام !، من لم تكن له البيئة التى تساعد على اشتهار الذكر وبعد الصيت،ومع ذلك فقد ملأت شهرته الآفاق ، وما نزال نشهد فى دنيانا ، الكثيرين الذين بلغوا أرقى مراتب الشرف فى مختلف مجالات الحياة ، وقد نشأوا فى الأصل فى بيئات خاملة أو على الأقل ، فى بيئات لم يكن فيها ما يؤهل أو يمهد لما حققوه من تفوق وتقدم دخل بهما بعضهم ابهاء التاريخ من اوسع الأبواب .

ولذلك قلنا ان نتوخى سببا آخر لخمول ذكر التوحيدى ، ولن يطول بنا البحث اذ نجد فى حياته ظاهرة يندر أن يبتلى بها مخلوق الا وكانت سببا فى تاريث العداوة والبغضاء عليه ، وتكريس الجفوة والنفور ضده ..

****

والظاهرة التى نعنيها هى ما عرف به التوحيدى من طبيعة الحقد على الموسرين واصحاب الجاه والسلطان ، ممن يشعر انه لا يقل عنهم علما وأدبا ، وسعة اطلاع وعلم ، أو يشعر انه يفوقهم ويسبقهم فى الكثير مما رفعهم الى مراتب الوزارة ، فى عصر كان فيه هؤلاء الوزراء يتمتعون بما لا يتمتع به الخليفة نفسه من نفوذ وجاه وثراء وسلطان .. والأرجح الى جانب هذه السجيه فى نفسه ، أنه حرم سراوة السمت ، وجمال وقوة المظهر

التى تأخذ العيون ، وتملأ النفوس وكثيرا ما تحمل على الاهتمام والثقة ..

وليس لدينا ما يغنى فى معرفة تاريخ نشأته أو المراحل التى قطعها ليبلغ هذه المرتبة من التفوق فى العلم والأدب ، التى جعلته يشعر بحرمانه من الحياة الناعمة التى يحياها من يعدهم اقرانه علما وأدبا ، أو يعد نفسه من اقرانهم ، ولكن لابد لنا ان نفترض ان فى نشأته ما اعانه على الدرس والتحصيل ، اذ ليس مما يتفق ومنطق الأشياء ، أن يتوفر لأحد ما توفر له من الثقافة العالية ، دون ان يجد من ظروف نشأته ما يساعده على الانكباب على الدراسة ، وعلى الجلوس الى الاعلام من العلماء والأدباء الذين نجد لمحات عن جلوسه اليهم ، ومنهم الفقيه ابو حامد المروذى ، وعالم المنطق يحيى ابن عدى ، والفقيه أبو بكر الشاشى ، والنحوى أبو سعيد السيرافى ، واللغوى على ابن عيسى الرمانى .

****

يقول الدكتور زكى مبارك ، فى كتابه (النثر الفنى فى القرن الرابع): ، (ان نبوغ أبى حيان يرجع الى حقده وثورته على الحياة والأحياء وان تلك الثورة شبت فى مفتتح حياته ومستهل صباه ، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد ، وما كان يجرى بين ايديهما من اسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائه حينا ثم تحول الى ظلال ابن عباد ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينقع غلته ويطفىء صداه .. هنالك انفجر بركان غضبه وتحول الى اتون مستعر يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد .)

ونحن نرى ، ان الدكتور زكى مبارك ، يرجع الى الحقد نبوغ ابى حيان ، وليس هذا مما يمكن ان يقبل دون مناقشة وتفنيد ، اذ ما الذى يجعله يحقد على ابن العميد والصاحب ابن عباد ؟ ، لم يكن يشعر انه لا يقل عنهما نبوغا ، وان ما لديه من العلم والأدب يؤهله لأن يكون اقرب منهما الى ما كانا ينعمان به من جاه وثراء .. فالنبوغ اذن ليس نتيجة للحقد ، وانما هو سبب ومقدمة .. كان نابغا ، وكان على ثقة بالغة بهذا النبوغ ، وكان يرى أن هذا النبوغ لابد ان يفتح امامه ابواب الجاه التى فتحت لهما ..

فلما واجهاه بالاهمال ، واحس عندهما بعدم العناية والاحتفال ، ادرك انهما ظلماه حقه ، وانتقصا من قدره ، فانفجر بركان غضبه وتحول - كما يقول الدكتور زكى مبارك - الى ذلك الأتون المستعر يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد .

****

والبركان الذى يعنيه الدكتور زكى مبارك ، هو كتاب ابى حيان (مثالب الوزيرين) : (ابن العميد والصاحب بن عباد) .. وبغض النظر عن كل ما نجده فى هذا الكتاب من نيل من شخصية الوزيرين الكاتبين ، فان اسلوب ابى حيان فيه ، عمل فنى قل ان تجد له مثيلا ، الا فى كتبه الأخرى .. صحيح انه قد اسرف فى التشنيع عليهما ، وصحيح انه قد بلغ من هذا التشنيع ، ابعد غاية ، الا أن ذلك حين يتصل بالخلق والفضائل ، فيظهره فى اهاب الحاقد الساخط ، لا يمنع ان يظل جديرا بالتقدير والاحتفال كنموذج من نماذج النثر فى موضوعه وغايته ، ولا يختلف النظر من هذه الزاوية الى الجانب الفنى فى الكتاب ، عن نظرنا فى روائع شعر الهجاء ، التى لا نملك الا الاعجاب بها ، وتقدير مكانة شعرائها ، رغم كل ما نجده فى الشعر من إقذاع وفحش وايذاء .

****

كان ابو حيان ، يحترف (الوراقة) ، وهى (نسخ الكتب) ، التى لم تكن هناك من وسيلة لنشرها وتداولها الا نسخها ، يقوم به من يرتزق من العمل ببيع ما ينسخ لمن يشترى ويقتنى هذه النسخ ، وقد يرتزق منه بأن ينسخ ما يؤجر على نسخه من مقتنيات الموسرين والوجهاء ، وقد كان سبيله الى الارتزاق هذه الوراقة ، التى يبدو انه قصد ابن العميد وهو يطمع فى التخلص من عنائها ، فاذا بناظر كتبه ، يقدم له ثلاثين مجلدة من رسائله وهو يقول له : (يقول لك مولانا .. انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان ..) وما اكثر ما تفنن التوحيدى فى الحديث عن ابن العميد ! وما اقذع ما هجاه به من المثالب ! التى، ان لم تكن مما اتصف به الرجل ، فان ابتكارها ، وخلعها على ابن العميد ، يعتبر فنا من فنون القول يدل على اصالة الكاتب وقدرته على التلوين

والابداع .

يقول عن الصاحب ابن عباد . ولم يكن حظه معه خيرا من حظه مع ابن العميد .. (ما ذنبى اكرمك الله اذا سألت عنه مشايخ الوقت واعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان .. على انى قد سترت كثيرا من مخازيه . اما هربا من الاطالة او صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفضائح . وذكر ما يسمح مسموعه ويكره التحدث به سوى ما فاتنى من حديثه فانى فارقته سنة ثلاثمئة وسبعين) .

ويصف الصاحب بن عباد فيقول : (قلت ان الرجل كثير المحفوظ .. قد (نتف) من كل ادب خفيف اشياء . واخذ من كل فن اطرافا . والغالب عليه كلام المتكلمين . وهو حسن القيام بالعروض والقوافى .. ويقول الشعر . وليس بذلك ..

****

وفى رده على من اخذ عليه النيل من خصومه والتعرض لهم بالأذى يقول : وقد قدم كتبه ظعمة للنار :

(فان قلت ولم تسمهم بسوء الظن وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟؟ فجوابى لك .. ان عيانىَ منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات .. وكيف اتركها؟(يريد الكتب التى حرقها) .. كيف اتركها لأناس جاورتهم عشرين سنه؟فما صح لى من احدهم وداد . ولا ظهر لى من انسان منهم حفاظ .. وقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة . فى اوقات كثيرة الى اكل الخضر فى الصحراء . والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة .. والى بيع الدين والمروءة .. والى تعاطى الرياء بالسمعه والنفاق . والى ما لا يحسن (بالحر) ان يرسمه بالقلم . ويطرح فى قلب صاحبه الألم . واحوال الزمان بادية لعينك . بارزة بين مسائك وصباحك) .

****

ومع ان حادثة اقدامه على حرق كتبه ثابتة بدليل ما كتبه تعليلا لها . فان ما يبدو انه بقى من هذه الكتب التى تناقلها النساخ واحتفظوا بها . ليس بالقليل اذ نجد من مؤلفاته : الهوامل والشوامل . وهو أسئلة ذكية وعميقة يوجهها ابو حيان ويجيب عليها ابو

على بن مسكويه ، الذى اولع التوحيدى بمهاجمته ، ورماه بأنه : (يمدح الجود باللسان ، ويؤثر الشح بالفعل) . وكان فيما يبدو قد زامله وخالطه زمنا فى خدمته لابن العميد ، ثم كتاب مثالب الوزيرين ، الذى خصصه للكلام عن ابن العميد والصاحب ابن عباد ، بما شفى غلته من الحقد عليهما والرغبة فى الحط من شأنهما ، رغم كل ما عرف لهما من الفضل .. ومن كتبه التى طبعت فى هذا العصر : كتاب الامتاع والمؤانسه ، الذى ضبطه وحققه الأستاذ احمد أمين والأستاذ أحمد الزين،وفيه نقلا عن القفطى : انه (كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة) .. وهو كتاب يجيب فيه ابو حيان على أسئلة احد الوزراء ، فى الكثير من المواضيع التى كانت تشغل اذهان القوم فى عصره ، ويقول الأستاذ احمد امين : (انه اشبه شئ بألف ليلة وليلة) .. (ولكنها ليست ليالى اللهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام .. انما هى ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء ، اذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلسفة ، كما يتعرض لمشاكل البلغاء) .. ثم يضيف الأستاذ أحمد أمين : (فان كان كتاب الف ليلة وليلة يصوِّر أبدع تصوير الحياة الشعبية فى ملاهيها وفتنتها وعشقها .. فكتاب الامتاع والمؤانسه يصور حياة الاريستوقراطيين ارستوقراطية عقلية .. كيف يبحثون ، وفيم يفكرون) ؟ ومن كتب ابى حيان التى طبعت فى هذا العصر ، المقايسات .. وهى مذكرات كان يكتبها بعد الجلسات التى كان يعقدها مع الأدباء والمفكرين والأعيان .. فهى مجموعة من الموضوعات المختلفة فى الأمور التى يهتم بها أهل عصره .. ومن كتبه التى سلمت من الحرق ، وقد طبعت فى هذا العصر ، كتاب باسم (رسالة فى الصداقة والصديق) التى يصفها الدكتور زكى مبارك بأنها رسائل وجدانية وهى تمثل شخصية الأديب الرائعة وهى الجانب الأقوى من نفسيته ..) ثم يضيف الدكتور زكى مبارك : (والجانب الوجدانى من التوحيدى تكون ونشأ فى هجير الفاقه والبؤس ومعاناة الأيام .. ولا تراه يجيد كما يجيد حين يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه وتبكى لشكواه حين تراه يقول :

« اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت .. واصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا

تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم .. »

ثم يقول الدكتور مبارك : (والصور التى يقدمها التوحيدى تمر غالبا على انها احاديث فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته اتم افصاح وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنى اللغة ، قوى الخيال ، يحيط بالمعنى من جميع اقطاره ، احاطة بالغة لا يند منها شئ) .

****

انقطع ابو حيان بعد حرق كتبه لقلة جدواها ـ كما قال فى معجم الأدباء ، وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته .. انقطع عن الكتابة الى عبادة الله فى احد ربط شيراز حتى العام الرابع عشر بعد الأربعمئة ، حيث نزعت نفسه نزعا يوحى بدنوا اجله فهرع اليه من فى الزوايا والربط من شيوخ ومريدين يودعونه الوداع الأخير ويكثرون من ذكر الله سائلين له اللطف والعفو ، ويذكرونه بالاستغفار والانابه .. فاذا به يرفع رأسه ، وقد اثقلته سكرات الموت فيقول : (اترونني اقدم على جندى او شرطى ؟؟؟ انما اقدم على رب غفور ...)

****

مرت قرون من الدهر ، وابو حيان التوحيدى ، شخصية لا يحتفل بها أحد ، ولا يتفرغ لدراسة ادبه ونقده دارس او باحث .. ومع ان الكلمة الأخيرة عن ادبه ومكانته بين اعلام النثر العربى لم يقلها احد من النقاد بعد ، فان ما طبع من كتبه فى هذا العصر ، وما ظهر من دراسات لسيرته وآثاره ، وعلى الأخص ما كتبه الأستاذ احسان عباس ، وقبله الأستاذ ابراهيم الكيلانى ، فى رسالتين كل منهما بعنوان (ابو حيان التوحيدى) .. إيذان بأن هذا الأديب الكبير من اعلام الأدب يمكن ان يجد فى هذا العصر من التقدير ما لم يجده فى حياته او بعد مماته طيلة اكثر من الف عام ..

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي

من الظواهر التى تسترعى الكثير من الانتباه ، وقد تبدو طبيعية ، وان كانت لا تستغنى عن التأمل والدرس ، ان الفترة التى تقطعت فيها الامبراطورية العباسية الى عدد من الامارات ، وكل منها تتمتع بشبه استقلال ذاتى لا ينقص منه الا الارتباط الاسمى بالخليفة فى بغداد .. ومثلها تلك الفترة التى تمزقت فيها الخلافة الأموية فى الأندلس ، وتعددت فيها الامارات ، وكل امارة تتمتع هى أيضا بما يشبه هذا الاستقلال .. ان الأدب ازدهر ونما النمو الذى لا نزال نعيش ثراءه وعطاءه عندما نعود الى انفسنا فى محاولة للبحث عن اللغة العربية ومقوماتها ومـادة تكوينهـا الروحـى ، فكرا ، وفنا ، وسلطانا واسعا فى العلوم من فلك ورياضيات وطب وهندسة ، ورواقا ممتدا يقل نظيره فى تراث الأمم ، فى الأدب ، والشعر منه على الأخص .

ظاهرة قلنا انها تبدو طبيعية ، ولها ما يشبهها فى حياة بعض الأمم ، كألمانيا التى ازدهر فيها الأدب وظهر فيها الاعلام فى الشعر والمسرحية ، مثل جوته وشيلر ، والاعلام فى الموسيقى ، بل وفى الفلسفة ومختلف قضايا الفكر، قبل ان تتحد اماراتها. والسبب هو ان كل امارة كانت تحرص على ان تستكمل أو تستزيد من سلطانها وعنفوانها وابهة مظاهرها ، وكان يزدهيها ان يتلألأ الى جانب ما يتلألأ من الصولة والصولجان ، والعرش والديوان ، أولئك الاعلام من الشعراء والكتاب ، والفحول من العلماء والعباقرة من الفنّانين .

وابو على الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى .. واحد من هؤلاء الاعلام الذين احتضنهم بلاط (المعز بن باديس الصنهاجى) حاكم المغرب فى المئة الرابعة بعد الهجرة ، وفى الفترة التى كان الفاطميون يحكمون فيها مصر ، وما يزال للعباسيين سلطانهم على دويلاتهم فى بغداد وسوريا أو حلب بالذات . فكان من الطبيعى ، ان يزدهى بلاط بن باديس بمثل من يزدهى بهم بلاط غيره من الملوك فى تلك الفترة من تاريخ الامبراطورية العربية ، التى تمتد من السند الى اسبانيا ، على ما تعانيه فى الداخل من انقسام وتنازع وتناحر ليس مما يستغرب ، ان نرى اثره ما يزال باقيا فى القرن العشرين .

****

وابن رشيق ، ينسب نفسه الى القيروان لأنه ولد فى احدى مدنها او قراها الكبيرة التى تسمى (مسيلة) .. على بعد اميال من تونس .. ثم يضيف الى ذلك انه (الأزدى) ويقول المؤرخون ، ان اباه رومى من موالى (الأزد) والأزد كما هو معلوم قبيلة عربية لها البطون الأربعة المعروفة بأزد عمان ، وازد السراة فى اليمن ، وازد شنوءة من نواحى اليمن ، وازد غسان . وقد وجد من عرض بانتسابه الى الأزد ، وذكره بأن اباه رشيق مولى من الموالى ، فقال ابن رشيق :

اما ابى فرشيق لست انكره   قل لى: أباك وصيره من الخشب

ثم يقول : (ما ابغى به ابا ، ولا ارضى بمذهبه مذهبا .. رضيت به روميا ، لا دعيا ولا بدعيا) .

ويذكرنا ابن رشيق بأمير الشعراء أحمد شوقى ، الذى قيل أنه ـ وقد نشأ ـ فى قصر اسماعيل ، وكان مصابا بالحول ، فعولج ، بالقطع من الذهب توضع بين يديه يلهو بها ، ويديم النظر اليها الى ان استقامت نظرته وذهب حوله .. فقد كان رشيق الذى يفخر به ابنه يشتغل بصياغة الذهب ، ولم يكن مصابا بالحول كأحمد شوقى ، ولكن صياغة الذهب عمل يحتاج الى كثير من الاتقان والتفنن والدقة ، وسمو الذوق ، حتى ليمكن ان يعد بعض الصاغة الكبار فنانين عباقرة اذا رأينا روائع مما ابدعوه من التحف للنحور

والصدور ، وللآذان والمعاصم والرسوغ .. فلا عجب ان نرى الابن ، وقد اتجه الى الأدب ، دارسا وناقدا ومبدعا وفنانا ، يبلغ من الدقة فى النظر ، والرهف فى الحس ، والعمق فى التتبع ما يشبه به صائغ الذهب المبدع الفنان .

****

وعلى جارى العادة فى الاختلاف عند ذكر تاريخ مولد المترجم له او تاريخ وفاته بين اعلام الأدب العربى ، فهناك اختلاف بين المؤرخين على تاريخ ميلاده وعلى تاريخ وفاته ولكن الأرجح ، انه ولد فى عام ٣٩٠ من الهجرة .. أى ان بيننا وبين يوم مولده عشرة قرون ، فما اعجب وما اعظم ان يزدهر الأدب العربى هذا الازدهار ! قبل الف عام وان يعيش هذا العمر الطويل .. وما تزال تتدفق فيه عناصر الحيوية المبدعة التى لا اشك ان من يجد الوقت لتتبعها واستلهام شواردها ، يستطيع ان يعيد الى الأدب العربى من عناصر الحياة اكثر كثيرا مما نتوهم ان آداب اللغات الأخرى التى ما يزال الاهتمام بها والمحاولة الفاشلة للتأثر بها ، تستغرقنا فى مستنقعات يجدر بقادة الفكر والأدب ان يتصدوا لانتشال الجيل الصاعد منها ، اذا كنا نريد للذات العربية ان تجد نفسها ، وان تشعر باستقلالها الفكرى وبالأدب الذى يردد صداه العالم ، كما لا يزال يردد صدى الأمهات من تراثنا العريق .

****

وهناك ما يرجح ان ابن رشيق قد توفى فى عام اربعمائة وستة وخمسين للهجرة ، فكأنه قد عاش ستة وستين عاما .. وهو عمر طويل نسبيا كما نرى ، لابد ان يكون قد امتلأ بالكثير من المؤلفات فى فنون من الأدب والبلاغة ، او فى غيرهما ، ويقول الأستاذ عبد الرؤوف مخلوف ، الأستاذ المساعد بالمعهد العالى الفنى بالقاهرة ، والذى نال درجة الماجستير على بحثه عن ابن رشيق ، انه قد احصى له ما يزيد على ثلاثين مؤلفا ، ولكن لم يصل الينا ، ولم يبق له مما يضعه فى صفوف الاعلام من مؤلفى الأمهات من التراث ، إلا كتابه ـ الذى سماه ـ (العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده) .

وليس من شك فى ان ظهور كتاب العمدة لابن رشيق فى أيامه قد اثار عليه الكثيرين من حاسديه ، وممن يهتم بذوقه وحسن تناوله وبراعة التفاتاته الى منابع الحسن ومناهل البلاغة فيما عالج من فنون الفصاحة والبيان . ولعله قد احيط به بالطعن والانتقاص وتهم النقل والاختلاس ، فالتفت اليهم التفاتة من يعرف اين هو من هذه الصفوف ؟ واين ينبغى لمثله ان يقف من تلك القمم والذرى ؟ فكان مما قال (وكم فى بلدنا هذا من الحفاث (وهو الحية التى تنفخ ولا تؤذى) قد صاروا ثعابين .. ومن البغاث قد صاروا شواهين .. ان البغاث فى ارضنا يستنسر) . ثم يقول وكأنه يدرك قيمة كلمته لو ذكرهم ، (ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعد خطله ويحصى زلله ، لذكرت من لحن كل واحد منهم ، وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه ، ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا) ..

****

ولعمرى .. ان ابن رشيق ، وهو يصف فن الحفاث الذين صاروا ثعابين والبغاث الذين صاروا شواهين ، فى عصره ، لا يبتعد كثيرا عن وصف بعض الواقع فى عصرنا هذا الذى اتاحت فيه الصحافة الرخيصة فى اكثر من بلد ، اختلاط الحابل بالنابل ، واستكثرت من البغاث ، والحفاث ، الذين يختلفون عمن وصفهم ابن رشيق ، بأنهم ظلوا بغاثا وحفاثا ، ومع ذلك تفسح لهم صدور الصحف ، وتفتح لهم ابواب الفن ، ويحسبون على الحياة الفكرية فى عصر ـ ازدهرت فيه الدنيا كلها علما وادبا وفنا ـ وظل العالم العربى وحده يعانى ـ وعلى الأخص بعد الحرب العالمية الثانية ـ حياة فكرية هى بالزحف اشبه منها بالمشى ، وبالتدرج والحبو أشبه منها بالتوثب والانطلاق .

****

ولا سبيل الى القول ان ابن رشيق تفرد فيما عالج فى كتاب العمدة ، عن محاسن الشعر وآدابه ونقده ، اذ لا يخلو كتاب من هذه التى نسميها الأمهات فى الأدب من هذه الالتفاتات البارعة الى محاسن الشعر ، كما لا تخلو من النقد الذى يؤكد طول باع

الناقد ودقة بصره وبصيرته ، ولكن ليس ما يمنع من القول ان كتاب ابن رشيق يمتاز بأسلوبه فيما ينقل عن غيره باختصار الاسناد المعتاد فى الكثير مما نجده عند غيره ، وبمنهجه فى حس التبويب ، وحصر المواضيع فى كل باب أو فصل من فصوله ، دون ذلك الاستطراد الذى يدخلك احيانا فيما يشبه الدوامة او المتاهة من الأقوال والآراء .

****

وهو يرفع كتاب العمدة هذا ، الى ابى الحسن على بن ابى الرجال ، وكان هذا رئيسا لديوان المعز بن باديس الصنهاجى حاكم المغرب أو ملكها ، كما يلقب فى بعض ما يكتب عنه . ولسنا ندرى ما الذى منع ان يرفع ابن رشيق كتابه الى ابن باديس نفسه ؟ الا ان يكون مقامه او مكانته فى بلاط ابن باديس ، ليس ذلك المقام او تلك المكانة التى تبيح له او تمده بالجرأة على ان يرفع الكتاب اليه ، وان كان من ارخوا سيرة حياته ، وترجموا له ، يقولون ، ان الصلة توثقت بينه وبين الحاكم فضمه الى كتاب ديوانه . وهذا هو الأرجح فيما نرى . فكأننا بابن رشيق ، يعرف قدر نفسه بالنسبة للحاكم ، ويرى الفضل فيما نعم به من رعاية هذا الحاكم له يعود الى رئيس الديوان ابن ابى الرجال ، فلا يجد ما يعبر به عن الاعتراف بهذا الفضل سوى أن يرفع اليه هذا الكتاب الثمين .

****

والكتاب حافل ، باطراء ابن ابى الرجال ، وما نجده من بعض المقطوعات والأبيات هنا وهناك ينسبه ابن رشيق الى ابن ابى الرجال هذا ، ممّا يدل على أنه كانت له مشاركة واسعة فى الشعر وعلم بفنون الأدب ، مما يجعل العلاقة بينه وبين ابن رشيق علاقة زمالة اكثر منها علاقة مرؤوس برئيس .

وفى اهدائه الكتاب ، او رفعه الى ابن ابى الرجال يتلامح لنا سبب آخر غير مجرد الزمالة ، او الاعجاب بشخصية ابن ابى الرجال ، وهو على الأرجح نوع من الجفوة بين ابن رشيق وبين رئيسه ، وان رفع الكتاب اليه والاسراف فى اطرائه ورواية ما ذكرناه من المقطوعات الشعرية كان محاولة للاسترضاء والاستعطاف ، اذ نراه يقول : (ولما عدلت

بى الحال عن حضور مجلسة الباهر ، ومنعنى الاجلال عن مناسمة خلقه الزاهر وطال اشتياقى الى تلك الطلعة الكريمة ، نفضت جراب صدرى وانتقدت كنزمعرفتى)الخ ما يقول بحيث ينتهى بجملة ويختمها ببيت من الشعر .. هى : (فان وقع منه بموقع .. وحل من قبوله فى موضع ، بلغت الارادات ورجوت الزيادات) واما البيت من الشعر ، فشطره الأول فيه التفاته الى الألوان تلمح الى دقة حسه وبراعة تصويره اذ يقول :

وازرق الفجــر يبــدو قبــل ابيضه واول الغيث قطــر ثم ينســكب ..

وقد لا يكون هو الذى قال هذا البيت ، وانما استشهد به ، ولكن ليس فى الكتاب ما يشير الى شئ من ذلك ، مع ان الذين حققوه ، لم يغفلوا عن الاشـارة الى قائلى الأبيات التى كان يستشهد بها ، ويسهو عن اسنادها الى قائلها ، او لا يرى ضرورة الى الاسناد ، اذ يظن ان ما يستشهد به أشهر من ان يحتاج الى اسناد .

****

وكتاب العمدة لابن رشيق طبع نصفه او جزؤه الأول فى تونس ، لأول مرة ، ثم تكرر طبعه فى مصر ، وكما سبق ان ذكرنا ، كتب عنه الأستاذ عبد الرؤوف مخلوف رسالة نال عليها درجة الماجستير ، وذكر ما حفلت به النسخ الخطية من اخطاء كما نبه الى الأخطاء التى وقع فيها الناشرون عندما طبعوا الكتاب فى مصر . وليس لنا ان نؤكد ان طبعة ما افضل او اصح من غيرها ولكن النسخة التى بين يدى ، بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ومطبوعة فى مطبعة السعادة ، وهى المتداولة والتى يجدها من يبحث عن الكتاب فى الأسواق لأن المحقق قد بذل جهدا مشكورا ، فى التصحيح والتنبيه الى الأخطاء وفى اسناد الشواهد التى يوردها ابن رشيق الى قائلها مما يجعلنا نطمئن اليها ، ولا نتردد فى ان ننصح من يريد الاستفادة من الكتاب ان يختارها دون غيرها .

ويطول الحديث لو اردنا ان نستعرض فصول الجزئين او احدهما ، ولكن لابد لنا ان نقف قليلا عند بعض ما يمتاز به منهج ابن رشيق واسلوبه فى النقد ومنه على سبيل المثال ، انه يؤخذ او يلتفت الى الموضوع متجاوزا عن الشكل .. ويقرر بجرأة يحسد

عليها ، وتناسب اتجاه بعض ما يذهب اليه النقاد فى عصرنا ان الذوق ، وليس ما قاله العروضيون ، هو الذى يحكم الشعر .. ويزيد فيقول : (ان الشاعر المطبوع لا يحتاج الى علم الأوزان . والقوافى ، وانما هو علم يستعين به المضعفون) . وهو يحدد الكثير من المفاهيم ، ويعطينا الفرق بين مفهوم وآخر ، بما يفتح العين على مدى تعمقه وتمكنه ودقته ، فيقول مثلا عن البديهة انها فكرة وتأييد .. وان الارتجال انهار وتدفق .. وندر ان وقعت على مثل التفاتته الرائعة الى العلاقة بين البيئة والشاعر ، واثر هذه البيئة على الشعر ثم الى العلاقة ايضا بين العصر الذى عاشه الشاعر فى الجاهلية مثلا والعصر الذى عاشه فى العصر العباسى الأول .. وابن رشيق ، رغم ما احيط به من تهم السطو على آراء غيره ممن سبقوه أو عاصروه ، ظاهر الأمانة فى رد الفضل الى أهله ، والحرص على التنويه والاعجاب بمن يجد له الرأى الجدير بالالتفات والتأمل .. وله ما يرجح انه لم يسبقه اليه احد فى الاعجاب بشعر (الكتاب) ، وفى انه لا يلزمهم ان يجاروا الشعراء فى احكام الصنعة . ولعله يعنى التخصص والتنوع فى فنون الشعر من مدح وهجاء وتشبيب ورثاء ، ويعلل ذلك ، برغبة الكاتب فى حلاوة الألفاظ وطيرانها ، وقلة الكلفة والاتيان بما يخف على النفس منها .. ثم يقول : (اكثر اشعارهم انما يأتى تظرفا لا عن رغبة ولا رهبة .. فهم مخلون مطلقون فى شهواتهم ، مسامحون فى مذهبهم اذ كانوا انما يصنعون الشعر تخيرا واستظرافا) .

****

وبيننا وبين ابن رشيق الف عام .. ولكنك حين تقسر نفسك على ان تفرغ له ساعة من نهار لشهر واحد ، تخرج برصيد من العلم بفنون الشعر وروائعه وشوارد معانيه ، وروعة صوره ، وأصول النقد الفنى فيه ، ما نعتقد أنه لا يقل عن مستوى درجة البكالوريوس فى الأدب العربى .. فاذا اعدت الكرة وامعنت فى التأمل والدرس .. لا أشك فى أنك ستتفوق على الكثيرين من حملة درجة الدكتوراه .

بديع الزمان الهمذاني

أعجب ما يروع متتبع تاريخ الأدب العربى ، الى جانب تاريخ العرب السياسى ، أن الأدب قد ازدهر وتوهج فى نفس الفترة التى تقلص فيه ظل الخلافة العباسية وتمزق سلطانها الضخم العريض بين دويلات . يرأسها ملوك أو سلاطين لم يكونوا فى واقعهم الا خدما أو مماليك أو على أكثر تقدير . عمالا للخلفاء .. حتى لقد قال المتنبى :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد ، كأنها غنم
يستخشن الخزحين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

ففى عصر التمزق هذا الذى شهد التاريخ فيه الدول السامانية والبويهية والزيارية . والغزنوية والسبكنكينية . والخلفية (نسبة الى أحمد بن خلف) الذى كان يحكم سجستان . ظهر المتنبى وابن العميد وابن عباد والخوارزمى (الشاعر) وبديع الزمان الهمذانى ، ثم التوحيدى وابن دريد صاحب المقصورة التى عارضها أكثر من ستة وثلاثين شاعرا ، والشريف الرضى ، والثعالبى (صاحب يتيمة الدهر) وأبو فراس الحمدانى وكشاجم والفارابى والأصفهانى ، والمعرى وابن النديم وابن جنى ..

فى هذا العصر . ظهر بديع الزمان الهمذانى . واسمه أحمد بن الحسين ولا يدرى أحد كيف سمى بديع الزمان الا أن يكون هو الذى خلع على نفسه هذا اللقب فى عصر كثرت فيه الألقاب .

وقد نشأ بديع الزمان فى قصر الصاحب بن عباد . فاستفاد مما فى دار كتبه من نفائس الكتب ، وهو كغيره من أدباء تلك العصور قوى الحافظة ، الى حد يكاد يكون أسطوريا ثم انتشل الى جرجان ، ومنها الى نيسابور . حيث أملى مقاماته المشهورة فى أعقاب معركته مع أبى بكر الخوارزمى صاحب (مفاتيح العلوم) .. وقد انتصر البديع على أبى بكر الخوارزمى ، فأخذ فى الترحال حيث يحل ضيفا على ملوك وأمراء ذلك العهد .. واستفاد بذلك الكثير من الأموال بحيث اصبح من كبار الملاك .

وأهم ما ترك بديع الزمان من الأعمال الأدبية ، هو مقاماته المعروفة باسمه ورسائله ، وديوان شعر يجمع النقاد على أنه أقل وزنا واتفه شأنا من المقامات أو من نثره عامة .

وأعجب ما فى أخباره أن هناك خلافا فى أسباب موته ، اذ يروى أنه مات مسموما كما يروى أنه مات بالسكتة .. وهناك من يقول أنه دفن حيا الى أن مات ..



أبو محمد القاسم بن علي الحريري

قال عنه الزمخشرى صاحب الكشاف فى التفسير وصاحب أساس البلاغة ، « أقسم بالله وآياته .. أن الحريرى حرى بأن تكتب بالتبر آياته »

ويقول عنه ياقوت الحموى . « كان غاية فى الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة ، وله تصانيف تشهد بفضله وتقر بنبله وكفاه شاهدا (كتاب المقامات الذى أبر بها على الأوائل .. وأعجز الأواخر) .. »

ومع أن العصور المتأخرة فى الأدب العربى على الأخص عكفت على مقامات الحريرى كمصدر فى مقدمة مصادر اللغة والأسلوب ، وقل إن وجد طالب علم وأدب لم يقرأ مقامات الحريرى ، فان الاهتمام بأدبه فى العصر الحديث ، لم ينضب ويقل فحسب وانما أهمل وأصبحت مقاماته ومن ينهجون نهجها فى الكتابة مدعاة للاستهجان دلالة على التأخر والتخلف والتكلف والصنعة ، وكلها من عيوب الأدب ، ليس فى عصرنا هذا فقط ، وانما فى جميع عصور الازدهار ..

وليس فى المصادر التى عنيت باطراء المقامات وتقريظها والحفاوة بها ، ما يعطينا فكرة واسعة ذات قيمة عن حياته .. اذ كان ما نعلمه عنه أنه ولد فى البصرة ونشأ بها ثم سكنها ولا شئ غير ذلك عن ثقافته وعن أشياخه ومن أخذ عنهم من علماء اللغة فى

عصره .. ومع ذلك فالمقامات تؤكد لنا أنه يصدر عن معرفة عميقة بالعلوم الأدبية وهى التى اصطلحوا على أنها النحو واللغة والصرف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب والانساب ..

وللحريرى الى جانب المقامات ، مؤلفات منها (درة الغواص فى أوهام الخواص)، وله ديوان والمقامة لغة هى . المجلس أو الجماعة من الناس فكأن المقصود هو المجلس الذى يطيب فيه قص القصص والحكايات والأخبار .. ونحن نعلم أن مقامات الحريرى جاءت بعد مقامات بديع الزمان الهمذانى ، التى الفت فى القرن الثالث الهجرى ، والمقامة عند الحريرى لا تختلف عن المقامة عند صاحبه بديع الزمان ، من حيث البناء والتكوين .. فهى تتألف من وحدات أساسية وعبارات تربط بين هذه الوحدات .. وهذه الوحدات هى الهدف الحقيقى من تأليف المقامة وتضم نثرا فنيا كما تضم قصائد ومقطوعات شعرية .. والبراعة تتجلى فى القدرة على الربط بين هذه الوحدات .. والمقامة تبدأ عادة بمقدمة قصصية بسيطة يرويها المؤلف .. فهو مثلا حين يقص علينا فى مقامته (الصنعانية) فيقول : « أيها السادر فى غلوائه ، السادل ثوب خيلائه ، الجامح فى جهالاته ، الجانح الى خزعبلاته ، الام تستمر على غيك ؟ وتستمرئ مرعى بغيك ، وحتام تتناهى فى زهوك ، ولا تنتهى عن لهوك ؟؟؟ تبارز بمعصيتك ، مالك ناصيتك ، وتجترئ بقبح سيرتك على عالم سريرتك .. »

ونجد أن أبا زيد السروجى وهو الشخصية التى يختارها الحريرى ، لقصصه ومواعظه ، بعد أن يستغرق أكثر من نصف المقامة ، يختم الحريرى عبارته بقوله : « فلما رنت الجماعة الى تحفزه ورأت تأهبه لمزايلة مركزه أدخل كل منهم يده فى جيبه فافعم لها سجلا من سيبه وقال : اصرف هذا فى نفقتك أوفرقه على رفقتك .. ثم نجد الحريرى ، يحتال ليأتى بمقطوعة شعرية ..

ومقامات الحريرى كمقامات بديع الزمان الهمذانى ؛ ذخيرة من ذخائر التراث دون شك ، ولعلها محفظة نادرة المثال ، لفنون من السجع والجناس والطباق واللغة والنحو ..

وما ينبغى أن ننبه اليه أن المقامات قد ترجمت الى اللغة الفرنسية والتركية والفارسية ،

واللاتينية والعبرية والألمانية .. ويرى النقاد أن الترجمة الى اللغة الألمانية تعتبر أروع الترجمات عن العربية اذ استطاع المترجم الألمانى أن يجعل المقامات تظهر فى الألمانية وفيها أرج اللغة العربية . ونغمات السجع فيها .. وذلك مما لم يسبق له مثيل فى أى لغة أوروبية ..

ونعلم أن الكثيرين من المثقفين اليوم لا يطيقون أن يعايشوا الحريرى فى مقاماته أكثر من دقائق ، ولكن ما أعجب ما نجد من عناية الشراح ، ومن عناية الأوروبيين بنقلها الى لغاتهم .. ولكن لا عجب ، اذ ما أكثر ما أهملنا من التراث فى هذه الأيام !



عبد الله بن المقفع

لا تملك وأنت تقرأ له أحد كتبه وأشهرها (الأدب الصغير) و (الأدب الكبير) و (كليلة ودمنة) وأعظمها فيما يقول النقاد (رسالة الصحابة) التى وجهها الى الخليفة (أبى جعفر المنصور) . اذ يضعونها على نفس القمة الشامخة التى يقتعدها أريسطو فى كتابه (السياسة) الذى نقله الى العربية المرحوم لطفى السيد باشا .. ويذهب بعضهم الى أنها أعظم كثيرا وأسهل تناولا ، وأعم فائدة من كتاب (العقد الاجتماعى) لجان جاك روسو .. ويجمع أكثر من دارس على أن كتاب (الأمير) لمكيافيلى ليس أكثر من سرقة مكشوفة من كتاب ابن المقفع ومن مجموعة آرائه فى الشؤون الاجتماعية والسياسية ..

لا تملك وأنت تقرأ لهذا الكاتب العبقرى ، الا أن تذهل أمام بلاغة الأسلوب ، وشرود المعانى ، وبعد المرامى وعمق النظرة ، ودقة اختيار اللفظ .. حتى لتأسف أشد الأسف ، على ألا يقرر أحد كتبه فيما يقرر من كتب للدارسين فى المدارس الثانوية كسبيل الى تقويم اللغة واغناء الحصيلة عند الطالب مما يساعده على أن يشق طريقه ، ليس الى الأدب والشعر ، فهما موهبة يتعذر أن يتيسر الحصول عليهما بالتعليم ، وانما الى كتابة العبارة الصحيحة المستقيمة التى تخلو من الهنات والعيوب . الأرجح أنه ولد فى عام ١٠٦ هجريا ، وتوفى عام مئة وخمسة وأربعين .. وبذلك لم تزد أيامه فى الدنيا عن تسعة وثلاثين عاما .

قالوا عنه: إنه كان واسع الثراء .. ولكنه كان جوادا كريما الى حد الاسراف الذى كثيرا ما ألجأه الى الاستدانة والاقتراض ليفى بما يلزمه به الجود والكرم .

وابن المقفع ينحدر من أصل فارسى وزعموا أنه يجيد الفارسية ومنها استفاد ما فاضت به قريحته من روائع الحكم والآراء .. ولكنه لم يفخر بفارسيته قط . وانما كان فخره بأنه الكاتب العربى الكبير والأصيل . اتهم ابن المقفع بالزندقة .. وقتل عقابا له على اصراره على أقواله ..



شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري
صاحب كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

الظاهرة التى تسترعى الكثير من التأمل أن الاسبان وجيرانهم الفرنسيين ، طيلة الثمانية قرون التى حكم فيها العرب الأندلس أو (أسبانيا) كما تسمى اليوم لم يعنوا بكتابة تاريخ صراعهم مع العرب ، بحيث أصبح الذين كتبوا تاريخ العرب فى أسبانيا من المحدثين فى الغرب امثال بروكلمان ودوزى وآسين بلا ثيوس لا يجدون المراجع التى يعتمدون عليها فى كتابة تاريخ الأندلس ، الا فيما كتبه العرب انفسهم سواء منهم من كان أندلسيا وعاصر فترة أو مرحلة من هذا التاريخ أو من كان من أهل المغرب كابن خلدون ، ومن نتحدث عنه وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقرى ، صاحب كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .

وليس من شك فى أن السبب فى ذلك ، هو أن أوروبا كانت تعيش فى الظلام الذى لم يتزحزح عن حياتها الا بعد حكم العرب للأندلس .. وقد لا يكون مما يبعد عن الحقيقة كثيرا أن نقول : إن أوروبا لم تكن لتنهض ، من خمودها وتستمر فى تطورها وتقدمها لولا دخول العرب اسبانيا واستمرارهم فى حكمها منذ عهد الولاة ، مرورا بعهد الخلفاء الأمويين وانتهاء عند عهد الطوائف ..

ومع ان الفكر العربى فى الأندلس ، قد استطاع أن يتميز بقليل من الخصائص

التى تعطيه طابعا خاصا به الى حد ما ، فان هذا الفكر ظل منذ بداية عهد الخلفاء بدخول عبد الرحمن الداخل صقر قريش ، وعلى الأخص فى عهد عبد الرحمن الناصر الذى استمر حكمه خمسين عاما على التوالى ، يعتمد على الفكر العربى فى المشرق العربى الذى كان الخلفاء لا يترددون فى استيراده كتبا من بغداد ودمشق ، أو فى استقدامه علماء لم يروا بأسا فى الانتقال الى الأندلس بعد أن تسرب الى الحكم العباسى ما هو معروف من أسباب التدهور والضعف والانحلال .

ومن هذه الحقيقة يمكن القول دون افتئات أو تجن أو تزيد أن نهضة أوروبا مدينة للفكر العربى فى المشرق أصلا وأن حكم العرب للأندلس ، الذى استمر هذه القرون الطويلة ، كان اداة الصلة التى أتاحت لأوروبا أن تنهض ، وأن تلتمس سبيل استقلالها الفكرى عن العرب بالالتفات الى الأدب والفكر الاغريقى أو الرومانى وأن تغريها الهرطقة وعداؤها للإسلام بانكار أثر العرب المباشر فى نهضتها والاصرار على أنها مدينة لليونان والرومان ، وقد ظلت تمعن فى هذا الموقف بل ازداد تمسكها به عندما أصبحت الدولة العثمانية تهدد أوروبا كلها بعد استيلائها على النمسا ، ولم تعترف أوروبا ، أو بعض المستشرقين فيها بأثر العرب فى النهضة ، الا فى أواخر القرن الثامن عشر ..

ونستطيع أن نقول اجمالا : إن الأسبان لم يعنوا بتاريخ العرب فى الأندلس وبمسيرة الفكر العربى وأثرها فى حياة أسبانيا خاصة الا فى أواخر القرن الثامن عشر كبداية ، وفى القرن التاسع عشر بشىء من التوسع والافاضة ، ثم فى القرن العشرين ، بعناية اكبر واهتمام لم يخل من روح الاعتدال والتوسط فى الاحكـام التى يصدرونها سواء بالنسبة للأحداث ، أو بالنسبةللتلاقح الفكرى بين أوروبا والعرب ، عبر أسبانيا ، خلال الحكم العربى .

وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقرى صاحب كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب يعتبر أصدق مؤرخ للحكم العربى فى الأندلس ، وكتابه هذا يعتبر المرجع الأول واوفى من المراجع العربية بما فيها تاريخ ابن خلدون ولذلك يكاد لا

يخلو كتاب عن الأندلس في العصر الحديث ، من الاسناد اليه فيا رواه عن الأحداث فى الأندلس منذ عهد الولاة ، الى نهاية عهد الطوائف .

والعجيب أن المقرى ، الذى ألف أعظم وأوفى مرجع لتاريخ الأندلس لم يولد فى الأندلس ، ويرجح من كتبوا عنه أنه لم ير الأندلس رأى العين والسبب كما يقول الأستاذ على أدهم الذى كتب عنه نبذة في مجلة (تراث الانسانية) هو أن المسلمين فى عهد المقرى ، كانوا قد غلبوا على أمرهم فى الأندلس وأخرجوا منها وطردت البقية الباقية منهم أو ذابت وفنيت فى الكثرة الأندلسية (يعنى الأسبانية الغالبة) .

وقد ولد المقرى ، فى قرية من قرى الجزائر بالقرب من تلمسان اسمها (مقرة) فهو ينتسب الى القرية التى ولد فيها .. وكان موطن أسرته القديم ، وعلى جارى العادة فى اختلاف المؤرخين حول تاريخ مولد من يترجم لهم من الاعلام فان هناك خلافا ، حول تاريخ مولده ، اذ بينما يقول بعضهم أنه ولد عام ألف الهجرى ، نجد من يقول : إنه ولد قبل الألف بثمانية أعوام .

ومع أن المقرى ، قد أرخ لكل رحلة من رحلاته وتنقله بين المغرب ومصر وبيت المقدس ومكة المكرمة ثم دمشق التى أتم فيها تأليف كتابه ، فانه لم يذكر شيئا عن تاريخ ميلاده .. كما لم يذكر الأسباب التى جعلته يغادر تلمسان ، الى فاس واقامته فيها ، على عهد السلطان (ابى المعالى زيدان السعدى) ولكنه يذكر لنا أن اقامته بفاس قد يسرت له الاستزادة من دراسة الفقه المالكى وهو المذهب الذى انتشر فى الأندلس بفضل عبد الملك بن حبيب من الطبقة الثانية من العلماء الذين انتقلوا الى الأندلس ، وكانت الطبقة الأولى أو الرعيل الأول ، بعض الصحابة والتابعين الذين كانوا جنودا فى الجيش الذى فتح الأندلس .

ومع اننا نجده ، يتولى الامامة والخطابة لجامع القرويين ، ثم يتولى الافتاء ويبدو متمتعا بحظوة لدى السلطان السعدى ، فقد تظاهر بأنه يعتزم الحج ليتاح له السفر من المغرب ، بعد أن نشب الخلاف الى حد القتال بين زيدان السعدى الذى تولى الملك ، وبين أخويه المأمون وابى فارس ، وساد العهد والبلاد من الاضطراب والفتن والدسائس

ما جعل المقرى يؤثر الابتعاد عن المغرب ، وكأنه لم ينس ، ما أصاب الكثيرين من امثاله من العلماء والأدباء فى الأندلس نتيجة لهذا الاضطراب والفتن والدسائس ، ولعله قال(ما اشبه الليلة بالبارحة !)فاثر العافية ، فذهب لآداء فريضة الحج ، ومنها اتجه الى مصر حيث أقام فيها وتزوج من عائلة معروفة باسم (البلدة الوفائية) .. وليس من شك فى انه كان قد عقد العزم على الاستقرار فيها ، ولكن لم يجد فيها ما كان ينتظره من تقدير ولعله قد أهمل ولم يلتفت اليه أحد من علمائها وأكـابر رجالها ، فاحس بالغربة والوحشة وأنشد لنفسه (فى كتابه نفح الطيب) ما عبر به عن مشاعره فى مصر أبياتا يقول فيها :

تركت رسـوم عزى فى بلادى ... وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسى عفتهـا بالـذل فيها ... وقلـت لهـا عن العلياء صومى
ولى عزم كحـد السيف ماض ... ولـكن الليالى من خصومى

فغادر مصر الى بيت المقدس ، ولكنه عاد الى القاهرة ، والأرجح أن سبب عودته اليها هو ارتباطه بزوجته .. وأخذ يتردد على مكة والمدينة سبع مرات ، وفى كل مرة يعود الى مصر ، رغم ما لقيه فيها من الهوان وعدم الاحتفال وخمود الذكر .

وعلى ما أصبح عادة له فى الارتحال عن مصر كلما ضاق بخمول ذكره فيها غادر مصر فى عام **١٠٣٩** الى بيت المقدس ، حيث أقام فيها خمسة وعشرين يوما ولسنا ندرى كيف بدا له أن يسافر الى دمشق ، فاذا به يجد من أهلها من الحفاوة والتكريم ما فاق حتى ما كان يلقاه فى المغرب ، وفى رعاية السلطان السعدى ولم يكن تكريم دمشق له ، مناصب فى القضاء أو الافتاء أو التفاتة من الحكم ، وانما من عامة الناس ، وفى مقدمتهم كبار علمائها ، والاعلام من أدبائها وفقهائها ..

وهو يروى أو يتحدث عن دمشق ما يجعلك تشعر بحنينه الى موطنه فى المغرب ، اذ يبدع فى وصف رياضها وأنهارها وأزهارها وعطورها ، حتى ليقول (كنت قبل الحلول بالبقاع الشامية مولعا بالوطن لا سواه فصار القلب بعد ذلك مقسما بهواه .. ومحاسن الشام طويلة عريضة ، وهـو مقـر الأولياء والأنبياء ، ولا يجهـل فضلـه الا الاغمار الأغبياء) .

ويقول من شهدوا أيام اقامته فى دمشق أنه قد أملى بها صحيح البخارى فى الجامع الأموى تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح ، ولما كثر الناس بعد أيام خرج الى صحن الجامع حيث حضره غالب الأعيان من علماء دمشق ، وكان يوم ختمه املاء صحيح البخارى ، كان يوما مشهودا ، اجتمع لسماعه الوف الناس وجاؤوه بكرسى الوعظ ، فصعد عليه ، وتكلم بكلام فى العقائد والحديث بكلام لم يسمع نظيره قط .. وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من شهر رمضان عام الف وسبع وثلاثين .. ومع ذلك لم تطل اقامته فى دمشق أكثر من بضعة أسابيع ، انعقدت له خلالها صداقات برجالها وأعيانها وفى مقدمتهم السيد أحمد بن شاهين الذى احتفى به منذ عام بمقدمه ، اذ حرص على اكرامه وتفقده ، وأشاد بذكره وعلو منزلته ، مما جعل الناس يلتفون حوله ، ويحرصون على الاستفادة من علمه طيلة الأسابيع التى اقامها فى دمشق .

وفى دمشق ، تبلورت فكرته عن تأليف كتابه ، وذلك لما كان يدور بينه وبين السيد أحمد بن شاهين وغيره من أعيان الأدباء والعلماء فيها من أحاديث عن الأندلس ، وعلى الأخص عن وزيرها (لسان الدين بن الخطيب) الذى أفتى الفقهاء بقتله فخنق فى سجنه بعد اتهامه بالزندقة واثبات التهمة عليه ، والذى لقب لقبا غريبا وهو (ذو العمرين) لأنه كان مصابا بالأرق ، لا ينام من الليل الا شيئا قليلا وكان هذا الأرق سببا فى توفره على الكتابة والتأليف ، فبلغ عدد ما ألفه من الكتب سبعة وثلاثين كتابا ، فقد الكثير منها ، ومن أهمها وهو موجود (كتاب الاحاطة بتاريخ غرناطة) وقد كان يعيش ويلاحق طموحه الى المجد فى عهد ملوكها فى بنى الأحمر وهو آخر عهد الحكم العربى فى الأندلس ، وقد حقق من طموحه منازل عند ملوك بنى الأحمر ، تشبه كثيرا منزلة جعفر البرمكى فى الخلافة العباسية وكان يمكن أن يتجنب النهاية الرهيبة التى انتهت بها حياته ، لولا هذا الطموح الذى لا يقف عند حد .. وهو صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فيها :

جادك الغيث اذا الغيث همى　　يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك الا حلما　　فى الكرى أو خلسة المختلس

ونحن نرى فى البيتين ما يشعرنا بأن صاحبهما بعيد عن الأندلس يشوقه الحنين الى زمان قضاه فيه وحرم منه .. مع أن الرجل أندلسى ومن وزراء بنى الأحمر فى مملكة غرناطة كما سبق القول .. وقد بلغ عندهم ما بلغه جعفر البرمكى من الجاه والنفوذ وتصريف شؤون الحكم ، فكيف يتفق أن يغيب عن الأندلس وأن يتشوق اليها بهذا الشعر الذى ينبض حنينا ، ويشتعل لوعة على فراق يتمنى لو انتهى ..

وهنا يتضح لنا سبب عناية المقرى بابن الخطيب ، وافاضته فى الحديث عنه فى كتابه (نفح الطيب) عن هذا الوزير .. وذلك أن لسان الدين الخطيب اضطر فى قصة طويلة الى أن يغادر الأندلس وأن يقيم فى تلمسان التى سبق أن قلنا أن المقرى قد ولد فى قرية من قراها اسمها (المقرة) . ومن المغرب أخذ يحرض حكامها على غزو غرناطة مما ادى الى مراحل أخرى من القصة الطويلة عاد خلالها ابن الخطيب الى الأندلس وتمتع بالمزيد من الجاه والسلطان ، ثم عاد فغادر الأندلس الى فاس .. وهناك ، لاحقه التامر والدس عليه من جهة ، وما سبق أن تورط فيه من التامر على غزو غرناطة فالقى القبض عليه ، وسجن فى فاس حيث خنق فى سجنه ثم دفن ، ثم أخرج من القبر الذى دفن فيه فى اليوم الثانى ، وجمع على جثته ما يكفى لحرقها من أعواد الخشب . واشعلت النار الى أن احترق شعره ، واسودت بشرته على مشهد من الناس ، وعندئذ أعيد إلى الحفرة التى دفن فيها .

والمقرى ، مفتون بابن الخطيب ، وبالفصول الطويلة من قصة حياته ، وقد كان الحديث بينه وبين أعيان دمشق من الأدباء يدور حول هذا الوزير الشاعر المؤلف فاقترح عليه صديقه أحمد بن شاهين أن يؤلف كتابا عن ابن الخطيب .. ووافق المقرى وشرع فى التأليف بعد عودته الى مصر ، ويقول أنه تباطأ ، وساورته نفسه ألا يستمر ، ولكن صديقه الدمشقى ظل يستحثه ويكتب اليه من دمشق يستنجزه وعده .. فعكف على التأليف الى أن أتم هذا الكتاب الفريد وعلى الأخص فيما يختص بتاريخ الأندلس فى آخر أيام العرب فيه .. والكتاب قسمان أحدهما عن الأندلس وفيه ثمانية أبواب والآخر عن لسان الدين الخطيب وفيه ثمانية أبواب أيضا .. والاسم الكامل

للكتاب هو (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيـرها لسان الديـن الخطيب)

ولكنا نجد فى سيرته أنه اعتزم العودة الى دمشق للاستقرار بها ، وقبل أن ينفذ ما اعتزمه أصيب بمرض مفاجىء وتوفى وهو فيه فى جمادى الآخرة عام الف وواحد وأربعين ودفن بمقبرة المهاجرين فى القاهرة .

وقد طبع كتاب المقرى فى مصر عام الف ومئتين وتسعة وسبعين ، واهتم به الذين كانوا يعنون باخبار الأندلس من المستشرقين وفى مقدمتهم دوزى .. ثم أعيـد طبع الكتاب عدة مرات ، وأحسن الطبعات هى تلك التى أشرف على تحقيقها الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، فى عشرة اجزاء ، وهو الذى حقق ونشر كتاب العمدة لابن رشيق أيضا مما يجعله يبدو متخصصا فى تحقيق كتب مؤلفى المغرب العربى وهو جهد يستحق الكثير من التقدير .



ابن بطوطة

منذ عهد الخليفة الثانى ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وراية الاسلام تشاهد عالية خفاقة على معاقل الفرس والروم ، داعية الى الله ، والى تلك المثل والقيم التى جاءت بها عقيدة الاسلام ، قانونا يقرر العدالة والمساواة والحرية ، ويعلى قيمة الانسان ويحدد لها الكرامة والعزة اطارا ومضمونا ، فيمتنع بمقتضاها أن يخضع هذا الانسان الا لحكم الله أو أن تمس كرامته الا بشريعة الله .

وتوالت الفتوح عاما بعد عام ، بحيث ما كاد القرن الثامن من ظهور الاسلام يشارف نهايته حتى كانت هذه الراية تخفق على الساحة من مشارف الصين الى أسوار فرنسا ، واستتبع ذلك اتساع مسؤولية الحكم وتطور أساليب الادارة مما حتم على السلطان فى ذلك العهد أن يلتمس السبل الى الاتصال السريع بالأقطار والثغور فى المشرق والمغرب ولم يكن من سبيل لهذا الاتصال الا ، بمعرفة هذه الأقطار والثغور ومعرفة المسالك اليها من بر وبحر ، وسهل ووعر ، وحر وقر فكان ذلك هو الدافع الأول للضرب فى الآفاق ، ورصد ما يشاهده الجوابون وما يصادفونه فى تجوالهم من سهل وجبل ، وما يلاحظونه على الأقوام فى هذه الآفاق من سمات وخصائص ، وعادات وتقاليد ، وأحوال معيشة ووسائل عيش وأنماط سلوك .

فكان الرحالة المسلمون ، ووراءهم دوافع الاسلام من أوائل الرواد الذين رصدوا جغرافية العالم وحددوا معالم الأقطار التى رحلوا اليها وكان من هؤلاء الأوائل (ابن

خرداذبة) فى اسفاره ثم اليعقوبى ، والبلخى وابن بطوطة وان مؤلفاتهم القيمة التى وضعت الأسس لما يمكن أن يسمى فصولا من جغرافية العالـم القـديم أو العالـم الاسلامى كما عرفوه فى عصرهم .

والى جانب من جابوا الآفاق خدمة للسلطان ، أو رغبة فى خدمة العلم ممن سبق ذكرهم من الرواد ، نجد للتجارة أثرها وحافزها القوى ، فى ارتياد آفاق لم يصل اليها الحكم الاسلامى ، ولعل حكاية (السندباد البحرى) على ما فيها من خيال أسطورى تعطينا فكرة ، عن الأخطار التى كان يواجهها الرحالة من التجار ، وهم يتلمسون الأسواق لما يحملونه من سلع قطر آخر ، أو لما يحملونه من العاج والحرير والطيب والغالية والافاويه فى أسواق العالم الاسلامى وعلى الأخص فى عواصمـه الكبـرى ومـراكز السلطان فيه .

ولعل المملكة العربية السعودية قبل غيرها ، خليقة بأن توجه عناية خاصـة الى التراث الاسلامى من كتب الرحالة العرب والمسلمين ، باعادة طبعها وتحقيقها ومن هذه الكتب على سبيل المثال :

- رحلة التاجر سليمان
- رحلة الناخوذة ابن وهب الى الهند والصين وما زاده عليها ابن السيرافى
- ثم رحلات ياقوت الرومى فى رحلاته الثلاث فى مؤلفه الجليل (معجم البلدان ، الذى يضعه فى القمة من رواد علم الجغرافيا حتى اليوم)
- وكتاب (عجائب البلدان) للشاعر (أبو دلف) بن مهلهل الذى سافر من بخارى فى أوائل القرن العاشر فزار بلاد التيبت والهند وأفغانستان وسجستان ودون فى كتابه ما دون من أخبار ووصف جديرين بالتأمل والدراسة والتحقيق .
- كتاب (مروج الذهب) للمسعودى الذى يعطينا وصفا لمشاهداته فى بلاد فارس ، والخزر ، والهند ، والتيبت وجزيرة سيلان ومدغشقر وأقاليم بحر قزوين وبلاد الروم ، وسوريا وفلسطين ومصر والسودان وجزيرة صقلية .

أما رحالتنا الذى نتحدث عنه فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، بن محمد ، ابن

ابراهيم اللواتى (نسبة الى لواته من قبائل البربر) المعروف بابن بطوطة والملقب بـ (شمس الدين) .

ولد ابن بطوطة فى طنجة فى الرابع والعشرين من شهر يناير عام ألف وثلاثمئة وأربعة الموافق للسابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ وظل فيها الى أن بلغ الثانية والعشرين ..

وككثير من الرحالة المسلمين نجد أن دافعه الى الشروع فى رحلاته هو الحج الى بيت الله الحرام .. وبعد الحج فى عام ألف وثلاثمئة وخمسة وعشرين ينطلق ليجوب أقطار العالم المعمور أو المعروف فى ذلك العصر . وقد كان فيما يبدو من أقواله محظوظا . يجد الكثير من الترحيب والاكرام . اذ نراه قد عين قاضيا فى (دلهى) من قبل السلطان المسلم (محمد شاه) ثم سفيرا ومندوبا مفوضا فوق العادة لهذا السلطان لدى ملك الصين .. وكان خلال هذه الرحلات يدون مشاهداته وملاحظاته . الى أن داهمه بعض الأشرار فى الهند فسلبوه كل ما كان يحمل . ومنه مدوناته الكثيرة .. ويمكن القول أن هذا هو السبب ، فيما يمكن أن يلاحظ على ما دونه أو أملاه بعد ذلك فى مراكش من اضطراب فى الوصف واهتزاز فى الخبر ..

يؤثر عن ابن بطوطة أنه كان رجلا عفا رقيق الشعور . تقيا . على جانب طيب من العلم بالفقه والشريعة ، ندى الكف وبالأخص للعلماء المنقطعين للعلم والعبادة . وقد يؤخذ عليه أنه كان يسرف فى التبرك بمن تشيع عنهم شائعة الولاية فيكثر من زيارة قبورهم . والمبيت فى ما يعرف باسم (الزوايا) الموقوفة على هؤلاء الصلاح أو الأولياء .

حج ابن بطوطة الى بيت الله الحرام أربع مرات . وفى كثير مما كتب ودون يحن الى ذكرى هذه الرحلات التى قام بها الى الحجاز . ويعزى الكثير مما طلبه من التوفيق الى بركة هذه الرحلات .

وفى مقدمة كتابه . نرى شدة تعلقه بوالديه . ونعلم أن أمه قد توفيت حين كان يقوم برحلته الأولى . ونرى ما عاناه من الحزن والاسى . وما ظل يتعزى به عنها بزيارة قبرها والبكاء لفراقها حتى ليبدو مع هذه العواطف طفلا من الأطفال .

وقد قام ابن بطوطة بثلاث رحلات واسعة جاب فيها أكثر بلاد المعمورة المعروفة فى زمانه .

وكانت أولى رحلاته من طنجة الى مكة ، فجاب بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر .. ومن القاهرة اتجه الى صعيد مصر قاصدا أن يبحر من ميناء على البحر اسمه (عيذاب) ، ولكنه اضطر الى العودة الى القاهرة اذ تعذر عليه أن يسافر بحرا بسبب حرب كانت ناشبة بين النوبة والمماليك . فاتجه الى فلسطين، فلبنان ، ثم سوريا ومنها الى الحجاز وبعد أن أدى فريضة الحج لأول مرة اتجه الى العراق ، ومنها الى فارس ، ثم الى الأناضول ، ومنها الى سوريا ثم الى الحجاز حيث حج للمرة الثانية .. وفى هذه المرة جاور البيت الحرام لمدة سنتين ..

ومن الحجاز ، قصد اليمن ، ومن اليمن اتجه الى افريقيا الشرقية ، ثم كر راجعا الى الحجاز من الجنوب ، فوصل الى الخليج العربى ، حيث زار عمان وهرمز والبحرين والاحساء .. ثم عاد الى الحجاز ليحج للمرة الثالثة ..

وبعد هذه الجولة الواسعة هبط مصر ثانية ، ورجع الى فلسطين ولبنان ، وجبل العلويين ثم اتجه الى الأناضول ومنها الى بلاد القرم .. ومما يؤكد حسن حظه أن عهد اليه بمرافقة الأميرة اليونانية ، زوجة السلطان محمد ازبك الى القسطنطينية حيث أقام بها مدة محفوفا برعاية السلطان وعطفه .. وفى هذه المرة نجده يصل الى خوارزم .. والتركستان ، وأفغانستان ، والسند ، ثم نراه فى دلهى يتولى القضاء لسلطانها محمد شاه على المذهب المالكى .. ثم نراه يرأس بعثة سياسية من السلطان محمد الى ملك الصين ، فيصل الى جزر (طيبة) .. ثم نراه فى جزيرة سيلان ، ثم فى المليبار والبنغال ، وجزر الهند الصينية ..

ومرة أخرى يعود الى الحجاز ليحج للمرة الرابعة .. وبعد الحج يعود الى بلاده مارا بمصر ، وتونس والجزائر الى أن يصل فاس سنة ألف وثلاثمئة وتسعة وأربعين ميلادية ولكنه لا يطيل الاقامة فى فاس ، اذ يبدأ رحلته الى الأندلس ، وكانت هذه هى رحلته الثانية ، التى لم تطل ولم تشمل سوى سبته ، وجبل طارق ، وجزيرة ملقة وغرناطة .

أما في الرحلة الثالثة وهى الأخيرة فهى التى كرسها للجولة فيما كان يعرف بالسودان وهو منطقة تشمل عددا من بلدان غرب أفريقيا ووسطها ومنها الى مالى وتومبوكتو .

وقد اهتم المستشرقون برحلة ابن بطوطة . اهتماما . سبقوا به العالم العربى منذ سنة ألف وثمانمئة وثمانية عشر ميلادية بحيث قد ترجم الكتاب واسمه (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) أو بعض أجزائه . الى اللاتينية . والانجليزية والبرتغالية والألمانية والفرنسية والتركية والهندية .

وطبع الكتاب كاملا عن نسخة أصلية بخط ابن جزى . الذى أملى عليه ابن بطوطة أخبار رحلاته فى باريس عام ١٨٥٩م فى أربعة مجلدات بعناية مستشرقين كبيرين فرنسيين . وعن هذه الطبعة طبع الكتاب فى القاهرة لأول مرة عام ١٨٧١ م .

ومع ان ابن خلدون يذكر ابن بطوطة ورحلاته ويسجل ما كان يساور الكثيرين من شكوك فى صدق ما جاء فيها من أخبار . فاننا نجد المستشرق (دوزى) يسميه (الرحالة الأمين) ..

وقد يعذر ابن خلدون فى تسجيله للشكوك . حين يجد خبرا من أخبار ابن بطوطة عمن يسمى (جمال الدين السارى) الذى رآه فى دمياط وذكر أنه وجد حليق اللحية وحين أخذ عليه القاضى حلق لحيته ظهر له بلحية سوداء عظيمة ثم ما هى الا لحظة حتى ظهر له بلحية بيضاء .. وقبل أن يفيق القاضى من دهشته عاد السارى حليق اللحية كما شوهد أول مرة .

فالخبر هنا لا يقبله ابن خلدون ويشكك فيه لأنه مما (اذا رجع الانسان فيه الى أصوله . وهيمن على نفسه وميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما ذهل فى نطاق الامكان قبله . وما خرج عنه رفضه) .

ويمكن القول ان ابن خلدون قد شكك فيما يدخل فى باب الغرائب التى يصعب قبولها عقلا . وان دوزى قد اختبر دقة ابن بطوطة فى ما ذكره من مواقع البلدان وعادات أهلها . وما فيها من ثمار وأنهار . وبرار وبحار . فوجده صادقا أمينا . فسماه (الرحالة الأمين) متسامحا فى الكثير من الغرائب . أو مؤمنا بها . وهو يعرف ما فى الهند

ـ مثلا ـ من ظواهر غريبة يأتيها السحرة والمشعوذون حتى اليوم .

وقد توفى ابن بطوطة سنة ألف وثلاثمئة وسبعة وسبعين للميلاد . وما يزال اجماع العلماء منعقدا على أن له الكثير من الفضل على علم الجغرافيا . بما أثبت من حقائق ، وما سجل من مشاهدات . وما سرد من معلومات كثيرة وملاحظات دقيقة لا تعدم قيمتها العلمية مع احتفاظها بروح القصة ونكهة الحياة الحافلة بالغرائب التى لا تنقضى منذ كانت الحياة ، وحتى اليوم .



طوق الحمامة في الألفة والألاف

اسمه ، كان هو الأخلق بأن يشد اليه الأسماع ، اذ يندر بين عامة المثقفين ـ والذين تربطهم بعض الصلة بالتراث على الأخص ـ من لم يسمع عنه ، ان لم يكن قد عرف عنه ما ينبغى ان يعرف ، عن أولئك الاعلام الذين شيدوا تلك الصروح الشامخة من معالم الفكر العربى التى ما تزال تبهر أبصار من تتاح لهم سبل تأملها ، وتتبع منابع الضوء ومسارات اشعته فى حياتنا عبر عديد من الأجيال والقرون .

وشخصيته ، هى الأجدر بأن تعالج بالدرس والتحليل ، اذ فيها من عناصر التكوين ، وما ترتب عليها من بروزه كرجل فقه وسياسة ، ما يبعث على التأمل الطويل والاعجاب البالغ ما يحرك الحوافز ويستثير الخيال .

ومع ذلك فاننا نجد كتابه (طوق الحمامة . فى الألفة والألاف) الذى يتميز بموضوعه الفريد بين كل ما عالج مؤلفه من مواضيع الفقه فى الشريعة الاسلامية مما يبدو لنا أنه الأقدر على امتاع المستمع فى هذه الساعة من يوم نعلم انه ينقضى ، ولا ينقضى مشاغل ومتاعب ، تستغرق من حياتنا كل ساعات الليل والنهار .

****

فطوق الحمامة فى الألفة والالاف ، اذن ، هو الذى نتحدث عنه وهو الذى نتوخى ان يجد فيه القارئ ، بعض ما يتيح له رحلة قصيرة فى الآفاق التى يحلق فيها مؤلفه ، ونحلق فيها نحن معه ، وهى آفاق تظل قريبة الى تطلع النفس الى شئ من

الدعة والراحة ، والى شيء منّ استجلاء مضمون كتاب فى الحب ، وفى الحب فقط ، يؤلفه فقيه من اكابر الفقهاء فى الشريعة وصاحب موسوعة (المحلى) التى تعد واحدة من اعظم المراجع فى اكثر من الفى مسألة من مسائل الفقه غطت جميع ابوابه ابتداء من الوضوء مرورا بالمعاملات ، وانتهاء عند الجنايات والحدود .

على اننا لا نجد بدا من ان نلم بالمؤلف المامة قصيرة ، اذ يتعذر ألا نراه فى كتابه ، يطالعنا بشخصيته ، وبالتفاتاته ، وبمشاعر قلبه ووجدانه وبرصيده الضخم من الخبرة بطبيعة مشاعر الحب ، او الألفة كما يريد هو ان يسمى (الحب) .

****

والمؤلف هو (ابو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسى) ، صاحب (المحلى) فى فقه المذهب الظاهرى ، وصاحب كتاب (الفصل فى الملل والنحل) وكتاب (الأخلاق والسير فى مداواة النفوس) وكتاب الأحكام فى أصول الأحكام) ، والى جانب هذه الموسوعات ، ما قيل انه يبلغ اربعمئة مؤلف بين كتاب ورسالة تجاوز عدد صفحاتها الثمانين الف صفحة ، عالج فيها الكثير والمتنوع من قضايا الفكر فى عصره ، مما جعل عددا من كبار العلماء والمؤرخين يعدونه (اعلم أهل الأندلس) .

ونجد من اخبار نشأته أن أباه كان وزيرا للمنصور بن ابى عامر ، فى قرطبة ومن طبيعة هذا المقام ، وعلى الأخص فى ذلك العصر فى الأندلس ، ان تلين مسالك الحياة ، وان تتوفر فيها اسباب الترف والرغد ، فكان بيته والبيئة التى نشأ فيها عامرين ، بالحياة الرغدة والنعمة السابغة ومنها ان تزدان اروقة القصر وقاعاته بالجميلات من فتيات الحروب المأسورات ، يسطعن بجمالهن ، وتسطع من حولهن وفى سبيلهن فنون الزينة والبهاء والاغراء .

قالوا : ان التى احفظت ابن حزم القرآن جارية من جوارى القصر ، فلما حان وقت تفرغه للدرس والتحصيل ، احضر له أبوه بعض مشاهير شيوخ العلم ، وقد استطاع ابن حزم ان يجمع بين حوافز الجمال والفتنة من حوله ، وبين طلب العلم، فكرّس له حياته كلها ، الى ان عصفت ببيته ومقام هذا البيت الفتن ، وما كانت تعانيه الأندلس من

عدم الاستقرار السياسى . فنزح ابن حزم من قرطبه الى (شاطبة) احدى مدن امارة بلنسية .

وفى شاطبة كتب ابن حزم (طوق الحمامة فى الألفة والألاف) . استجابة لما تلقاه من صديق له عليه (حق المنشأة ومحبة الصبا) كلفه ان يصنف له رسالة فى (صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة) .

وعلى كثرة ما كتب الكاتبون عن الحب وفنونه . وباعثه وشجونه . فان طوق الحمامة يظل كتابا فريدا فى معالجة موضوع الحب . بهذه الطريقة المنهجية التى لا ترسل الكلام ارسالا عفويا . وعلى غير وجهة مرسومة . وانما على أساس من تخطيط دقيق وتبويب متقن ومدروس . حتى ليجعل من الموضوع . كله ما يشبه علما من العلوم . له القواعد والأصول . والمقدمات والنتائج . وما لهذه النتائج من ردود فعل وأثر فى النفوس .

****

يقول ابن حزم . بعد هذه المقدمة القصيرة التى يوجهها الى الصديق الذى كلفه الكتابة فى الموضوع :

(قسمت رسالتى هذه على ثلاثين بابا منها عشرة فى اصول الحب) فنرى من هذه الأصول ابوابا . منها : علامات الحب .. ومن احب فى النوم .. ومن احب بالوصف .. ومن احب من نظرة واحدة .. وباب التعريض بالقول .. وباب الاشارة بالعين ..

فاذا انتقلنا من القواعد والأصول . نجد أمامنا (اثنى عشر بابا) فى اعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة . ومن هذه الأبواب (طى السر .. والوفاء والغدر .. والضنى .. والموت .) ثم هناك ستة ابواب منها : (باب العاذل . والرقيب .. والواشى .. والهجر .. والسلو) .

****

وحين يشرع فى تفصيل ما اجمل من هذه القواعد والأصول يقول : (الحب اعزك الله ـ اوله هزل وآخره جد .. دقت معانيه لجلالتها عن ان توصف .. فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة ..) ثم يقول : (وليس بمنكر فى الديانة . ولا بمحظور فى الشريعة . اذ

القلوب بيد الله عز وجل) .

ويستشهد على ما قدم فيقول : (وقد احب من الخلفاء المهذبين والأئمة الراشدين كثير .. منهم بأندلسنا ، عبد الرحمن بن معاية .. الدعجاء .. والحكم بن هشام . الى آخر من يذكر من خلفاء الأندلس ومن احبوا من النساء ، منهن طروب وغزلان ..

ثم يقول فى هذا الباب : (والمحبة ضروب .. وأفضلها محبة المتحابين فى الله عز وجل .. ومحبة القرابة .. ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب .. ومحبة التصاحب والمعرفة .. ومحبة العشق التى لا علة لها الا ما ذكرنا من اتصال النفوس) . ويقول عن هذا العشق: (إنه استحسان روحانى وامتزاج نفسانى) . ويذهب فى التفصيل الى ما يبهر الآراء وفنون الاستشهاد التى تليق بسعة علمه ، وواسع احاطته بموضوعه مما يجعل القارئ يشعر أن طوق الحمامة ليس كتاب تسلية وتزجية فراغ ، وانما هو كتاب علم لابد ان يفرغ لتأمله العلماء ، كما يفرغ له ويأنس بعناصره عامة الناس .

وحين نقرأ باب (علامات الحب) .. ونرى ما فيه من التفاصيل الدقيقة ندرك ان ابن حزم غفر الله له ، يكتب تجاربه فى أيام صباه وشبابه ، فى ذلك القصر الذى كانت تزين أروقته وقاعاته جميلات الأندلس بكل ما خلع عليهن الاعجاب من الفتنة والدلال . فعلامات الحب التى يعددها فى اكثر من اثنتى عشرة صفحة تريك ما لا يخطر لك ببال من الخبرة والتجربة التى تتيح مثل هذا الحصر الدقيق لهذه العلامات .. وتريك ايضا عطاء هذه التجارب ، فى ماضى حياته شعرا قد لا يتوفر له ما نعهد فى اساليب الشعراء من رقة وحسن احتيال على اداء المعنى ، ولكن لا يخلو مع ذلك من معان حلوة ، تصور الواقع الحسى الذى عاشته التجربة .

فهو يقول مثلا : (ولى فى معنى انتظار الزيارة :)

اقمت الى ان جاءنى الليل راجيا ... لقاءك يا سلوى ، ويا غاية الأمل
فأيأسنى الأصلام عنك ولم اكن ... لا يأس يوما ان بدا الليل يتصل
وعندى دليل ليس يكذب خبره ... بأمثاله فى مشكل الأمر يستدل
لأنك لورمت الزيارة لم يكن ... ظلام ودام النور فينا ولم يزل

ثم يقول : (ومن اعراض الحب : الجزع الشديد ، والحمرة المقطعة تغلب عندما يرى من اعراض محبوبه عنه ونفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة ، والتأوه وتنفس الصعداء) ويقول فى ذلك شعرا منه :

جميل الصبر مسجون ودموع العين سارحة

ومن هذه العلامات التي احصاها ابن حزم : انك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، (حتى يكونوا احظى لديه من اهله ونفسه ومن جميع خاصته) .

والبكاء من علامات الحب .. وهو يفصل لنا هذا البكاء ، ويقول : (ان المحبين يتفاضلون فيه .. فمنهم غزير الدمع ، هامل الشؤون تحيبه عينه وتحضره عبرته اذا شاء ومنهم جمود العين عديم الدمع وانا منهم) .

وقد قال شعرا فى حال البكاء ، ولكنه قاله قبل بلوغ الحلم :

دليل الأسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يحمى ويسفح
اذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدى وتفضح

****

وفى باب (الطاعة فى الحب) يقول : (ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصرفه طباعه قسرا الى طباع من يحب .. وربما يكون المرء شرس الخلق صعب الشيكمه .. جموح القيادة .. ماضى العزيمة ، حمى الأنف ، ابى الخسف .. فما هو الا ان يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره .. ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليانا ، والصعوبة سهلة .. والمضاء كلالة .. والحمية استسلاما) .

ويقول فى هذا المعنى شعرا :

فهل للوصال الينا معاد وهل لتصاريف ذا الدهر حد
فقد اصبح السيف عبد القضيب واضحى الغزال الأسير اسد

والهجر باب من ابواب كتاب طوق الحمامة ، وله هو ايضا ضروب .. وهى ضروب يدهشك حصرها ، والكلام عن كل ضرب بما يدل على التتبع الدقيق والاحاطة

الواسعة ، وكلاهما يؤكد التمرس بالحب صنوفا والوانا ، يندر ان تتاح الا لمن افسحت له الدنيا من صدرها ، واغدقت عليه من فرصها وسوانحها .

وأول هذه الضروب : هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر .. وانه لأحلى من كل وصل وهو يقول عن هذا الضرب : (ولولا ان ظاهر اللفظ ، وحكم التسمية يوجب ادخاله فى هذا الباب لرجعت به عنه ولأجللته عن تسطيره فيه ..) ثم يقول : (وانه لمن المشاهد الجالية للفتن ، والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر ، المهيجه للضمائر .. الجاذبة للفتوة) .. من هذا يقول فيها :

وكم صاحب اكرمته غير طائع ولا مكره الا لأمر تعمدا
وما كان ذاك البر الا لغيره كما نصبوا للطير بالحب مصيدا

ويمضى فى ذكر انواع الهجر ، فهناك هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب .. ثم هجر يوجبه الوشاة .. ثم هجر القلى الذى يقول فى وصفه : (وهنا ضلت الأشاطر .. ونفدت الحيل وعظم البلاء .. وهو الذى خلى العقول ذواهل) . ويقول فى ذلك شعرا :

سقى الله اياما ولياليا تحاكى لنا النيلوفر الغض فى النشر
فاوراقه الأيام حسنا وبهجة واوسطه الليل المقصر للعمر
لهونا بها فى غمرة وتالف تمر فلا ندرى وتأتى فلا ندري

وفى باب الوفاء من ابواب الحب يقول :(من حميد الصفات وكريم الشيم وفاضل الأخلاق فى الحب وغيره .. الوفاء .. وانه لمن اقوى الدلائل واوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر ، يتفاضل بالتلازم للمخلوقات بعنصره ذلك اقول شعرا :

افعال كل امرئ تنبي بعنصره والعين تغنيك عن ان تطلب الأثرا

ثم هناك باب (الغدر) .. ويقول فيه : (وكما ان الوفاء من سرى النعوت ونبيل الصفات ، فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها) ثم يمضى فى تفصيل انواع الغدر واخباره ومدى قبحه وسيئ اثره .

ثم ، نجد فى الكتاب ، باب (البين) وهو الفراق .. فهو ينقسم اقساما . فمنه

(مدة يوقن بانصرافها وبالعودة عن قريب ..) ومنه (بين منع من اللقاء وتحظير على المحبوب من ان يراه محبه فهذا ـ ولو كان من تحبه معك فى دار واحدة ـ فهو بين ، لا أنه بائن عنك وان هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل ..)

ثم يقول : (ولقد جربناه فكان مرا ..) وقال فى ذلك شعرا :

ارى دارهــا فى كل حــين وساعة	ولــكن من فى الــدار عنــى مغيب
وهــل نافعــى قرب الــديار واهلها	على وصلهــم منــى رقيب مرقب
فيالك جار الجنــب اسمــع حسه	واعلــم ان الصــين ادنــى واقرب

ويقول فى قصيدة أخرى :

وعهــدى بهنــد وهــى جارة بيتنا	واقــرب من هنــد لطالبهــا الهند

****

واذا كان الكتاب عن الألفة والآلاف ، او عن (الحب) ، ولا سبيل الى استيفاء كل ما استوفاه من شوارد موضوعه ، الا بالكثير من اخباره فان لمحات كثيرة من حياته تطالعنا هنا وهناك من فصول الكتاب ، وتسمح لنا ان نرى فى هذه اللمحات صورة او صورا لما كانت تحفل أيام صباه وشبابه من البلهنية والرخاء .

فمن ذلك على سبيل المثال المتعجل فى باب (قبح المعصية) نجده يقول : (لقد ضمنى المبيت ليلة ـ فى بعض الأزمان ـ عند امرأة من بعض معارفى ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم .. ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا .. ثم غبت عنها اعواما كثيرة) .. ويشرع فى وصفها فيقول : (ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض وانساب .. وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت .. وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن ، فاشرقت وتوقدت .. وانبعثت فى خديها ازاهير الجمال فنمت واعتمت .. وكانت من اهل بيت صباحة .. وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف) ثم يقول : (ولقد امتنعت من دخول الدار خوفا على لبى ان يزدهيه الاستحسان .. ولقد كانت هى وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع اليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل وفى ذلك اقول :

لا تتبـع النفس الهوى ودع التعـرض للمحن
ابليس حى لم يمت والعـين باب للفتن

****

وفى خاتمة الكتاب ينبه الى مبالغات الشعراء ، عن الافراط فى النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار ، وعدم النوم البته ، وانقطاع الغذاء جملة . فيقول : (انها أشياء لا حقيقة لها .. وانما اقتصرت فى رسالتى على الحقائق المعلومة التى لا يمكن وجود سواها اصلا ..) ولا يفوته وقع ظهور كتاب فى موضوع الحب ، من مثله علما وفقها ، فيقول : (وانا اعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفى لمثل هذا ويقول : (انه خالف طريقته وتجافى عن وجهته وما احل لأحد ان يظن فى غير ما قصدته . قال الله عز وجل : (اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم) .





مــيّ

شهد هذا القرن من الزمان ، الذى لاتزال فيه بقية من الليالى الحبالى الكثير من الأمل فى غد أفضل ، وبالأكثر من البرتقال الدخان الذى تتفجر به قنابل الدمار من كل صنف ، وفى كل اتجاه .. شهد هذا القرن ـ وفى أوائله على الأخص ازدهارا للأدب العربى وكاد ينسينا أن هذا الأدب ، قد عانى ما عانته شعوب المنطقة من تخلف وجمود طيلة ما لا يقل عن خمسة قرون .

ومع ازدهار هذا الأدب ، بالأعلام من الرجال ، فى الشعر ، والرواية ، والقصة القصيرة ، والمسرحية ، ازدهر أيضا بالاعلام من النساء ، فى الشعر خاصة ، وفى ما تنبض به مشاعر المرأة فى هذا الشعر ، الذى كانت الآنسة (مى) أو مارى زيادة فى الطليعة من المتطلعين والمتطلعات الى تجديد شبابه ، ان لم يكن بالنظم ، وبالتفعيلة والقافية فبالنثر الشعرى الذى تتجنح فيه الكلمة ، وتريق عليها الاحاسيس العميقة الوان الطيف ، لترى فى الكلمة قدرتها على التنقل بين أفواف الزهر ، وعلى أن تتبرج بالوشى الدقيق ، واللمسات الناعمة فتغريك بالانطلاق ، أو بالترامى وراء أحلام الانوثة بكل ما فى دروبها من ورود وأشواك .

ولدت مارى زيادة ، التى عرفتها الاوساط الأدبية فى القاهرة ، باسم (الآنسة مى) فى عام ١٨٨٦م. وحين أطلت السنة الأولى من القرن العشرين كانت فى الرابعة عشرة من عمرها . وأبوها وأسرتها من لبنان ، ولكن والدها (الياس زيادة) وجد عملا فى

الناصرة فى فلسطين ، فانتقل اليها ، وكانت مارى أول من أنجب من الذرية ..

ويقول بعض من كتب سيرتها : إنها فى تلك السن ـ الرابعة عشرة ـ وفى الناصرة ، في احدى مدارسها ، كانت بهجة الحى الذى تسكن فيه أسرتها ، تدهش بذكائها المبكر كل جيران الأسرة . ورزق أبوها بعدها ابنا لم يقدر له أن يعيش طويلا فكانت مارى ، وحيدة أبويها .

ونراها فى هذه السن المبكرة تكتب مذكراتها كطالبة فتقول : « إنى تعبة .. أنفر من الحركة ومن كل مجهود ولو كان طفيفا .. وقد مضيت بعد الفطور أهيئ كتبى الموسيقية لتكون رهن يدى عند درس البيانو فى الساعة العاشرة) ونرى أن روح المرح تغلب على طبيعتها ، ولا سبيل الى هذا المرح والانطلاق فى المدرسة الداخلية التى أرسلت اليها فى لبنان .. ولكنها تعلم أن لا سبيل الى أن تشبع نهمها الى الارتواء من العلم والثقافة الا بالاستمرار فى الدراسة .

ونجدها فى احدى الليالى، وقد هجعت زميلاتها من الطالبات ، الى مضاجعهن يمزق مشاعرها قلق غامض فلا سبيل الى أن يغمض لها جفن ، فتكتب . « ما أسرع ما يمر الزمن! » ثم تضيف « ان أنا شعرت بالزمن يتعجل الرحيل وأنا فى حداثتى ، فماذا سوف يكون شعورى عندما أتقدم فى الحياة أعواما أخرى ؟.. وبعدئذ .. بعدئذ عندما أمسى عجوزا » ويبدو أنها مدت بصيرتها الى الزمن الطويل ، والى شخصيتها حين تصبح تلك العجوز فتضيف . « عجوزا ؟؟؟ .. أنا .. أترانى أصل الى ذلك العمر .. وكيف يكون المرء عجوزا .. كيف يشعر عندئذ ..؟؟ وكيف يفكر ..؟ يخيل الى أنى سأرحل قبل ذلك وأن الموت سيحملنى غضة الشباب ، فيطير بي الى حيث تسبح الملائكة وتظل الأزهار ناضرة متفتحة » .. وكأنها تفكر فى الموت فتقول : « أشتاق الى الموت فى هذه الأيام لأنى لا أفهم الحياة التى يقول المدرس : أنها مشتكلة المشاكل »

وكان الياس زيادة ـ أبو مارى ـ يتطلع الى الالتحاق باللبنانيين الذين انتقلوا الى القاهرة ، وشقوا فيها طريقهم الى الشهرة والنجاح .. ونفذ فى النهاية فكرته فانتقل بأسرته ـ ومعه مارى ـ الى القاهرة . وكان طبيعيا أن تشعر بالغربة ، والوحدة ، اذ ما

أقل معارفها ، وما أقل الصديقات والزميلات اللائى كانت تعيش معهن فى مدرستها الداخلية فى لبنان أو فى الناصرة حيث تقيم أسرتها فى فلسطين .

وتضيق بالقاهرة ، وبتدريس الصغار من أبناء الثرى اللبنانى الذى أغدق على أبيها الكثير من المساعدات ، فتقرر العودة الى لبنان .. وفى ذهنها مجموعة مما كتبت ، واستقلت باخرة من الاسكندرية الى بيروت ، ومنها انتقلت لتقيم فى (برمانا) .. ومنها تتنقل فى كل دروب الجبل الاشم ، وكل دروبه زهر وعطر وخضرة تملأ القلب بأنخاب من الدعة والهدوء ، وبالتوق الى التحليق فى أجواء الحب .

وفى لبنان ، وفى عنفوان شبابها ، وعنفوان عواطف هذا الشباب ، قرأت لجبران خليل فسحرها أسلوبه وكانت هى قد نشرت مجموعة من عطائها ، وعادت الى القاهرة ، وفى أحلامها جبران .. وجبران ندر أن خلا ذهن شابة أو شاب من قرائه من أحلامه به ، وبما كان يكتب ، فيدفق فى قلوب الناشئة تلك المشاعر الغامضة ، والتوق المتوثب الى آفاق تراها البصيرة ، ويحلق فيها الخيال ولكن تعجز عن رؤيتها العين ، وعن لمسها الحواس .

ومن القاهرة كتبت الى جبران ، وفى ذهنها أنها لا تختلف عن أى فتاة من الطبقة الراقية فى فرنسا ، كانت لا تتردد فى الكتابة الى (فولتيير) .. وحدثت جبران عن نفسها ، وحياتها ونشاطها الأدبى ، وأثر جبران فى عواطف قرائه .

ولا يطول بها انتظار رد جبران ، وان كانت تشعر فى قرارة نفسها أنه قد لا يجيب فمن هى بالنسبة اليه ؟؟ ولكن جبران كان فى ظرف سيئ ، وكان يعانى من الوحدة والوحشة ، والفتور الذى طرأ على علاقته بالسيدة التى احتضنته وابتعثته على نفقتها الى (باريس) لدراسة الفنون التشكيلية وهى السيدة الأمريكية (مارى هاسكل) .. فكانت رسالة مى اليه ، وهى فتاة ، وشاعرة ، وتنشر لها (البروجريه) وهى الجريدة الفرنسية فى القاهرة مقالاتها من النثر الشعرى ، باللغة الفرنسية ، كما تنشر لها الصحف والمجلات العربية ، الكثير من هذا النثر المزدحم بالعواطف المجنحة والأحلام الرفافة ، كانت .. نافذة الى أمل فى تبديد السحب التى كانت تلف حياته .. فكتب

اليها ، وأثنى على نشاطها .وأسلوبها وأفكارها ، وأهداها نسخة من كتابه « الأجنحة المتكسرة » وفيه قصة لجبران بطلتها (سلمى-كرامة) . التى تحب رجلا غير زوجها . فيدهشنا أن تنبرى (مى) لمناقشته ، وانتقاد آرائه فيما يبدو اباحة لهذا الحب وان كان كما حاول أن يؤكد فى القصة ـ بريئا عفيفا وطاهرا ـ ونرى (مى) لا تعترف بمثل هذا الحب ، ولا يبرر الطهر والعفة ، ما تعتبره خيانة للأمانة ، أمانة المرأة التى التزمت بالزواج ، الوفاء لزوجها وحده ما دامت قد ارتضته زوجا .

وتمضى فترة من حياتها ، فى القاهرة حيث تغادرها فى الصيف الى لبنان ، وتوالت رسائلها الى جبران ورسائل جبران اليها .. ومع هذه الرسائل كان رجال الفكر فى مصر يشهدون ظاهرة هذه الفتاة اللبنانية الكاتبة الشاعرة وباللغتين الفرنسية والعربية ، وأسلوبها فى اللغتين يثير العواطف ويوغل فى أعماق النفوس .. فكان من طبيعة الأشياء أن يلتفت اليها هؤلاء الرجال وأن يلتمسوا السبل الى لقائها .. وشهد ما سمى فيما بعد (صالون مى) تشبيها بصالون (جورج صاند) .. أكابر رجال الفكر ، وهو احدى غرف طابق ارتفقته فى شارع (مظلوم باشا) . غرفة فسيحة ، ليس ما يمنع أن تسمى (بهوا) أو (قاعة) .. أو (صالونا) .. وقد حددت (مى) يوم الثلاثاء من كل أسبوع لاستقبال الكتاب والفنانين فى هذا الصالون .. ومنهم اسماعيل صبرى الذى عبر عن لهفته على يوم اللقاء بقوله :

« روحى على بعض دور الحى هائمة كظامئ الطير ، تواق الى الماء
ان لم امتع (بمى) ناظرى غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء »

وشهد صالون مى من اكابر رجال الفكر فى مصر .. ولى الدين يكن ، وطه حسين وأنطون الجميل ، وداود بركات .. وأحمد شوقى ، ولطفى السيد باشا ، ومصطفى عبد الرازق ، وخليل مطران ، وعباس محمود العقاد ، ومنصور فهمى ، وشبلى شميل ومصطفى صادق الرافعى ، ويعقوب صروف .

ويطول الحديث ، عن الأدباء ورجال الفكر الذين ذكرناهم فى حياة (مى) واذا استثنينا المرحوم (الدكتور زكى مبارك)، فقد يمكن القول : إنهم جميعا كانوا عشاق لهب

.. يبتهجون بالشعلة ، ولكنهم يخشون الاقتراب منها .. أما زكى مبارك ، فقد زاملها فى الجامعة المصرية ، والمشهور عنه أنه ـ وحده ـ كان يبغضها ويستثقل ظلها . أما المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، فقد اشتعل قلبه غراما بها ، فكتب تحفته الرائعة(أوراق الورد) ثم (السحاب الأحمر) .. ومع ذلك فقد كان الرافعى ، أكثر هؤلاء جميعا توقرا معها ، وتعففا عن مصارحتها بمشاعره .. كان حبه لها ، نموذجا للحب العذرى فى القرن العشرين .. وليس لدينا ما يؤكد أن مى قد أحبت أحدا من هؤلاء جميعا ، ولكن لا شك فى أن شعورها نحو جبران ، كان يختلف عن شعورها نحو أى مخلوق .. صحيح أنها كانت تضعه فى اطار(الإخاء) ولكن هذا يتفق مع طبيعة الموقف اذ كانت تفصل بينه وبينها ألوف الأميال .. ومع ذلك ففى بعض ما كتب جبران اليها وبعض ما كتبت مى اليه ، ما يلمح الى أن ما بينهما كان حبا يتمنى معه جبران لو يستطيع أن يضمها الى صدره .. قبل أن يعانق الفناء .. ومات جبران .. وموته كان الكارثة التى أتمت قصة أحزانها بعد أن نيفت على الأربعين .. وذهبت تلك الفتاة المرحة الفاتنة ، التى تحترق فى صالونها القلوب وحلت محلها (تلك العجوز .. التى رأتها ذات يوم فى ليلة من ليالى أرقها وهى طالبة فى المدرسة الداخلية فى عينطورة بلبنان ..) خصوصا وأن أباها وأمها قد توفيا وتركاها للوحدة والوحشة وخطوط الزمن على جبهتها ، وتحت أجفانها ، فأخذت تبتعد عن المجتمع ، وتؤثر العزلة ، ثم انطلقت فى رحلات الى فرنسا ، ثم انجلترا ، وعادت الى القاهرة لتستأنف الرحيل الى ايطاليا .. وتكررت رحلاتها ، وفى صحبتها ، القلق والنفور من المجتمع ، ثم الشعور بأنه يضطهدها .. وازداد هذا الشعور بالاضطهاد ، الى حد لا يختلف كثيرا عن حالة من حالات الجنون .. وكان الدكتور طه حسين من القلائل جدا الذين يبذلون جهدا طائلا ، للتخفيف من مأساتها ، والعجيب ، انها مع هذه الحالة لم تنقطع عن الكتابة ، وعن تسجيل مشاعرها .. ومما تكتبه الى أحد أقاربها فى لبنان ، (خذونى الى قريتى الشجراء الراقدة تحت حنايا الأفق على هدهدة الناى .. لست أطلب من أرضى الا القليل من التراب) . ويتعذر تصديق انها بعد عودتها الى لبنان ، ازدادت حالتها سوءا ، الى حد اضطر معه أقاربها

الى أن يدخلوها مصح الأمراض العقلية المعروف باسم (العصفورية) .. ولسنا ندرى . كيف استطاعوا ادخالها هذا المصح . ولكنا نعرف انها حين وجدت نفسها فيه ، ثارت ثورات ، اتخذها أقاربها والمشرفون على ادارة المصح دليلا دامغا على الجنون ..

وتسامع الأدباء والصحفيون فى لبنان بما وقع (لمى) ، فحملوا على من ادخلها المصح وطالبوا باطلاق سراحها .. وتمخضت الحملة عن نقلها الى مستشفى للمرضى بأى مرض سوى الجنون .. وفى هذا المستشفى حاول زيارتها الكثيرون ، ولكنها ظلت ترفض أن تقابل أحدا ..كما أضربت عن الطعام .. وأخيرا استطاع أمين الريحانى أن يقتحم عليها الباب قسرا ، وأن يتحدث اليها .. فاذا بها تشكو اليه اضطهاد أقاربها ، وتكشف عن حقيقة الغرض من هذا الاضطهاد ، وهو الاستيلاء على أموالها .. فقد أوقعوا الحجر على كل ما تملك ..

وأخيرا غادرت المستشفى .. وعاشت حياة رتيبة ، ليس فيها ما يدل على اضطراب من أى نوع فى قواها العقلية ولشد ما فوجئ المثقفون فى لبنان ، حين أعلنت للصحف أنها ستلقى محاضرة فى (الوست هول) فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ..

وازدحمت قاعة الوست هول ، بمن تطلعوا الى اكتشاف ما اذا كانت (مى) مجنونة حقا ، أم متهمة بالجنون .. ووقفت (مى) .. وراء منصة الخطابة .. امرأة .. هزيلة .. ملأت وجهها التجاعيد .. بيضاء الشعر .. حتى لقد وجد من سخفاء الشباب ، من قال : إنه يتقزز من منظرها ..

وبدأت (مى) تتكلم فاذا بالأكف تلتهب بالتصفيق ، والاعجاب ، وتقاطع مرة بعد أخرى ، بهذا التصفيق ويطلب اعادة ما قالت .. وانتهت محاضرتها بكلمة تقول : « ثقافة فرد واحد ، تثقف أفرادا عديدين .. نور صغير واحد يضئ بقعة واسعة .. قوة فرد واحد يمكن أن تدفع الى الحياة ألف بطل »..

وبعد أن رفع الحجر على أموالها وتصرفاتها عادت الى القاهرة .. وعاشت فى شقة أرضية .. وقد تفرق عنها كل رواد صالونها ، الا لطفى السيد ، وأنطون الجميل ،

وخليل مطران ..

وعلى سرير أسود فى غرفة موحشة فى الطابق الأرضى ، وعند منتصف الليل سمعتها خادمتها تشهق شهيقا حادا ، وكأنها تختنق .. فأسرعت اليها لتراها جاحظة العينين ، يتعذر عليها أن تتكلم لما أصيبت به من ضيق النفس .. فاشارت الى قلبها .. وظلت الأزمة تسحق كل ومضة من حياتها حتى الساعة العاشرة صباحا من اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمئة وواحد وأربعين ، حيث أسلمت آخر أنفاسها .

ونشرت الصحف خبر وفاتها .. ومع ذلك فما أقل من شيعها الى مثواها الأخير !! اذ لم يمش وراء نعشها أحد سوى لطفى السيد باشا ، وأنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام . والشاعر خليل مطران . وسيدة واحدة . وعدد قليل من الناس أغلب الظن أنهم من جيرانها فى العمارة التى تسكن فى طابقها الأرضى ..

ولم يملك لطفى السيد باشا ، أن يمسك الدموع التى ملأت عينيه وهى توارى فى ضريحها .. وتماسك واستطاع أن يقول كلمة رثاها بها ، ولكن دموعه كانت أبلغ من كلماته .

ومن سخرية الحياة ، وواقعها السخيف ، أن مصر أقامت حفلة بعد أربعين يوما من وفاتها .. تبارى فيها الخطباء والشعراء بالكثير مما يقال فى مثل هذه المناسبات .. وليس فيهاالا فرحة بالمأساة ، تتيح التجمع والتبارى واستعراض عضلات البلاغة والبيان ..



الشيخ عبد العزيز البشري

ما أقل من يعرفون من أدباء هذه الأيام ، وحتى الذين طال لهم الباع ، وامتد لهم الظل ، علما من أعلام الأدب العربى ، الذين كانت تحتفل بروائعهم كبريات الصحف والمجلات ، فى مصر ، احتفالها بشاعريها الكبيرين شوقى وحافظ !

ما أقل من يذكرون الشيخ عبد العزيز البشرى ، الذى زامل خليل مطران فى فترة رياسته لتحرير جريدة الأهرام وأمتع قراء السياسة الأسبوعية ، التى كان يرأس تحريرها محمد حسين هيكل باشا ، ولا يكتب فيها الا أساطين النهضة الأدبية فى أوائل هذا القرن ، وفى مقدمتهم المرحوم ابراهيم عبد القادر المازنى ، والدكتور طه حسين ، وعبد الرحمن شكرى ، وعباس حافظ ، وعباس محمود العقاد ، ولطفى السيد ، وهم الذين ما يزال الأدب العربى مدينا لهم بالوثبة الكبرى ، التى انتشلته من وهدة الانحطاط والجمود ، وبعثت فى أعطافه انتفاضة التطور والانطلاق .

يصعب أن أقول ، ان عبد العزيز البشرى ، يكاد يكون الوحيد بين أدباء مصر فى مطلع هذا القرن الى ما بعد الثلاثينات منه ، الذى لم يفرغ لدراسته والترجمة له الدارسون والمترجمون والمحققون ، ولكننى لا أتردد فى أن أؤكد أنه ظل أقل الأدباء حظا من اهتمام الدارسين فاذا كانت قد ظهرت أو صدرت دراسة عنه أو ترجمة لحياته فهى لم تحظ بما هى خليقة به من عناية والتفات .

ونستطيع أن نعى مكانة البشرى ، حين نقرأ لشاعر القطرين خليل مطران مقدمته

للجزء الأول من (المختار) لهذا الكاتب الفحل اذ نجده يقول :

« إنه (ويعنى البشرى) .. أعرف من كل معرف بين الناطقين بالضاد فى مشارق الأرض ومغاربها .. فلقد سامنى من هذا التقديم ما ليس بيسير .. على أني سأطلع من ثنايا مباحثه الى ذروة أرفع عليها علم أدبه ، وسأقتبس من آيات نبوغه ما أجلو به ـ للمطالعين ـ أمثلة من صور فضله » .. ثم يقول خليل مطران :

« وبعد .. فلم لا أقف من هذا الكاتب (ويعنى المختار) موقف الدليل من المتحف ، فهو فى الحق متحف حافل بالمفاخر ، وكل طرفة من طرفه جديرة بأن تطالع فى تدبر وروية ».

والجزء الثانى ، يقدمه الدكتور طه حسين .. وعلى ما نعرف من حرص الدكتور طه على أن يظهر ما يعانيه من ضيق الوقت ومن تزاحم الراغبين فى أن يقدمهم الى القراء ، فاننا نجد عميد الأدب العربى يقول :

« رغبت الى الأستاذ الصديق عبد العزيز البشرى فى أن أقدم الجزء الثانى من كتابه المختار ، فتأبى على وأظهر امتناعا ثم التواء .. ولم أظفر منه بما أردت الا بعد جهد والحاح . وما رغبت اليه فى ذلك لأعرفه الى الناس . وقد عرفه الناس قبل أن يعرفونى .. ولا لأقدم كتابه الى القراء ، فليست آثار البشرى من الآثار التى تحتاج الى أن تقدم بين أيديها المقدمات .. وانما رغبت اليه فى ذلك لأنى أرى له دينا فى عنقى وفى عنق كثير من المثقفين فى هذا الجيل .. الذين يحبون الفن الرفيع من الأدب ويحرصون على الاستمتاع به ».

ثم يقول الدكتور طه حسين :

« كل هؤلاء المثقفين قد وجدوا عند البشرى ـ منذ أوائل هذا القرن ـ ما يرضى حاجتهم الى الأدب العالى والفن الممتاز .. وكلهم مدين له بساعات حلوة قضاها مستمتعا بلذة موسيقية رائعة كان يشترك فيها سمعه وقلبه وعقله .. وأيسر ما يجب للبشرى عند هؤلاء أن يعترفوا له بالفضل .. ويسجلوا له على أنفسهم هذا الجميل . ويشهدوا الأيام على أنهم ليسوا من الجحود والعقوق بحيث يقصرون فى ذات كاتب

عظيم كذلك الكاتب العظيم ».

والآن ، مع نتف من أدب هذا الكاتب العظيم .. فهو يقول تحت عنوان (مفتش عموم) .

(اعترضنى اليوم فى مقفلى من الديوان شاب أنيق الملبس .. لعله طالب فى احدى المدارس العالية أو فى السنين الأخيرة من التعليم الثانوى وقال لى : (يا عم) كم الساعة الآن ؟ فطالعت ساعتى وقلت له .. (الساعة ٢ وسبع دقائق) فحسر كمه الأيسر ، فانكشف عن ساعة ذهبية ونظر فيها وقال .. لا .. لا .. ساعتك مؤخرة أربع دقائق .. ثم خلى بينى وبين الطريق .. وانطلق لطيته ..

وبعد أن أجلت ظنى فى شأنه . أدركت أنه ربما كان .. مفتش عموم الساعات ..)

ويصف شابا من شباب تلك الأيام ، وليته رأى شبابنا فى هذه الأيام .. ونجده يقول : « لقد أرسل سالفيه حتى حاذتا سفلى شفتيه .. ورفع طرفى شاربيه حتى شارفا وجنتيه وبالغ فى تزيين هذا الشارب وتنسيقه ، حتى ما ترى فيه شعرة تميل عن صفها ، أو تنحرف عن موقفها ، كأنما هو (قرة قول شرف) يفتشه قائد عظيم .. وقد نصب على رأسه طربوشا طويلا استهلك اصله جبينه الدقيق .. وقد ركب على عينه اليسرى (مونوكل) مؤطرا بالذهب ودس فى فمه سيجارا طويلا غليظا .. ولست تراه الا ثانيا معطفه على ذراعه اليسرى .. ولو نزلت درجة الحرارة عن ٥ تحت الصفر .. وان مما يطير نومى أحيانا أننى لم أهتد بعد الى الوقت الذى يتخذ فيه هذا المعطف كما يتخذه سائر الناس .. فاذا التفت رأيته يلتفت جميعا ، كان ما بين رأسه وكتفيه كتلة من الخشب ، لا تلين ولا تنثنى ، وذلك كله خيفة اختلال القيافة باختلال شعر الشارب » .

توفيق الحكيم

من التقاليد الأكاديمية فى العالم ، ألا تكتب سيرة عظيم فى الأدب أو الموسيقى أو العلم أو الفن . الا بعد وفاته .. والسبب الكامن وراء هذا التقليد هو أن الحكم على العظيم اذا صدر من كتاب سيرته قد يطرأ ما يستلزم تغييره مادام حيا ، أما الحكم بعد وفاته ، فهو الكلمة الأخيرة أو الحكم النهائى الذى يصدره التاريخ على هذا العظيم لصالحه ، أو ضده ، أو لصالح المجتمع أو البيئة التى عاش فيها .

وتوفيق الحكيم ، ما يزال يعيش ، ونتمنى له طول العمر ، والمزيد من عطائه الخصب الذى ما يزال ثرا متدفقا فالحديث عنه ، يبتعد عن التقليد الأكاديمى ، ليقدم لمحات من حياته ، وعن آثاره أو انتاجه .

وفى محاولتنا لتقديم لمحات من حياة توفيق الحكيم وأدبه ، لابد لنا من الابتعاد عن الأسلوب أو المنهج الأكاديمى ، فليس مما يهم القارئ أن يعلم أين ولد توفيق الحكيم من مدن مصر أو ريفها ؟ ، ومتى ولد ؟ ، شهرا وسنة ويوما ، وانما الذى يهمه ، أو يهمنا أن يعلمه القارئ هو حياة توفيق الحكيم أديبا يضعه التاريخ المعاصر فى القمة السامقة التى يضع فيها رصفاءه وهم الدكتور طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وأنا أضع ابراهيم عبد القادر المازنى فى نفس المستوى سموقا وعمق أثر فى تطور الأدب العربى من حيث القدرة على النهوض به ، وتخليصه من الأسلوب التقليدى أو من أسلوب عصر الانحطاط الذى امتد الى أوائل القرن العشرين .. وحين أقول (أنا أضع

المازنى) مع هذه القمم ، فانى لا أنسى أن كثيرا من الدارسين والنقاد قد نسوا ما كان يتمتع به المازنى من تأثير عميق فى الحياة الأدبية ، وفى الأساليب على الأخص .

ويتعذر بالطبع أن نتحدث عن توفيق الحكيم حديثا يشمل هذه الحياة العريضة التى ملأت العالم قصصا ، ومسرحيات وروايات طويلة ، الى جانب مشاركاته ، ككاتب مقال ، لا يبلغ فيه مستوى العقاد أو المازنى أو الدكتور طه حسين ، ولكنه يظل ممن يعدون من كتاب المقال أو البحث فى العالم العربى .

ومازلت أذكر كيف ظهر توفيق الحكيم ، لأول مرة فى آفاق الأدب العربى .. كان ذلك فى عام ١٩٣٧ م عبر مقال للدكتور طه حسين تحدث فيه عن توفيق الحكيم فى مجلة الرسالة حديثا لفت اليه الأنظار ، واذا لم تخنى الذاكرة ، فقد كان حديث الدكتور طه عن مسرحية أهل الكهف التى كانت قد نشرت قبل أن يكتب عنه الدكتور طه بأكثر من ثلاث سنوات .

وفى الواقع ان توفيق الحكيم كان قد نشر عام ١٩٣٣ م أشهر قصصه الطويلة أو رواياته وهى (عودة الروح) ثم نشر فى نفس العام ـ على الأرجح ـ مسرحية (أهل الكهف) .

وأقبل المثقفون بعد ذلك على كل ما ينشره توفيق الحكيم من كتب بلغ عددها الى يوم صدور مسرحيته (بنك القلق) ما لا يقل عن أربعين كتابا ، ترجم منها الى لغات أخرى ، أهمها الفرنسية والانجليزية أكثر من أربعة وعشرين كتابا .

ويختلف النقاد فى نظرتهم وتقديرهم لمسرحيات توفيق الحكيم ، ولكنهم يتفقون على أن أهل الكهف هى قمة أعماله المسرحية وان كانت لم تمثل حتى اليوم ، أما عن قصصه ورواياته فان يوميات نائب فى الأرياف تجد تقديرا لا يقل عن التقدير الذى حظيت به قصة عودة الروح .

ومع ان توفيق الحكيم ، له رأى يقول .. ان الأديب لا يلتزم أو ان الأديب لا يستطيع أن يلزم الأدب باحترام التزاماته والنظر فيها ، لأن الغاية (على حد قوله فى الأدب والفن) لا تبرر الوسيلة .

والغرض الشريف وحده لا يستطيع أن يكون جواز مرور يدخل به أصحاب الأدب الرخيص هيكل الفن العظيم - مع ان توفيق الحكيم هو صاحب هذا الرأى فاننا نجده كاتبا ملتزما فى آخر ما صدر له وهو .. (بنك القلق) وقبله أعمال أخرى لا أستطيع أن أذكر عناوينها كان فيها توفيق الحكيم أديبا ملتزما بالخط الذى اتجهت فيه الحياة فى مصر طيلة ما يقرب من .. العشرين سنة الماضية .

ثم هناك ما يبدو أن النقاد ودارسى أعمال توفيق الحكيم قد فضلوا غض النظر عنه ، إما مجاملة لتوفيق أو احتراما للدعم الذى تمتع به خلال السنوات الأخيرة ، وعلى الأخص قبل نكبة الخامس من يونية عام ١٩٦٧م ..وهو أن توفيق الحكيم ليس فى الواقع مبتكر شخصية (بجماليون) وليس هو أول من كتب مسرحية عنها اذ أجد أن برنارد شو وغيره من كتاب المسرح الانجليزى والفرنسى قد كتبوا مسرحية بجماليون هذه قبل أن يكتبها توفيق الحكيم ، ولعل عذر توفيق الحكيم فى عدم اشارته الى هذه الحقيقة هو أن الشخصيات الاسطورية تظل ملكا مباحا لكل كاتب أو فنان ..

ولكن .. اذا التمسنا مثل هذا المبرر لتوفيق الحكيم فى مسرحية بجماليون فاننا لا نجد مبررا فى مسرحية (نهر الجنون) التى ظهرت لتوفيق الحكيم منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما وهى نفسها قصة (هـ . ج - ويلز) التى ظهرت لهذا الكاتب الانجليزى منذ أكثر من نصف قرن بعنوان (مملكة العميان) .

كان توفيق الحكيم بارعا فى تغيير مسار القصة ، وعناصر تكوينها بحيث كان النهر فى عمل توفيق الحكيم يحل محل (حالة العمى) فى مملكة العميان لـ (ه . ج . ويلز)

أما محاولات توفيق الحكيم ، فى تقليد صامويل بيكت ، وبوجين يونسكو فى أدب اللا معقول بمسرحية (يا طالع الشجرة) فانى اعتبره عملا أظهر براعة توفيق الحكيم فى التقليد ، ولكنه لم يظهر أصالته التى نعهدها فى أهل الكهف وعودة الروح ويوميات نائب فى الأرياف .

من مسرحيات توفيق الحكيم مسرحية قل أن التفت اليها الدارسون وهى .. مسرحية (مصير صرصار) يدور فى الفصل الثانى منها . هذا الحوار بين ساميه

وزوجها عادل .. ويصف توفيق الحكيم المسرح بأنه حجرة نوم بها سرير وخزانة ملابس ، وكتب ، ولهذه الحجرة باب يفتح على حمام به حوض كبير (بانيو) ثم حوض صغير فوقه مرآة ورف موضوع عليه فرش أسنان الخ .

سامية : (متسائلة) استيقظت يا عادل ؟

عادل : طبعا

سامية : (بشئ من الدهشة) هل رن جرس المنبه ؟؟

عادل : لا طبعا .. قمت من تلقاء نفسى كالعادة

سامية : عجيب أمر هذا المنبه .. ألم نضبطه معا قبل النوم على السادسة

عادل (**ببرود**) : ضبطناه كالعادة كل ليلة .. لكنه ينتظر حتى استيقظ أنا بنفسى ثم يرن

(جرس منبه يرن)

سامية : ها هو رن

عادل (**بسخرية**) : قاصدها بالتأكيد

سامية : حصل خير .. ما دمت أنت ..

عادل (**مقاطعا**) : ما دمت أنا أرن بدلا منه .. أليس كذلك ؟؟

سامية : وتستيقظ فى الميعاد

عادل : هذا هو المهم عندى

سامية : أراك ماشيا الى أين تذهب ؟

عادل : الى الحمام طبعا

سامية (**بحماس**) : ابعد من فضلك أنا أولا

عادل (**متسائلا بسخرية**) : نعم ؟؟ كالعادة ؟؟ أنا أنهض قبلك ، وأنت التى تدخلين الحمام قبلى

سامية : هذه هى الأصول

ويستمر هذا الحوار عن أيهما ينبغى أن يدخل الحمام قبل الآخر ، ويحاول توفيق

الحكيم عبر هذا الحوار أن يعطينا صورة من المجتمع الحديث ، الذى أصبحت المرأة فيه .. تعمل فى المصنع أو الشركة ، وكما يعمل الرجل ، ولكن الهدف من المسرحية يظهر أخيرا ، عندما نسمع سامية تصيح مستنجدة بعادل .

سامية (صائحة) : عادل .. عادل .. عادل .. تعالى بسرعة

عادل (مندهشا) : ماذا ؟؟ ما الذى حصل ؟؟

سامية (خائفة) : أنظر .. أما ترى

عادل (ببرود) : هذا صرصار

سامية (بعصبية) : طبعا صرصار .. لكن كيف دخل هنا

عادل (بسخرية) : كما تدخل كل الصراصير بيوت الناس

سامية (بعصبية) : أقصد .. هنا .. هنا .. هنا فى البانيو

عادل (ببرود) : ربما سقط من السقف

سامية (بعصبية) : يجب تنظيف البانيو حالا .. لكن لابد قبل ذلك من قتله

عادل (بدهشة) : قتله ؟؟

سامية (بعصبية) : بسرعة بسرعة .. مبيد الحشرات فى المطبخ

عادل (متسائلا) : وأنا الذى أتولى قتله ؟

سامية : طبعا طبعا

عادل (بسخرية) : طبعا .. لكن .. أنظرى أنه سيخرج من تلقاء نفسه

سامية (بارتياح) : يكون أحسن .. لأن قتله داخل الحوض ، يوسخ الحوض

عادل (ساخرا) : اذا .. يجب أن يخرج بكل لطف وأناقة حتى لا يوسخ لك الحوض

سامية (بارتياح) : وبعد خروجه تتولى أنت قتله

عادل (ساخرا) : وتكونى أنت قد هربت بعيدا

ونرى أن الصرصار يفشل فى التسلق للخروج من الحوض ، ولكنه يعيد الكرة مرات ومرات الى ما لا نهاية ، ويتعقد موقف سامية وعادل بحيث نراهما قد تعطلا عن الذهاب الى العمل واضطر عادل الى أن يطلب من طبيب صديق له أن يزوده بتقرير يثبت أنه

مريض يبرر غيابه عن الشركة ، وتقوم الخادمة بقتل الصرصار وتنظيف البانيو ، ونخرج من المسرحية ـ ربما ـ باشارة بارعة الى ضرورة الاصرار على بلوغ الهدف مهما كان المخلوق ضعيفا حتى ولو كان صرصارا .



إبراهيم عبد القادر المازني

فى عام ألف وتسعمئة وتسعة وأربعين . ودع الحياة الأدبية .. وفارق هذه الدنيا . علم من أكبر أعلام الأدب العربى . الذين إذا قيل : إنهم الأركان التى قامت عليها الحياة الأدبية المعاصرة . فليست الا كلمة حق . تقرر الفضل لهذه النخبة التى تألقت وشعت فى أعقاب ليل طويل من الخمود والركود الفكرى . فكانت الشموع . أو الشموس التى أضاءت السبيل الى الحاضر . وسوف تظل تضيئها فى المستقبل الى أمد جد طويل .

ابراهيم عبد القادر المازنى . ذلك الرجل النحيل الضئيل . الذى كان يملأ الحياة الأدبية . فى كل بلد عربى . حيوية وانطلاقا . ويضع للنهضة الأدبية ملامح . بل ونماذج الأسلوب العربى الذى يأخذ من روح العصر . الجدة والطلاوة ورشاقة الحركة . ويحتفظ له بأصالة القاعدة والأساس وبتلك الألفاظ من مفردات اللغة التى تمتد لها الظلال . ويرق لها الرنين . ويترقرق فيها الالق . بحيث تشعر وأنت تقرأ . أنك أمام اللغة الخصبة القادرة على أن تذلل رقاب المعانى الشامخة . وان تؤدى من أغراض الكاتب . ما لم تكن لتؤديه لولا ذلك الحس المرهف الذى كان يتمتع به المازنى فى اختيار اللفظ وادارته مدارا حافلا بالحركة والنبض والوميض .

ويقول المازنى عن نفسه : « بعد أن أكملت دراستى فى المدارس الثانوية . وعجزت عن دفع الرسوم فى كلية الحقوق . التحقت بمدرسة المعلمين ..

ومضت الأيام .. أعنى الأعوام وصرت معلما وتسلمت الشهادة بذلك . ولكننى لم

أفرح بها لأن ذلك كان بكرهى ، كما صار من لا أذكر اسمـه ـ فى رواية موليير ـ طبيبا على الرغم من أنفه .. فعينتنى الوزارة مدرسا .. وكنت صغير السن ، ولم تكن لى لحية ولا شارب ، فكنت أحلق بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بانبات الشعر .. فقد اشتهيت أن يكون لى شارب مفتول ، وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تجد فى فتيلا » .

وقد جمع المازنى بين الثقافة العربية الأصيلة من مراجعها الكبرى كالجاحظ ، وأبى الفرج فى أغانيه وبين الثقافة الغربية الواسعة ، اذ كان كزميليه العقاد وعبد الرحمن شكرى من أتباع المدرسة الرومانسية الانجليزية .. وقد بلغ من براعته فى الترجمة أن قال عنه العقاد رحمهما الله : « لست أغلو اذا قلت إنى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر أديبا واحدا يفوق المازنى فى الترجمة من لغة الى لغة ويملك هذه القدرة شعرا ويملكها نثرا ، ويجيد فيها اللفظ ، كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة » .

صدرت للمازنى مجموعة ضخمة من الكتب ما تزال متداولة حتى اليوم ، وان كان حظه من اعادة نشر مؤلفاته تخلف عن حظ غيره ، وبين هذه الكتب الرواية والقصة القصيرة والاقصوصة والمقالات فى النقد وفى مختلف الشؤون الاجتماعية والرحلات ومنها

(رحلة الحجاز) وهو يقول فى كتابه عن هذه الرحلة : دخل أصحابى مكة دخول الغريب .. أما أنا فلم أشعر بشعورهم لأنى ابن هذه البلاد بل ابن مكة بالذات .. فان جدتى لأمى مكية ، وزوجوها ، وهى بنت عشرين سنة فحلا من أهل المدينة فنشزت ، فطلقوها ، ثم احتملوها الى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارته ..

ولعل من أهم ما امتاز به أسلوب المازنى هو تلك السخرية الهادئة التى تحملك على الابتسام ، ولكنها لا تضايقك ولا تثير اشمئزازك .. وكان أكثـر ما يسخـر بنفسـه وبمواقفه ، ومع ذلك . فهو لا يتيح لك فرصة الأستهانة به .. ولكنك تحبه وتحترمه ، وتجد نفسك فى رحاب صديق حلو المعشر لا تمل حديثه ، ولا يسعك الا أن تعجب بلباقته وظرفه ، وعمق نظرته الى الحياة .. وبعد آفاق تأملاته فى حياة الناس .

كم أود أن يعنى الناشرون باعادة طباعة مؤلفاته على ورق جيد . وكم أود أن أجد أولئك الذين يمارسون الكتابة من شباب الجيل . وأرى كيف تترنح أساليبهم وتتسكع على أعتاب أدعياء التجديد باستعمال الفاظ مثل (البصق . والقيح .. والصدأ .. والصفيح .. والمسامير) زعموا انها من فضلات أو (صرعات) الأدب المعاصر .. كم أود أن أجدهم يدرسون أسلوب المازنى . ليروا كيف يمكن أن تتبختر الجملة . وأن تتيه بعصريتها مع احتفاظها بالأصالة وسلامة البناء .



الدكتور طه حسين

من أشد التعليقات تفاهة وسخفا فيما كتب عن الدكتور طه حسين فى حياته وبعد موته ، أنه شق طريقه الى القمة الشاهقة التى اقتعدها فى الحياة الأدبية فى العالم العربى ، بادئا مسيرته من السفح ، أو أعماق الأخاديد التى يعيشها كثير من الناس ، فى أيام نشأته ، وفى هذه الأيام أيضا ..

وتأتى تفاهة التعليق من أن الحقيقة البارزة فى تاريخ اعاظم الرجال فى العالم هى أنهم بدأوا مسيرتهم من السفوح والأخاديد ، بل من الأكواخ فى الأزقة والدروب المجهولة فى القرى أو فى المدن .

فليس فى أن عميد الأدب العربى ظوال ما يزيد على نصف قرن ، قد بدأت مسيرته من السفح فى قريته ، ثم فى أروقة الأزهر ، كما ليس فى افتقاده البصر ونبوغه هذا النبوغ الذى ملأ سمع الدنيا وبصرها ، ورغم افتقاده البصر فى الثالثة من عمره ، ما يستحق التعليق أو يستثير الدهشة والاعجاب ، وانما الذى يستحق أوسع وأوفر الدراسات عن الدكتور طه حسين ، هو أنه رجل آمن برسالة الفكر ، وادرك الأبعاد العميقة لمفهوم الحضارة ، واستشرف الآفاق الواسعة التى يمكن أن يحلق فيها الفكر الحر ، والثقافة الانسانية فى أوسع وأشد مجالاتها رحابة وانطلاقا فمشى وراء تلك الراية التى رفرفت فى سماء بصيرته ، وصمم على ان يوغل فى الأبعاد العميقة ، وأن يحلق فى الآفاق الواسعة ، لا يحول دون غرضه وهدفه اللذين اعتنقهما وآمن بهما ، أى عائق مهما كان .

ويتعذر فى كلمة قصيرة كهذه أن نفى الدكتور طه حسين حقه على الأدب والفن والفلسفة والفكر ، ولكن لا يتعذر أن نقول إن الرجل قد رحل عن هذه الدنيا ، بعد أن أعطى العالم العربى فى العصر الحديث شخصيته الفكرية التى أحس بها العالم ، والتفتت اليها محافل الفكر والفن ، واحتفت بها الجامعات ومراكز الاشعاع الفكرى ، فى جميع أنحاء العالم . وليس هذا قليلا ، حين ندرك ما ظل يعانيه العالم العربى طيلة ما يزيد عن خمسين عاما من تخلف عملت على ترسيخه ظروفه السياسية ومعاركه التى لم يفرغ من تصفية حسابه معها حتى اليوم .

وقد شاء الله سبحانه ألا يلفظ الدكتور العميد آخر أنفاسه الا بعد أن استردت مصر والعرب معا كرامتهم وان يردد العالم أخبار النصر الذى حققته القوات العربية فى سيناء والجولان ، ولا شك فى أن هذا النصر قد ملأ قلب الرجل الكبير نورا وعزاء وطمأنينة ورضى . ومع ذلك ، فسيظل للدكتور طه حسين على دوائر العلم والثقافة ومراكز الاشعاع والفن فى العالم العربى دين ضخم ، تؤجل ظروف الحرب التى نخوضها مع العدو موعد دفعه ، ولكن لابد من أدائه بتكريم ذكراه ، على الصعيدين العربى والعالمى ، فى مصر بطبيعة الحال ، ولكن ليس ما يمنع أن يكرم ، فى مركز اليونسكو فى باريس أيضا حيث يتاح للفكر العربى ، أن يبرز للعالم المتحضر فى أوروبا ، تقديرنا للرجل الذى اعتقد أن تقدير محافل الفكر له فى كل بلد أوروبى ، لا يقل ـ ان لم يزد ـ عن تقديرنا نحن له .

تتلخص قيمة طه حسين الأدبية ، عالميا فى أنه رسخ فى محافل الثقافة والفكر ، للانسان العربى شخصية قادرة على أن تشع وأن تضئ الحياة من حولها رغم كل ما ظل يعانيه هذا الانسان من تهم التخلف والجمود ..

المرحوم الأستاذ حمزة شحاته

ما كاد ينشر خبر وفاة الأستاذ حمزة شحاته فى الثانى عشر من شهر ذى الحجة عام الف وثلاثمئة واثنين وتسعين . حتى ازدحمت جميع صحف المملكة ومجلاتها بما جاشت به نفوس الأدباء والشعراء من مشاعر الفجيعة والتقدير لمكانته ، والأسى والحسرة للخسارة بفقده .

وكانت هذه الهزة مرت فى نفوس الكتاب والأدباء ، وعلى الأخص منهم الشداة والناشئون ، ظاهرة قل أن التفت الى عنصر الغرابة فيها أحد ممن ظلوا يوالون الكتابة عنه ، راثين ، وفى رثائهم دفقات من الاعجاب بأدبه وزخات من الاشادة بعبقريته .

وعنصر الغرابة ، فى هذه الهزة ، وفى هذه الدفقات من الاعجاب ، والزخّات من الاشادة هو أن الأستاذ حمزه شحاته يرحمه الله ، ظل يحرض اقرانه ورصفاءه على الزهد فى نشر روائعه فى الشعر ، وأسماط لآلئه فى النثر ، وشوارده من الحكم ، التى تدخل ساحة ما يسمى (افوريزم)[1] أو الأقوال المأثورة من أوسع الأبواب ، ليس فى الأدب العربى الحديث فحسب ، وانما ـ ودون مبالغة أو اندفاع عاطفى ـ فى الأدب العالمى على أوسع نطاق .

---

(١) نشرت بعنوان « رفات عقل » فى سلسلة الكتاب العربى السعودى عن ادارة النشر بتهامة .

فكيف يتفق ، أن تتقرر لهذه الشخصية ، هذه الشهرة الغامرة ، والصيت البعيد وأن تتبارى اقلام الشداة والشبان فى التحدث عن عبقريته وفنه ، طيلة أسابيع وربما حتى اليوم دون أن يتاح لهم ، أو أن يتيح لهم الشاعر ، أن يقرأوا ، الا أقل القليل من أعماله .

لا وجه للدهشة أو الاستغراب ، قطعا ، حين نقرأ للأستاذ أحمد قنديل ، أجمل ما توهجت به مشاعره أو مشاعر الراثين من الشعراء ، فى القصيدة التى رثى بها حمزه شحاته .. وليس مما يؤخذ مأخذ الانسياق والاتباع ، حين نقرأ ما كتبه أو يكتبه الشاعر الضخم الأستاذ السيد محمد حسن فقى ، ولا نتردد فى التقدير والاعجاب بما يكتبه الفريد الصموت ، الأستاذ حسين بن سرحان ، لأن هؤلاء هم الذين عايشوا الشاعر ، وعاشوا تفتح عبقريته ، وازدهار عطائه وامتلأت نفوسهم انفعالا وتأثرا باشعاع تلك العبقرية ، ونفحات ذلك العطاء .

وانما الدهشة والعجب من هذا الفيض الذى ظل يتدفق من أقلام الشداة والشبان الذين لا اشك أن بينهم من لم ير الشاعر الا فيما نشر من صوره ، ولم يقرأوا له الا ما نشر فى (شعراء الحجاز فى العصر الحديث) و (الشعراء الثلاثة) وهما مؤلفان للأستاذ عبد السلام الساسى ، لست أدرى ـ ولعلى أشك ـ فى أنهم قد اطلعوا عليهما .. واذا كان لابد من تفسير لهذه الظاهرة ، ولابد أن نسميها كذلك ، فهو أن أقل القليل هذا الذى نشر له ، كان له من الأثر فى النفوس ، والايغال فى المشاعر ، والرسوخ فى الأذهان ما لا يتوفر لغير حمزه شحاته الا بالكثير والمتواصل ، من العطاء . على أية حال ، لابد لنا أن نقول : إن الكلمة التى تناسب حجم عطائه الثر ، وعبقريته النادرة فى الأدب والفن والفكر ، فى هذا البلد ، لا سبيل الى أن تقال الا بنشر ما لم ينشر من شعره ونثره ، ومن رسائله[1] التى تكون وحدها لو أتيح جمعها كتابا ضخما لا أشك فى أنه سيغنى الحياة الفكرية عندنا ، ويضيف الى تراثنا ما لو قلنا أنه الا قدر على أن يتسنم القمة بالنسبة

---

(١) نشر منها تحت عنوان « إلى ابنتى شيرين » فى سلسلة الكتاب العربى السعودى عن إدارة النشر بتهامة .

لكل ما تمخضت عنه الحياة الأدبية والفكرية فى العصر الحديث ، لما تجاوزنا الحقيقة والواقع فى شئ .

ووجوه الاعجاب والتقدير بالمرحوم الأستاذ حمزه شحاته ، لا تنحصر فيا عرف به من تحليق فى الشعر وابداع فى النثر ، وانما فى كثير غيرهما من الوجوه ، والأسباب ، فقد كان رحمه الله يمتاز ، بخليقة ، لعلها من خلائق العبقرية وخصائصها ، وهى القدرة المذهلة على اتقان ما يولع باتقانه ، بحيث لم يكن يرضى قط ، الا بأقصى مراتب التفوق ، ولا يقف ما يولع به ، عند الشعر أو النثر ، أو ما يتصل بهما من المعارف والوان الثقافة الأدبية .. فقد تعشق العزف على العود مثلا ، ثم لم يكتف باجادة العزف ، وانما طمع فى دراسة الألحان والمقامات والأنغام ، فكان رحمه الله ، قمة من القمم فى الموسيقى العربية بحيث لو أراد أن يكون فى الطليعة من كبار الملحنين لما كان يرضى بأن يكون الا فى الكفة الراجحة بين الأفذاذ من المشاهير فى العالم العربى .. ومرت به فترة ، أحس خلالها بحاجته الى معرفة بالقوانين ، لمواجهة بعض مشاكله ، فلم يترك كتابا أو بحثا فى هذه القوانين ، الا وقد قرأه واستوعبه الى حد يذهل من يوكله من المحامين .. وعندما شاعت لعبة (الكيرم) فى أوائل الثلاثينات من هذا القرن ، اتقنها الى حد ، كان يحمل المشهورين بالبراعة فيها ، على السفر من جدة إلى مكة أو بالعكس لمباراته فيها .. والعجيب ، أنه كان الفائز فى هذه المباريات فى أغلب الأحيان .

أما حمزه شحاته كمتحدث ، فليس من المبالغة فى شئ اذا قلنا : إن الحياة الفكرية عندنا ، لم تشهد له ضريعا قط .. حسبك ، أنه يملأ المكان مرحا ، واعجابا وحيوية ، رغم ما قد تكون عليه مادة الحديث وموضوعه من التوغل فى قضية من قضايا الفكر التى يندر أن تشد جميع من يسمعون الحوار ، وقد كان أسلوبه يشد حتى العامة بما فيه من الطرائف والملح والنوادر ، تنساق ، وتنسجم مع الموضوع .

وبعد .. فمما لا ينسى ، من كلماته المأثورة هذه الباقة التى أتيح أن تتجمع على قلة ما يتاح من تراث الشاعر الكبير . يقول رحمه الله :

أيها الرجل .. الذى لا يرى فى المرأة الا الجسد .. انها الأم التى تلد الحياء والرحمة

والعدالة .. والأم التى تلد الرجال لو اصطنعت ، على ما يعينها لصنع الرجال ، ان كنت عقيا . ففى الأمة يتامى .. فيها بنات يفسدن وأولاد يفسدون .. يفسدهم الفقر والضعف .. وتصلحهم التربية والاحسان .. التبنى سنة نبيك فاجعله فرض حياتك .

لماذا نجعل الزواج تجارة .. تتم بها الغلبة علينا للشيطان ؟

عجيب أيها الرجل .. أن تدمع عينك للعظة .. ولا يدمع لها ضميرك ..

أيها الأديب .. الأدب نصيبك من الجهاد فاصدع به .. وتصبب عرقا للأمة التى ما بلغت بك الرشد ـ على ضعفها ـ حتى تصببت عرقا .. كن لنفسك قليلا ، وكن لها كثيرا .

ايها المواطن .. ان أعجزك الجهاد لأنك ضعيف ، أو لأنك فقير .. فجهادك أن تأخذ بيد الضعيف تواسيه .. وبيد الحائر تهديه .. وبيد المصاب تعزيه . وبيد الجاهل تعرفه ما يجهل .. وبيد العاثر تنهضه .. جهادك أن تنفخ فى الضمائر حتى تحيا[1]..



(١) نشرت المحاضرة تحت عنوان « الرجولة عماد الخلق الفاضل » فى سلسلة الكتاب العربى السعودى « رقم ٢٧ » . من اصدارات ادارة النشر بتهامة . وقدم المؤلف لهذا الكتاب مقدمة ضافية .

الفرد دي موسيه

يكاد يكون من المتعذر أن نتحدث عن الفرد دى موسييه ، دون أن نتناول بالحديث الكاتبة الفرنسية التى سمت نفسها (جورج صاند) .. بل لعل الحديث عن دى موسييه ، يستدرجنا الى الحديث عن أولئك الذين عاشوا تلك الفترة الرائعة من انتعاش الرومانسية فى الأدب الفرنسى ، وفى مقدمتهم فيكتور هوجو الذى كانت تنظر اليه فرنسا وأوروبا كلها على أنه العبقرية الفذة ، التى تميز بها الأدب الفرنسى ، وتمنت كل أوروبا أن تدعيها أو أن تلد مثلها ..

وتاريخ الأدب العالمى ، يقول لنا إن الفرد دى موسييه ، ولد فى عام ألف وثمنمئة وعشرة ، وتوفى فى عام ألف وثمانمئة وسبعة وخمسين فهو لم يعش أكثر من ست وأربعين سنة .. وهذا يجعلنا نفترض أن هذا الشاعر الرومانسى الذى احتفل به النقاد كما لا يزال يحتفل به تاريخ الأدب العالمى ، قد بدأ عطاؤه فى سن مبكرة جدا .. أو أنه كان غزير الانتاج وقويه الى الحد الذى أتاح له أن يوطد لنفسه هذه الشهرة والصيت الذائع ، فى هذه الفترة القصيرة من الزمن .

والنقاد يضعون الفرد دى موسييه فى صفوف الشعراء الرومانسيين ، ويذكرون له بعض المسرحيات التى يقل الاحتفال بها وتقديرها بالنسبة لشعره ، كما يذكرون له قصة بعنوان (اعترافات طفل العصر) ، ولكنهم يجمعون على الاعجاب بشعره الغنائى العاطفى ، أو الغرامى ، الذى جمعه تحت عنوان (الليالى) .. ومن هنا جاءت

شهرة هذا الشعر باسم (ليالى الفرد دى موسييه) وقد اقتبس هذا العنوان فى اللغة العربية الدكتور ابراهيم ناجى ، ونجد فى ديوانه ما يشبه رباعيات ، بعنوان (الليالى) .. كما نجد بعد ذلك مجموعته الأخرى التى سماها (ليالى القاهرة) . وليس مما يؤخذ على ناجى أن يقتبس أو أن يتأثر بالرومانسيّة الفرنسية ، اذ كانت اللغة الفرنسية ، هى لغته الثانية .. كما كانت لغة عبد الرحمن شكرى اللغة الانجليزية .. ولذلك يمكن القول ، أن ناجى قد تأثر بالرومانسية الفرنسية .. بينما تأثر عبد الرحمن شكرى بالرومانسية الانجليزية .

وليالى الفرد دى موسييه ، تعتبر فى تقدير النقاد نموذجا للشعر العاطفى الذى ، يزدحم بمشاعر اليأس والحزن العميق الذى يتدفق من قلب مزقه الهجر والجفاء ، وقد دخل الفرد دى موسييه المجتمع الفرنسى المترف كفلتة أو عبقرية نادرة كثيرة التألق والاشعاع ، ومن هنا كان ينظر اليه كطفل مدلل يحنو عليه ويغدق عليه الحب والاعجاب كبار الرومانسيين فى عصره . ولم يكن هذا دون مبررات من واقع الطاقة التى كان يتمتع بها موسييه .. اذ نشر قبل أن يبلغ العشرين من العمر ، وهى سن المراهقة والصبا الباكر ، ديوانا من الشعر باسم (حكايات أسبانيا وايطاليا) . وكانت القصائد فى هذا الديوان تتوهج بما يشبه تلك الانفعالات العاطفية المتأججة التى نجدها فى شعر بايرون بكل ما فيها من جموح وسخرية وذكاء ولماحية .. ثم لم يمض وقت طويل حتى أصدر بعض الأعمال الكوميدية وقصيدة أو تمثيلية شعرية طويلة بعنوان (رولا) ثم أتبع ذلك بكتابه (الليلة الأخيرة فى حياة فاجر) وهو دفق بايرونى آخر كان الأسى فيه ، وروح التشاؤم والحزن فى مواجهة أسلوب تميز بخلفيات غير مألوفة أو غريبة بالنسبة للروح الشائعة يومذاك فى الرومانسية الفرنسية .

وأشد التجارب التى عاناها وواجهها الفرددى موسييه ، وأحفلها أو أغلبها ، العاطفة وصراعها ، وعنف هذا الصراع ، كانت حبه للكاتبة الفرنسية التى عرفها أو شاءت هى أن تعرف باسم (جورج صاند) .

وأول لقاء بين الفرد دى موسييه ، وجورج صاند كان وهو فى الثالثة والعشرين من

سنى حياته .. ولا شك أن العلاقة بينه وبينها قد بلورت طاقاته وعبقريته الفنية ولكن ـ كما يقول أندريه موروا فى آخر كتاب صدر له عنها ـ بعنوان (ليليا) فى عام ١٩٥٣ ولكن ما عرفت به من تقلب المشاعر وعدم الوفاء والاخلاص ، وما استتبع ذلك من مواقف عنيفة بينه وبينها بلغت حد الشجار الصاخب يتوالى ويعقبه التراضى والتوافق ، ثم يعود أكثر صخبا وعنفا ، الى أن انتهى بالفراق والانفصال النهائى الذى يقول المؤرخون أنه دمر وقضى ـ الى الأبد ـ على روحه المرحة وعلى توثبه الفنى الطموح ، بينما اجتازت هى التجربة دون أن تترك فى نفسها أثرا ذا بال . ومع ذلك ، فان هذه التجربة بما تخللها من عنف فى الحب ، وعنف فى الصراع قد تمخضت عن كتابه الذى يدخل فيما يسمى (أوتوبيوغرافى) أو قصة ذاتية ، أو فى ما افضل أن أسميه (أدب الاعتراف) .. وقد سبق أن ذكرناه وهو (اعترافات فتى العصر) .. ثم عن كتاب آخر سماه (هدية للذكرى) واخيرا قصائده التى عرفت فى الأدب الفرنسى باسم (ليالى الفرد دى موسييه) وهى ليال حدد لها زمنا أو شهورا هى مايو ، وديسمبر ، وأغسطس ، وأكتوبر ـ وفيها بدأ الشاعر وكأنه يغرق نفسه ومشاعره كلها فى هذا الشعر ، فى محاولة للنسيان وللتخلص من نهش الذكريات المريرة التى عاشها فى حبه لجورج صاند .

ومع أن موسييه ، سطع فى تاريخ الأدب الفرنسى كشاعر فى القمة ، فان شهرته ككاتب مسرحى لا تقل عن شهرته كشاعر ، بل قد نجد بين النقاد والمؤرخين من يرجح أدبه المسرحى على شعره . فقد كتب بين الفترة من عام ١٨٣٣ الى عام ١٨٤٥ سلسلة من المسرحيات التراجيدية والكوميديـة امتازت جميعها بخفة الظل ، ورقة العاطفة ، وباللغة التى تجمع بين المفردات القوية الى جانب رشاقة اللمسة فى التعبير .. والكثير من هذه المسرحيات ، حفل بالامثال ، بل كانت عناوين الكثير منها أمثالا معروفة فى الحياة الفرنسية فى ذلك العصر ، ومن هنا ، كان لبعض مؤرخى أدبه وسيرة حياته أن يسموا مسرحياته . (أمثال الفرد دى موسييه)

قضى الفرد دى موسييه أيامه الأخيرة ، أو السنوات العشر من أواخر عمره يحفر فى أعماق نفسه قبورا يدفن فيها ذكريات حبه .. وكم كانت كلمة سينت بيف رائعة عندما

أبنه بعد موته فقال عنه : (أى ضوء ذلك الذى سطع بحياة موسييه .. وأى خسوف هذا الذى نعيشه بموته) .

من ليالى الفرد دى موسييه

من ليلة ديسمبر

من أنت اذن .. يا شبح شبابى

ايهذا الزائر الذى لا يكل

لم أرك دون انقطاع

هناك تجلس .. فى الظل الذى أمر به

من ؟؟؟ من أنت ؟؟؟ أيها الزائر المنعزل

ضيف الامى المقيم

ماذا فعلت لتلاحقنى فى هذه الأرض

من انت ؟؟؟

ولم لا أراك الا فى يوم البكاء

اينما ذهبت أنت .. سأكون أنا دائما

الى أن تنتهى أيامك

وسأجلس على قبرك

وعندما تشعر بالألم

اقبل .. اقبل الى بلا قلق

لأصحبك على الطريق

دون أن أمس يدك

لأنى .. لأنى الفراق ..

ومن ليلة أغسطس نسمع الفرد دى موسييه يقول :

سيان الموت .. والحياة

يكفينى أنى أحب .. وهذا الشحوب فى ملامحى .. ما أشد ما أحبه ؟؟

أريد أن أشعر بالألم

فانى أحب .. وعبقريتى .. فداء لقبلة

أحب .. ومن لى بعين من الدمع يجرى معينها على وجنتى الضامرة

أحب .. وأغنى .. افراحى وكسلى .. وهموم يومى

أريد أن يسمعنى الجميع أروى .. سر حياتى

الحب .. سر هذه الحياة .. وهو أيضا سر الموت

أيتها الكبرياء التى تفترس مشاعرى

ايها القلب ، الذى يفيض مرارة ويتوهم أنه أغلق أمام الحب الى الأبد

كلا .. لا سبيل الى حيويتك وحياتك الا بأن تحب

أى زهرة تتفتح عن الوانها وأريجها دون ضوء الفجر وندى الصباح

والحب .. حبها ، هو ضوء الفجر فى حياتى .. وندى الصبح ..



جوهان فون شيلر

لا يكاد يذكر كاتب المانيا وشاعرها الاشهر (جوته) .. حتى يذكر رصيفه (جوهان فون شيلر) ..

وأشهر ما عرفته الآداب العالمية ، من آثار شيلر مسرحيته (اللصوص) وقد ترجمت هذه القصة أو المسرحية الى اللغة العربية لأول مرة منذ أكثر من ثلاثين سنة .. ترجمها بأسلوب رائع ، الأستاذ (عبده حسن الزيات) . ثم ترجمت مرة أخرى منذ سنتين .. ولكن الترجمة الحديثة ، أضعف كثيرا من ترجمة الأستاذ عبده حسن الزيات .

وجوهان فون شيلر ، ابن جراح عسكرى .. وقد أراد فى البدء أن يدرس اللاهوت ، ولكن دوق دى ورتنبرغ استحسن له أن يلتحق بمدرسته العسكرية .. والتحق بالمدرسة فعلا ، ولكن ما كان فى نظامها من قسوة التدريب وصرامة النظام ، اسفر عن حادث ، أصابه بعاهة العرج .. وقد هجر المدرسة بعد فترة ، ازدحم ذهنه خلالها بالعطف على البؤساء والمحرومين ، وبالضيق لما كان يشيع فى المجتمع من تناقضات ، وفى الحياة السياسية من دسائس وختل وخداع .. وبهذه المشاعر درس هوميروس ، وشيكسبير ، وجان جاك روسو ، وتعرف على شاعر المانيا الكبير (جوته) .. وبعد انقطاع عن الدراسة عاد اليها فدرس الطب .. وتخرج طبيبا ، والتحق بالجيش ، ولكن النظام حرمه من رتبة الضابط التى كان يعتقد أنه يستحقها .. فلم يجد بدا من أن يفر من الفرقة التى كان من أفرادها .. وكان قد بدأ يعرف فى الأوساط الأدبية كشاعر ، فوجد من يحنو عليه

ويهتم به .. ويضع تحت تصرفه منزلا أوى اليه عاما كاملا .. ثم خرج الى الحياة العامة ، ليكافح ويجرب النجاح والفشل .. والسعادة والبؤس .. ثم الحب .. والفشل فى الحب ومأساة هذا الفشل .. فكتب مآسيه ، بدماء قلبه .. وأروع ما كتب (اللصوص) وهى مأساة التناقض بين المثالية والواقع .. ومن آثاره التى لم تترجم الى العربية (الحب والدسيسة) و (مؤامرة فيسك) ومأساة (دون كارلوس) .. ويمكن القول أن ما تمتاز به مؤلفات وآثار شيلر هو تعشق الحرية والمثل العليا ، فى حياة الفرد والمجتمع على السواء .

ولد شيلر سنة ألف وسبعمئة وتسعة وخمسين .. وتوفى سنة ألف وثمانمئة وخمسة .. وحين يعد الألمان عباقرتهم فى الأدب والشعر .. يبدأون بـ (جوته) ويكون الثانى شيلر وكما يحفظون عن ظهر قلب مقاطع من (دكتور فاوست) لجوته .. يحفظون الكثير من كلمات شيلر فى قصته (اللصوص) ..



ياسوناري كاواباتا

اسم غريب على سمع المثقف العربى ، وهو غريب أيضا على سمع المثقف غير العربى .. لأن الرجل علم من أعلام الأدب الكبار ، الذين يندر أن يسمع بهم الا الاعلام من رجال الفكر الذين يتتبعون نتاج الآداب العالمية ، فى كل مكان على سطح هذه الكرة ، التى أصبحت ، بفضل الكثير من وسائل الاتصال ابتداء من السيارة وانتهاء عند الراديو .. دع عنك الطائرات الآن ، والصواريخ فى المستقبل القريب . أصبحت ، أشبه بقرية من قرى أيام زمان .

ياسونارى كاواباتا .. كاتب يابانى وهو أشهر كاتب رواية فى اليابان ، ويرى النقاد الذين ترجموا أدبه الى كثير من اللغات الحية . أنه قد أضاف الى المدرسة الطبيعية التى ازدهرت فى فرنسا ، ودخلت الأدب اليابانى ـ عن طريق الترجمة طبعا ـ عناصر من المدرسة الانطباعية بملامح يابانية ..

ولد ياسونارى كاواباتا فى أوزاكا فى عام ١٨٩٩م. وحين كان فى مرحلة الصبا ، كانت أمنيته أن يصبح رساما ، ولعله ، بتعشقه الرسم قد جرب حظه فيه فترة من الوقت ، ثم اتجه الى الأدب ، والى كتابة القصة على الأخص .. فكانت بقايا ملكة الرسام ، تظهر فى أسلوبه ، بحيث تتلاحق فى ما يكتب الصور الدقيقة التى يبلغ من ابداعه فى تصويرها أنك تكاد ترى لها الألوان والظلال والأعماق البعيدة فى أغوار النفس ..

وقد نشر كاواباتا قصصه الأولى وهو ما يزال فى المدرسة الثانوية .. ويبدو أن ما لقيته

من الاقبال والرواج ، أقنعه بأن يحترف الكتابة وأن يتفرغ لها . ومع ذلك فقد واصل دراسته فى الجامعة الامبراطورية فى طوكيو حيث تخرج فيها فى عام ١٩٢٤م.

وكانت أولى رواياته (راقصة الاوزو) قد نشرت له فى عام ١٩٢٥م- أى بعد تخرجه من الجامعة بعام واحد - .. ثم ترجمت الى الانجليزية فى عام ١٩٥٤م فلفتت الأنظار الى الكاتب ، بموضوعها الذى عالج مشاعر الحب فى سن المراهقة والصبا .. واذ لقيت الرواية ما لقيته من ترحيب النقاد اتجه كاواباتا الى معالجة مواضيع الحب ، ولكن ليس بتلك النزعة أو المشاعر الرومانسية وانما بالنظرة الطبيعية ، وبالانطباعية ذات الملامح اليابانية الخاصة .

وكما كان كاواباتا ، كاتبا قصصيا من اعلام كتاب القصة فى اليابان - وفى العالم - فقد كان ناقدا واليه يعود الفضل فى اكتشاف ودعم عدد من الأدباء اليابانيين ، الذين اتخذوا مكانهم الطليعى فى ازدهار الأدب اليابانى خلال العقود الأربعة منذ الحرب العالمية الأولى حتى اليوم .. ومنهم الكاتب اليابانى المعروف (يوكيو ميشيما) .

وكان ياسونارى كاواباتا ، ثانى كاتب فى الشرق ، ينال جائزة نوبل ، فى عام ١٩٦٩م اذ كان قد نالها قبله الشاعر الفيلسوف الهندى رابندرانات تاغور فى عام ١٩١٩م .

مما نقل الى الانجليزية ، والى عدد من اللغات الحية من قصص ياسونارى كاواباتا قصة .. (صوت الجبل) وقصة (ريف الثلج) .. أو (بلد الثلج) ومع أنه يعتبر شيخ أدباء القصة اليابانية وأكبر اعلامها فان المترجم من قصصه أقل مما ترجم لـ (يوكيو ميشيما) والسبب هو عناية يا سونارى كاواباتا المبالغة بجزاله وأناقة الأسلوب ، بحيث تواجه المترجم صعاب بالغة فى نقل المعنى الدقيق الذى يريده الكاتب .

مات ياسونارى كاواباتا منتحرا منذ عامين .. وكان قد نيف على السبعين من العمر ، وكان دليل شهرته العالمية ان اذاعت خبر وفاته جميع وكالات الأنباء العالمية فى الشرق والغرب على السواء .

إيميلي برونتي

الكلام عن ايميلى برونتى لابد ان يستتبع الكلام عن اختيها (شارلوت) و(آن) وحياة الاخوات الثلاث تصلح أن تكون قصة ، فيها ذلك الجو الخيالى الذى صورته اقلامهن فيما ظهر لهن من قصص وشعر .

وتاريخ الأدب العالمى يقول عن ايميلى انها : الروائية الانجليزية التى ولدت لأب غريب الأطوار ، تصلح حياته هو الآخر ان تكون قصة لما تخللها من احداث محورها غرابة اطواره وذكاؤه وجمال قسماته ، وما صاحب هذا الجمال من مغامرات فتيات احببنه وتحطمت قلوبهن فى سبيله ، بينما كان هو يصر على ألا يتزوج الا من فتاة واسعة الثراء يحقق بثروتها امله فى الارتفاع عن مستوى الحياة الضيق الذى كان يعيشه بطبيعة نشأته ، اذ لم يكن فى حقيقته اكثر من ابن لفلاح ايرلندى فقير جدا ، اثار اعجاب قسيس القرية بذكائه المتوقد ، فاحسن رعايته ، واخذ يلقنه القراءة على ضوء شمعة قد تذوب فلا يصل الى غيرها الا بكثير من العمل فى مصانع النسيج .. أتاح له كل ذلك ، أن يحظى باهتمام اعيان البلدة فاكتتبوا فيما بينهم ندفع نفقات دراسته فى جامعة كامبريدج التى لم يكن يلتحق بها الا أبناء الأسر العريقة الغنية ، وكان لذلك أثره فى اشعال طموحه وتطلعه الى ان يبلغ المكانة الرفيعة التى وجد نفسه فيها خلال أيام دراسته فى كامبريدج .

ورغم تعدد محاولات الزواج من الفتاة الثرية التى يحلم بها ورغم تعدد الفتيات

اللائى احببنه فانه لم يتزوج الى ان بلغ الخامسة والثلاثين من العمر . ولم تكن التى تزوجها فتاة من الأسر العريقة الغنية كما ظل يحلم ، وانما كانت فتاة قالوا انها من أسرة محترمة من الطبقة الوسطى ، وكل ثروتها لا تزيد عن خمسين جنيها فى السنة (تعادل خمسمائة جنيه فى الوقت الحاضر) .. اما عن جمالها وخصائصها ، فقد كانت مجردة من الجمال وضعيفة البنية ، ضئيلة الجسم .

ومن هذه الفتاة انجب (باتريك) خمس بنات وغلاما ، فى فترة لا تزيد عن ست سنوات ، فى بيت من الحجر ، فى منطقة الأحراش والمستنقعات ، تحيط بالبيت من كل جانب ، باستثناء واجهة واحدة تطل على مقابر القرية بكل ما يشيع فيها من جو الكآبة والحزن .

وفى هذا البيت ماتت الأم ، وتركت صغارها فى رعاية أب ضرب على نفسه وعلى صغاره عزلة صارمة وتقتيرا قاسيا ، وجد مبرره فى أنه قد تخرج قسيسا ، وأن حياته يجب أن تخلو من الرخاء والترف ، فكان اللحم فى قانونه ترفا شهوانيا لا يتفق مع التقوى .

فى هذا البيت ، تحيطه الأحراش والمستنقعات ، ويطل على المقبرة بكل كآبتها واحزانها ، ويسيطر عليها أب ، يغلق على نفسه باب حجرته معظم الوقت ويتناول طعامه منفردا ، وتشرف على الصغار فيه خالتهم بحرصها على تجنب اثارة الأب بأى مخالفة لقانونه الصارم ، ماتت شقيقتان من الفتيات الخمس ، وبقيت ثلاث منهن ، دخلن تاريخ الأدب الانجليزى من أوسع أبوابه ، اذ كتبن تراثا ضخما من المسرحيات والأقاصيص والشعر .. ويكفى ان نتصور ضخامة هذا التراث حين نعلم ان شارلوت كتبت انتاج ثلاثتهن من الشعر وحده فى اثنين وعشرين مجلدا كل منها فى مئة صفحة بخط دقيق جدا تصعب قراءته بغير المجهر .

****

والعجيب فى مسيرة الأدب فى حياة الفتيات الثلاث ، ان كلا منهن لم تكن تدرى ماذا تفعل الأخرى فشارلوت مثلا لا تكتشف ان اميلى تكتب الشعر الا فى عام ١٨٤٥م وبطريق الصدفة وحدها .

ولكن الأعجب فى نبوغ الفتيات الثلاث ، انهن لم يتلقين تعليما عاليا فى أى جامعة من الجامعات ولكنهـن ـ فى ذلك البيت ـ انكببن على قراءة افضـل ما فى الأدب الانجليزى ، الى جانب الكثير من الكتب الدينية المتزمته .. كانت القراءة تسليتهن الوحيدة ، بعد ان تقوم كل منهن ـ وعلى انفراد ـ بنزهـة فى الأحراش مشيا على الأقدام ..

****

كانت اميلى اكثر تمسكا بحياة الوحدة والانعزال ، واكثر حرصا على تلك الجولات التى تقوم بها فى الأحراش والغابات حولها ، ومع ذلك فقد وجدت من يحبب اليهـا الخروج من هذه العزلة ، وان يغريها بنشر مجموعة من شعرها وشعر اختيها (شارلوت) و(وآن) فى كتاب بعنوان : (شعر كرر) وهو الاسم المستعار الذى اختارته شارلوت و (ايليس) وهو الاسم الذى اختارته اميلى و (آن) وهو الاسم الذى اختارته آن وهى أسماء رجال ، اذ لم يكن المجتمع يومها يحسن استقبال شعر النساء .

ونشر الكتاب ولكنه لم يبع اكثر من نسختين ، ولم يلتفت اليه أى ناقد .. وقالت شارلوت : (الحقيقة ان مقطوعات اميلى وحدها هى التى كانت تستحق النشر) .

****

ولكن عدم الاحتفال بهذه المجموعة من شعر الفتيات الثلاث ، لم يصرفهن عن الكتابة ، ولم يدمر رغبتهن فى أن يواصلن تجربتهن ، فانصرفت كل منهن ، مستقلة عن الأخرى فى اكمال ما سبق أن بدأته قبل نشر المجموعة الشعرية . وكان ما شرعت فيه كل منهن هو رواية .. فكانت رواية اميلى هى (مرتفعـات وذرينـج) ورواية شارلوت هى (جين اير) أما (آن) فكانت روايتها (ايجنس جريه) .

وقد وجد من نقل الى العربية (مرتفعات وذرينج) لاميلى برونتى و(جين اير) لشارلوت .. اما (ايجنس جريه) فالمظنون انها لم تنقل الى العربية حتى الآن ، كما لم تحظ بدراسة النقاد العرب أو تعليقاتهم .

****

وقد ظهرت الروايات الثلاث فى عام ١٨٤٧ م.وقال احد نقـاد ذلك العصر عن (مرتفعات ووذرينج) انها (عطاء رجل ذى مواهب نادرة ولكنه عنيد قاس سوادى المزاج) .. ولا شك ان القصة قد هزت النقاد واستلفتت انتباههم ولكنها لم تستدرجهم الى الكتابة عنها .. ومع ذلك فقد اخذت تشق طريقها وتزحف نحو الشهرة وتحظى باهتمام النقاد وتقديرهم . فقال عنها احد النقاد فى العصر الفيكتورى انها عطاء ذهن مريض أو غير سوى . ولكن سوينبرن قارنها بالملك لير لشيكسبير وقال عنها أحدهم انها أعظم قصة تمخض عنها العصر الفيكتورى كله .

وعندنا صورة لوقع قصة شارلوت (جين اير) على الناشر الذى وافق بعد كثير من الجهد والعناء على نشرها .. فاننا نجده يعهد بالقصة الى لجنة فى مؤسسته لقراءتها وتحديد قابليتها للنشر .. فيقرأونها ليقول احدهم (انها معجزة) ويتشـكك النـاشر فيحيلها الى عضو فى اللجنة ليس من عادته الانفعال والتحمس لما يقرأ .. فاذا به يجئ ليقول : (لم استطع ان اترك المخطوط قبل ان اتم قراءته مع بزوغ الفجر) . ويجد الناشر نفسه مضطرا لقراءة القصة بنفسه ، اذا استبعد صحة تقدير العضوين ، فاذا به يهرع اليهما معتذرا عن تشككه فى تقديرهما .. ويدفع بالقصة الى المطبعة ، واذا بها لا تكاد تظهر وتتداولها ايدى القراء حتى تصبح حديث الناس على كل لسان .

وليس من شك فى ان وقع قصة ايميلى على ناشرها وعلى النقاد لم يكن له هذا الحظ فى بداية الأمر ، ولكنها ما لبثت ان تغلغلت فى وعى النقاد ، واستثارت اهتمامهم الى حد جعلهم يرتفعون بها عن المستوى الذى حققته (جين اير) .

****

قالوا عن ايميلى انها كانت اكثر اخواتها شموخا بانفها واعتدادا بشخصيتها .. حتى لقد كانت اشبه بالرجال من اخيها الأوحد .. كانت لهجتها حاسمة .. وعزيمتها صارمة .. لا ترجع عن أمر تعتزمه .. وصبرها على متاعب الحياة ومشاقها ، يكاد يشبه العناد .. فهى تأبى ان تستسلم للمرض وترفض ان يفحصها طبيب .

وكأنما (مرتفعات ووذرينج) كانت صورة للمشاعر التى تكمن فى اعماقها .. مشاعر

المرأة التى كانت تتمنى ان تكون ذلك البطل الذى صورته فى قصتها .. رجل خشن الطباع . وعر الخلق .. محتدم العواطف .. يأخذ حقه فى الحب عنوة وقهرا ..

قالوا : لقد صدرت اميلى برونتى فى تصوير بطلها عن ينبوع يتدفق من اعماقها ، ولذلك فقد جاءت شخصية بطلها (هيثكليف) المنطوية على اروع الأسرار . ومنها انه اللقيط الذى اصبح سيد القصر ، شخصية حية تضطرم حيوية وجموحا ، وتناقضا وغرابة اطوار.وقد كان من العوامل التى ساعدت على احاطة القصة بتلك الوحشة التى تعصر القلوب ، وتهز أعمق المشاعر ، ذلك الاطار الذى عاشت فيه اميلى طيلة حياتها . اطار منطقة الأحراش والمستقعات ، والبيت الحجرى المنعزل . الذى تشرف احدى واجهاته على المقبرة بكابتها واحزانها ، ثم ذلك الأب الذى مارس على الفتيات الثلاث بعد موت أختيهن ، اشد التصرفات خشونة وقسوة ، مع التقشف الشديد الذى يبلغ حد الحرمان ، بل يبلغ حد الحقد الأسود حين تجىء الخالة باحذية جميلة ملونة تشتريها من دخلها الخاص ، لتفرح الفتيات الصغيرات ، فلا يكاد يراها حتى يأخذها كلها ويلقى بها فى نيران المدفأة .. بل يبلغ به الأمر ان يستأصل ظهور الكراسى التى يستند اليها الجالسون ، لئلا يجلسن عليها مسترخيات .

****

واليوم فى تاريخ الأدب العالمى تعتبر (مرتفعات ووذرينج) من ابرز واشهر القصص فى العالم ، ليس لأنها اجمل القصص ـ اذ لا توجد قصة يمكن ان تسمى الأجمل بين مئات القصص التى كتبها الأدباء ـ ولكنها القصة التى يندر أن تجد لها شبيها . اذ هى ثمرة مشاعر قبل ان تكون ثمرة دراسة وتأثر واحتذاء .. فيها ما يمكن ان يسمى (الصدق الفنى)بحق .. وهذاما يميزهاعن جميع القصص التىاكتملت لهاعوامل النجاح .

****

ولم تكتب اميلى برونتى قصة بعد هذه القصة ، وذلك لأنها لم تعش بعد كتابتها اكثر من سنة واحدة .. ماتت اميلى فى عام ١٨٤٨م، فى الثلاثين من عمرها وبنفس المرض الذى اخترم حياة شقيقتيها من قبل وهو (السل) .

والأرجح انها لم تكن لتكتب أى قصة أخرى حتى لو عاشت ، اذ لم يكن معقولا أن تتفوق على نفسها فى عمل وضعها فى القمة التى ليس ارفع منها ولا اعلى بين القمم التى يقتعدها عظماء الأدب فى تاريخ الحضارة على مر العصور .

****

وكان الموت فى عجلة من أمره مع هذه الأسرة اذ ماكادت ايميلى توسد قبرها حتى عاد ينتزع اختها (آن) صاحبة (ايجنس جريه) التى ماتت بعد ثلاثة شهور بنفس المرض الذى ماتت به ايميلى .. السل مرة أخرى ، وعاشت شارلوت لتكتب قصة حياة (ايميلى) فى قصة سمتها (شيرلى) اضفت عليها الحيوية والاشراق ، والنعمة التى حرمتها فى حياتها ، ونشرتها بعد وفاة ايميلى بثمانية شهور ، وقد لقيت القصة الكثير من ترحيب النقاد وحفاوتهم وتقديرهم مما قد يفسر اقبال شارلوت على الحياة والخروج من عزلتها ، اذ أخذت تتردد على لندن وتجتمع فى انديتها بكبار أدبائها وفى مقدمتهم (ثاكرى) الذى كانت تكن له اكبارا وترى فيه (الكاتب الأعظم) الجدير حقا بالتقدير .

وقد تقدم لشارلوت أربعة رجال يطلبون يدها ، كان والدها (باتريك) يرفضهم واحدا بعد الآخر ، وكان آخرهم اشد اصرارا من الذين سبقوه ، فاستطاع ان يلين قناة الأب الحاقد وان يجعله يوافق على زواجه من شارلوت ، فتزوجته فى يونيه عام ١٨٥٤ م وسعدت بهذا الزواج ، واخلدت الى البيت وواجبات الزوجية فيه .. ولكن الموت مرة أخرى وأخيرة كان على موعد مع شارلوت ايضا .. اذ اخترم حياتها بعد سنة من زواجها فى مارس عام ١٨٥٥ م .

كانت آخر كلماتها لزوجها :(ما أشدما كنا سعيدين معا !).. ولم تقل ما اقصر ما نعمنا بهذه السعادة !. لأنها لم تكن تدرك انها الكلمات الأخيرة فى حياتها .

وعاش والدها (باتريك) بعد وفاتها فى بيته الحجرى ، وفى احضان منطقة الأحراش والمستنقعات ، مطلا على المقبرة بكابتها واحزانها .. وبكل ما انطوت عليه قبور ايميلى وآن وشارلوت ، من عبقرية ونبوغ وضعهن فى الطليعة من موكب عظماء الأدب العالمى ، وفى القمة من تاريخ الأدب الانجليزى فى القرن التاسع عشر كما وضع (باتريك) حيث اراد من نماذج القسوة والحقد والتوحش .

راسين

واسمه الكامل جين راسين وهو كاتب التراجيديا الفرنسية المشهور .

ولد عام ألف وستمئة وتسعة وثلاثين . وتوفى عام ألف وستمئة وتسعة وتسعين للميلاد.

والحديث عن راسين ، لا ينفصل عن العصر الذى عاش فيه ، وعن فرنسا التى عرفت فى القرن السابع عشر ، بأنها مركز الاشعاع الفكرى فى أوروبا كلها .

وكثيرا ما تسمى فرنسا فى هذا العصر باسم ملكها لويس السادس عشر ، وذلك لأنه كان الملك الذى وجد الشعر والأدب فى بلاطه الابهاء التى تزدحم بأسمى نماذج الذوق والترف والجمال الى جانب تلك الأبهة التى ظلت مضرب الأمثال فى ذلك العصر .

وكما عرف المسرح الفرنسى (موليير) يملأ حياة الباريسيين فى ذلك العصر ضحكا بفنه الكوميدى الرائع ، فقد كان راسين ، يملأ حياتهم عواطف ومشاعر تذهب بهم الى آفاق من الأسى والرثاء لأبطال مأساته ، فكأن فرنسا ، وباريس على الأخص ، وكأن أبهاء وقاعات بلاط لويس السادس عشر مسارح للكوميديا تتفتق عنها عبقرية موليير ، وللتراجيديا تفيض بها عبقرية راسين . ويعتبر راسين كاتب التراجيديا الذى استطاع أن يهدم تلك المعاقل والحصون التى أقامها أول كتاب التراجيديا الفرنسيين وهو (كورنى) .

كان كورنى كاتبا للتراجيديا على الأساس الكلاسيكى الذى ظل يفرض نفسه على

الأدب والشعر والمسرحية طيلة عصور ولم يكن من السهل على أى كاتب أو شاعر أن يتخلص من الطوق الذى ضربته هذه الكلاسيكيه على الفن ، ولكن راسين استطاع أن يقف علما من أعلام عصر النهضة حيث قدم أبطالا فى مسرحياته يعبرون عن العاطفة فى انطلاق لا يعبأ كثيرا بالمنطق والعقل الذى ظل يسيطر على أبطال مسرحيات (كورنى) .

يمكن القول : إن الشخصيات التى قدمها راسين فى مسرحياته كانت تتفق مع طبيعة المزاج الفرنسى فى عصر لويس السادس عشر ، وهو كما قلنا من أزهى عصور الملكية الفرنسية ترفا ، وتعلقا بالأبهة والظرف الى جانب التذوق الرفيع للفن تجود به قرائح الكتاب والشعراء ، كما تتفتح عنه عبقريات الرسامين والموسيقيين .

وقد نشأ راسين يتيما تحت رعاية جده وجدته ، وتلقى تعليمه فى مراحله الأولى فى مدرسة اسمها (كوليج دى بوفيه) وهى مدرسة كهنوتية تعنى بالتربية الروحية وبعلوم اللاهوت ، وقد ظل فيها الى إن بلغ السادسة عشرة من عمره حيث التحق بالبورت رويال وهو معهد يواصل نفس الاتجاه الذى يمهد له التعليم فى الكوليج دى بوفيه ويعنى عناية خاصة ودقيقة بالأدب الاغريقى وباللغة الاغريقية كأساس لابد منه لبناء ثقافة فكرية كان المفكر الفرنسى (باسكال) قد دعا اليه لتحرير الفكر من ضغوط التعصب والهرطقة التى عرف بها المذهب الكاثوليكى .

وأشهر مسرحيات راسين هى تراجيديا (أندروماك) التى ظهرت بعد ثلاث سنوات من مسرحية أخرى له لم تلق نجاحا كبيرا .. ويقول النقاد : إن تراجيديا أندروماك هى التى صعدت براسين الى قمة الشهرة وذروة المجد .

وتراجيديا أندروماك تتلخص فى أنها صراع بين الحب والحقد ، وهى لا تظهر عبقرية راسين فحسب وانما تعتبر نقطة تحول كبرى فى تاريخ التراجيديا اذ خرجت من الحصون والمعاقل التى أقامتها كلاسيكية كورنى . أو الكلاسيكية بوجه عام .

تراجيديا أندروماك مثلت فى القرن السابع عشر وظلت تمثل ليس فى فرنسا وحدها وانما فى جميع عواصم العالم الكبرى حتى اليوم .

سومرست موم

والكلام عن أسرة موم .. استغرق كتابا من أكثر من ثلاثمئة صفحة ..

مالنا ، ولهذا التفصيل ..

المهم .. انه ولد فى باريس .

وباريس يوم ولد موم .. كانت .. ولا تزال عاصمة الفن والذوق والترف والجمال ..

وليس موم فرنسيا بالطبع .. فقد ولد من أبوين انجليزيين .. عام ألف وثمانمئة وأربعة وسبعين .. للميلاد .

ولكن أمه ماتت بداء السل ..

ثم لحقها أبوه ..

وكان لابد أن يكفله مخلوق فى الأرض ..

وكان هذا الذى كفله هو عمه ..

ولكن أى عم ..

تحكى حكايا .. عن قسوته ولؤمه ، وسوء معاملته لليتيم ..

ومع ذلك فقد استطاع موم ، أن يجتاز الكثير من العقبات والمواقف الصعاب ..

استطاع أن يدرس .. وأن يتخرج فى كلية الطب ..

وبدلا من أن يركز جهده فى عمله كطبيب .. مارس الكتابة للمسرح .. وللصحف ..

ولكل من تتسع ظروف إفلاسه من الأدب الرفيع من دور النشر .

ونجحت له مسرحية اسمها (ليزا .. أوف .. لامبيت) ..

وسرعان ما قفز اسم موم .. الى الصفحات الأولى من أعمدة النقاد والمعلقين فى الصحف الانجليزية فى لندن .. وبالطبع والتبعية فى أمريكا .

أعجب ما فى مسرحياته أنه استقبل ضيفا فى ذات ليلة .. شكا الضيف من القلق .. وطلب من موم أن يسعفه بأى مادة للقراءة .. للاستعانة بها على النوم .

ومد موم ، يده الى أحد أدراج مكتبه .. كيفما اتفق .. وأعطاه قصة عنوانها (مطر) .

وقرأ الصديق القصة .. ولم ينم .. الى أن رأى موم فى الصباح ..

كان الصديق مخرجا مسرحيا .. وقد وجد فى القصة أروع ما يصلح للمسرح .. فاستأذن موم .. وأخرج مسرحية مطر .. التى ظلت تمثل أربع سنوات متوالية .. لم يكن لأى مخلوق سبيل الى حجز مقعد لمشاهدتها الا بالانتظار شهورا ..

وقد نقلت هذه القصة الى اللغة العربية ، فيما نقلت من قصص موم .. ولكنى أشك فى أن تجد سوقها بين القراء حتى ولو بقيت فى دكاكين الكتبية أربع عشرة سنة .. وليس أربع سنوات والسبب .. هو أن المثقف العربى ، لا يزال فى طور التكوين .. الذى لابد أن يأخذ مداه ..

وهذا المدى أخشى أن يمتد الى ما يزيد عن نصف قرن من الزمان ..

لا أذكر اليوم ، تاريخ وفاة موم .. ولكنى أذكر أنه نيف على التسعين .. وبعد التسعين كان يعيش فى الريفييرا الفرنسية .. حياة شاب .. فى الثلاثين مرحا .. وايناسا .. واقبالا على الحياة ..

موليير

هو اسم الشهرة ، للكاتب الفرنسى من اعلام الكوميديا أو هو أبرز وأشهر أعلامها فى تاريخ المسرح أما اسمه الحقيقى فهو (جان بوكلان) .

كان فى صباه ثم فى شبابه مولعا بدراسة القانون .. يتطلع الى أن يكون من كبار المحامين .. ولكن ، تعشقه للفن .. وللمسرح على الأخص .. جعله يهجر المحاماة .. الى التمثيل ..

وكما كان التمثيل مهنة حقيرة عندنا ، الى ما قبل الحرب العالمية الثانية . فقد كان الناس فى فرنسا كذلك ، وبلغ من احتقارها ، أن حرموا اقامة مراسم الدفن المعتادة على الميت من الممثلين ، فكان طبيعيا .. أن يغضب أبو موليير حين رآه يهجر المحاماة الى المسرح .

ألف موليير (فرقة مسرحية) أطلق عليها اسم (المسرح الكبير) .. ولكن سرعان ما منيت الفرقة بالفشل .. وتراكمت على موليير الديون .. وعجز عن الدفع ، فاتهم بالاحتيال ، فألقى القبض عليه وأودع السجن .

ولم يجد والده بدا من انقاذه ، فسدد ديون الفرقة ، وأطلق سراح ابنه ومعه عدد من أفراد الفرقة الفاشلة ولكن ، لم يتأخر نجاح موليير ككاتب ، للمسرحية الكوميدية طويلا .. اذ جاء اليوم الذى كانت فيه باريس لا تتحدث عن أحد كما تتحدث عن موليير .. وسخرية موليير .. وفن موليير .

أحب موليير احدى ممثلات فرقته .. ولكنه هجرها ، حين أحس أنها تخذله وتخونه ..

ومرت الأعوام .. فاذا به يحب ابنة هذه الممثلة .. كان يكبرها بربع قرن .. ومع ذلك فقد أحبته ورضيت به زوجا .. وأخلصت له .. وأنجب منها ولدين ..

مازال الكثير من كتاب الكوميديا ، عالة على منهج موليير وأسلوبه .. ومازالت مسرحياته ، تمثل فى مسارح العالم حتى اليوم ..

ولد موليير فى عام ١٦٢٢ م .. وتوفى فى عام ١٦٧٣ م ..

وكما كان عصر اليزابيث ، يمتاز فى الأدب الانجليزى .. وفى الدراما على الأخص بشيكسبير ، ومارلو ، وجونسن فقد امتاز القرن السابع عشر فى فرنسا ، بموليير ، وكورنيه ، وراسين ..

ويدين المسرح الفرنسى ، فى التراجيديا والكوميديا ، على السواء ، للبلاط الملكى .. وللاريستوقراطية الفرنسية من الأمراء والنبلاء .. والى جانبهم الكردينال ريشليو .. ثم فى عهد موليير .. الكردينال مازارين .

من المسرحيات التى كونت شهرة موليير ، ورسخت قدمه ككاتب مسرحى كوميدى (مدرسة الأزواج) ثم (مدرسة الزوجات) .

ولكن من أشهر ما اقتبسه المسرح العربى ، أو مثله فى مصر ، مسرحيات .. (طرطوف) .. و (المريض بالوهم) .. و (المتصنعات الثقيلات) ..

من أعجب ، ما فى تكريسه كل جهده للمسرح ، وللكوميديا ، أنه كان مريضا ، عندما بدأت فرقته تمثل (مسرحية المريض بالوهم) .. فلم يكتف بأنه كاتب المسرحية .. وانما أصر على أن يمثل أحد أدوارها ..

وبعد ساعات قليلة ، من عرضها الرابع .. توفى موليير فى السابع من شهر فبراير عام ١٦٧٣ م ومع أن فرنسا كلها عاشت سخرية موليير ، ونكاته ، وشخصيات مسرحياته ، فان المجتمع والتقاليد قد بخلت عليه بمراسم الدفن المعتادة لأن مهنته (ممثل) ..

ولكن أوملته ، عرضت الأمر على الملك .. فأصدر أمره على رئيس الأساقفة ، بالاحتفال بدفنه فكان ما أراد الملك .. وسجل التاريخ - ربما لأول مرة - فى فرنسا تكريم الممثل .. والتمثيل ..

جورج برنارد شو

كما يحتل جورج برنارد شو ، احدى الذرى الشامخة فى الأدب العالمى ، ككاتب من أعاظم الكتاب الذين ، استطاعوا أن يحتفظوا للأدب الانجليزى بمكانته الرائدة ، فى الآداب العالمية فانه يحتل نفس الذروة . ويتشامخ كبير حتى بالنسبة لشيكسبير ، ككاتب مسرحى ، بلغ عدد المسرحيات التى أثرى بها اللغة الانجليزية ، نيفا وخمسين مشرحية ليس بينها ما يهبط بمستوى الكاتب الكبير ، أو يزحزحه عن القمة ، رغم الفترة الزمنية ، التى شهدت مخاض أولى مسرحياته وآخرها وهـو الـذى نيف على التسعين ، وظل يواصل عطاءه ، الى الأيام الأخيرة من عمره .

ومع أن برنارد شو ، قد عرف ككاتب محترف ، كرس كل حياته ووقته للعطاء ، فانه قد يمتاز عن كثير من رصفائه ، بأنه كاتب ملتزم ، يؤمن بمثل معينة ، ونظرات شخصية نحو النظام الاجتماعى فى الساحة الانسانية كلها ، ظل لا يتزحزح عن الدعوة اليها ، والنضال فى سبيلها ، عبر كل ما ظل قلمه يشع به فى عمره الطويل .. بل يذهب النقاد الى أن شيكسبير قد أغنى الأدب الانجليزى ، بالمتعة والفن ، بينما أغناها شو ، بها ، وبالقيم التى آمن بها وظل يكتب لترسيخها .

ومع الكثير من الجد الذى امتاز به أدب شو ، فان السخرية الضاحكة ، التى قد تجرح والجريح يضحك كانت طابع الكثير من تعليقاته ، وحتى توجيهاته فى السياسة والتربية والاجتماع ، التى تفرغ لها فى فترة الحرب العالمية الثانية ، لم تكن تخلو من هذه

المواضع التى تقع على الندوب ، فتجرح وتضحك الجرحى فى نفس الوقت الذى يصل فيه الجراح الى مكمن الألم .

من أشهر نوادره ، فى السخرية اللاذعة ، أنه كتب الى ونستن تشرشل ، يدعوه لحضور العرض الأول لاحدى مسرحياته فقال .. (أرسل اليك بطاقتين الأولى لك .. والثانية لصديقك . وبعد فاصل .. يقول « اذا كان لك صديق .. »)

ورآه ونستن تشرشل فى احدى سهرات المجتمع ، فقال له .. (ان من يراك ، يعتقد أن فى بريطانيا مجاعة ..)

وسرعان ما أجابه شو يقول .. (ومن يراك يا مستر تشرشل يعتقد أنك سبب المجاعة) .

بعد أن ضجت أركان المسرح بهدير الاعجاب بمسرحية شو (الانسان والسلاح) وقف شو على خشبة المسرح يريد أن يقول شيئا للجمهور .. فوقف أمامه أحد النظارة يعلن سخطه على المسرحية ويعلن عدم استحقاقها لهذا الاعجاب .. فتوجه اليه شو متلطفا وقال .. (أنا معك يا صديقى .. وأنت على حق .. ولكن ماذا نستطيع أن نفعل أنا وأنت ، أمام هذا الجمع الزاخر من المعجبين ..)

وطريق النجاح الذى سلكه بيرنارد شو ، لم يكن مفروشا بالورود .. وسيرة حياته ، والمتاعب التى واجهها جديرة بأن يقرأها أولئك الذين يتعجلون الشهرة والمجد عبر التافه من مكرور الكلام يسمونه أدبا . الى جانب اسلوبه الساخر ، فى تناول نبوات مجتمعه ، كان قاسيا أشد القسوة ، فى تشريح هذا المجتمع . كان يتناول الاديم المخملى الذى يتستر وراءه المجتمع ، فيمزقه أمام نظارة مسرحياته تمزيقا ، كثيرا ما أثار عليه سخط أولئك الذين يعنيهم الأمر .. وعبر هذا التشريح بقسوته وباللاذع المر من سخريته ، كان بيرنارد شو ، يضع قواعد مسرح جديد ، يمكن أن نسميه (المسرح العقلى) .. أو (مسرح الفكر) .. يقول النقاد ، عنه إنه المسرح الذى لم يسبق أن عرف مثله تاريخ المسرح ، عند أى أمة من الأمم التى ازدهرت فيها المسرحية ، كاليونان والصين والهند .

وصفوا مسرح بيرنارد شو ، فقالوا .. إنه مسرح موسيقى الأفكار ..

وقالوا أيضا .. أنه المسرح الذى طرد من الساحة الى الأبد ، فكرة (الفن للفن) .. وأكد أن (الفن للحياة ..)

أول ، وآخر زوجة لشو ، كانت فى الثانية والأربعين من العمر .. ولم يرزق منها أولادا .. وقد عاش حياته متقشفا .. فلم يكن .. يدخن .. ولا يشرب ، ولا يأكل اللحوم ، ولا يرتاد أندية ولا اجتماعات ولا ملاهى .. فاذا لامه من يأخذون عليه عزلته كان يقول : (أكتب مقالا .. أو مسرحية .. أو قصة .. فأفيد وأستفيد .. وما الفائدة ، فى أن أقضى وقتا يضيع فيما لا طائل وراءه من الثرثرة الفارغة والكلام المكروه ..) .

بعد أن أتم الرابعة والتسعين من العمر ، رجع الى هوايات أيامه فى الأربعين والخمسين ، وهى الرياضة والعناية بالحدائق والأزهار .. وفى ذات يوم من عام ١٩٥٠م زلت قدمه وهو يعالج هذه الهواية فى حديقته .. فنقل الى لندن وأجريت له عملية ، اضطر بعدها الى العيش (مقعدا) فى عربة .. وكان هذا أشد ما حز فى نفسه وأشعره بدنو أجله .. فقال لممرضته .. (كم تحاولين أن تحافظى على هذه التحفة العتيقة ؟. لقد فرغت من الدنيا وانتهى أمرى .. أنا ذاهب لأموت ..) .

وكان بيرنارد شو من القلائل فى هذه الدنيا ، الذين يؤكدون أن فى الموت لذة ومتعة ، لا تقل عن لذة ومتعة الحياة .. وقد غاب عن صوابه لأول مرة فى حياته ستا وعشرين ساعة .. لم يصح بعدها أبدا ..

وفى الساعة الأخيرة من غيبوبته ، ازدحم فناء دارته فى القرية بجمع كبير من الصحفيين ومندوبى وكالات الأنباء والمصورين ، خرجت اليهم خادمته ، فى الساعة الخامسة من صباح يوم ثانى نوفمبر عام ١٩٥٠م وقالت .. (مات مستر شو) .

وخرجت صحف العالم ، من أقصاه الى أقصاه .. من الغرب ، الى الشرق .. من باريس الى هونج كونج وبيكين بمانشيت عريض على الصفحة الأولى ، يقول : (مات بيرنارد شو) .

وتوالت تعليقات رجال الفكر والسياسة والمجتمع ، فى ذلك اليوم ، تتحدث عن

بيرنارد شو . فقال عنه مستر اتلي رئيس حزب العمال البريطاني يومذاك .. (لقد كان شو ، أعظم سامر فكه من سمارنا .. وأعظم معلم لنا .. وما من انسان عمل أكثر منه على شحذ الفكر ..)

وقال عنه جواهر لال نهرو .. (بيرنارد شو جزء من تفكيرنا الفردى .. وهو جزء من المناخ الذهنى لأزمتنا الراهنة)

ترك بيرنارد شو ، ثروة ضخمة بالنسبة لكاتب .. منها ، ممتلكات عقارية قدرت بمئة وخمسة وعشرين ألف جنيه .. أوصى بريعها ، لاصلاح التهجئة والاملاء فى اللغة الانجليزية .. ومنها ما لا يقل عن هذا المبلغ أرصدة فى بنوك أمريكا .. أوصى بانفاقها فى الأعمال الخيرية .. وأوصى بدخله من حقوق نشر مؤلفاته لمدة خمسين عاما ، ويقدر بما لا يقل عن مليون جنيه استرلينى لكل جهد يبذل لتطوير وتيسير اللغة الانجليزية أيضا ..



الكسندر سولجينيتسين

استطاع الأدب الروسى فى عهد الحكم القيصرى ، أن يدير رأس أوروبا ، لترى فى ذلك الجزء من العالم ، أدبا جديدا استطاع أن يجتاز سهوب الجليد والصقيع التى التهمت جيوش نابوليون ، لتجد مكانها المرموق ، فى محافل الأدب ودور النشر الكبرى فى فرنسا وانجلترا والمانيا وليتهافت عليها النقاد بما لا مزيد عليه من التقدير والاعجاب ، بحيث بدا لفترة من الزمن أن الأدب الروسى يكاد يسيطر على الفكر الأوروبى كله .

وكان من الاعلام الكبار الذين ظهروا فى العهد القيصرى ، تولستوى ودوستويفسكى . وايفان تورجينيف وأنطون تشيكوف ، وجوجول ، وبوشكين ، وهذا الى جانب ما لا يقل عن ستين شاعرا اختلفت مدارسهم ، بين الرومانسية والانطباعية والرمزية ، والرياليزمية محتفظة دائما بالملامح الروسية ، التى تتعشق الطبيعة ، وتمجد الفضائل ، وتدعو الى المثل الانسانية الرفيعة ، وتشجب الشر والعدوان .

ثم حدث ذلك الزلزال ، وتفجر الطوفان ، واستتبع ذلك أن تسيل الدماء أنهارا ، وأن تنشق الأرض لتبتلع جثث الألوف من ضحايا الارهاب الشيوعى ، وأن تفغر السجون أفواهها لتزدحم بمئات الألوف من المحكوم عليهم اما بالسجن المؤبد الى الموت ، أو بالنفى الى جليد سيبيريا .. بحيث أكدت الاحصائيات التى ظلت تتوالى طيلة أكثر من عقدين من السنين أن من سحقهم الارهاب الشيوعى بالقتل الجماعى ، أو بالنفى

للموت فى سيبيريا ، أو بالموت فى ظلام السجون ، قد زاد عشرة أضعاف عدد الذين قتلوا فى جبهات القتال ، فى جميع الحروب التى خاضت معاركها روسيا القيصرية خلال عدة قرون .

وبالنسبة للأدب ، فقد بدا للعالم كان الشعب الروسى قد أصيب بالعقم ، فلم يعد أحد يسمع عن كاتب أو أديب ، باستثناء أولئك الذين يحتضنهم الارهاب من الطبالين والزمارين الذين سخرهم الارهاب ، لتمجيد السفاحين والطغاة ، وتبرير البطش والارهاب .

ومرت أعوام ، طويلة ، والستار الحديدى مطبق على الفكر والحياة ، بل مطبق على مجرد استنشاق الهواء فضلا عن الكلمة والحرف ..

ثم ـ وعلى غير انتظار ـ تسربت ، من وراء هذا الستار الحديدى ، ومن بين فكى الكماشة الضاغطة على الاعناق قصة بوريس باسترناك (دكتور جيفاكو) .. وتلقفتها دور النشر وانحنت عليها أعناق المترجمين ، ينقلونها الى اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية ثم الى كل لغة مكتوبة فى جميع أنحاء العالم . وبتسلل قصة بوريس بانسترناك وجدت بعض الآثار الأدبية المتحررة من الارهاب ، والصارخة من شدة العذاب ، طريقها الى العالم الحر .. فظهرت فى انجلترا ، مجموعة من الشعر بعنوان (عودة الى الحياة) .. جمعها ونقلها الى الانجليزية (روبرت كونكست) وطبعتها طباعة أنيقة دار (هاتشيسن) فى لندن . فى عام ١٩٥٨ م .

وكان لابد للعالم أن ينتظر المزيد من أدب الأحرار فى روسيا .. المزيد من الكلمة المضيئة التى تشق كسف الظلام ، وتنير الطريق الى بعض ما أهدر من كرامة الانسان .

ومن غمرة الكبت ، ومن وراء القضبان ، والأسوار تسلل الى العالم اسم جديد ، كاتب قصصى آخر ذكر رجال الفكر مرة أخرى ببوريس باسترناك .. وما كادت أعماله تنقل الى اللغات التى يقرأها العالم ، حتى رشح لجائزة نوبل .. ولكن ما كاد جلادو الفكر وسفاحو الحرية ، من القابضين على مقاليد السلطة فى الكريملين يعلمون بذلك ،

حتى أسرعوا الى ارغام الكاتب على رفض الجائزة ، ثم عادوا فسمحوا له بأن ينالها ، ولكن دون الاحتفال التقليدى ، لا فى موطن الجائزة ولا فى أى بلد من بلدان الاتحاد السوفيتى .. بل ذهبوا الى منع الاحتفال بتقديم الجائزة ، حتى فى احدى سفارتى السويد والنرويج ، وهما سفارتا البلدين اللذين تتكون منهما لجنة تقدير الأعمال التى تستحق الجائزة ، ولم يطل الأمر حتى اتهم الكاتب بالانحراف فطرد من اتحاد الكتاب والفنانين ، ثم رشح للحجز فى أحد السجون التى تغطى باسم (مصح عقلى) .

هذا الكاتب - وقصة اضطهاده مازالت تستأثر باهتمام دوائر الأدب والفن فى العالم - هو (الكساندر سولجنيستين) .

كاتب قصة (نحن لا نخطىء أبدا) وقصة (يوم فى حياة ايفان دينيسوفيتش) وقصة (جناح السرطان) .. وهى فيما أعلم الوحيدة التى نقلت الى العربية منذ سنين .

يقول سولجنيستين .. (ضميرى مطمئن وواضح .. اذ قد أديت واجبى ككاتب .. ولن يستطيع مخلوق أن يقطع الطريق على الحقيقة .. وأنا مستعد لأن أموت فى سبيل مسيرتها) .

وقال النقاد عن قصة (يوم فى حياة ايفان دينيسوفيتش) هذه القصة الرهيبة لجحيم من واقع الانسان .. لقصة مخيمات العمل فى الاتحاد السوفيتى .. وقصة النضال البطولى لرجل صمم على أن يعيش فى وجه أقسى تحد صمم على تدميره .. قصة الارهاب الشيوعى الذى يزلزل ويهز الاتحاد السوفيتى من أقصاه الى أقصاه .

الفكر العربى فى مرحلة الانجراف التى يخطط لها عملاء الشيوعية ، وزعانفها الزاحفة وراء مزابل ونفايات موسكو وبيكين .. هذا الفكر - فى هذه المرحلة بالذات - مسؤول عن ازاحة الستار عن الجحيم الذى يعيشه سولجينيستين ، والذى عاشه قبله بوريس باسترناك ، ومجموعة الشعراء الأحرار التى نقلت ، وما تزال تنقل الى الانجليزية والى غيرها من اللغات ..

هذا اذا كنا نعى حقا مسؤوليتنا الفكرية نحو الجيل الذى يعبث بوعيه العملاء .

بول بورجيه

على كثرة ما حفل به القرن التاسع عشر ، الى الثلاثينات من القرن العشرين من انفلات الفكر وتمرده على قيود الكلاسيكية من جهة وعلى القيم والعادات والتقاليد والتراث من جهة أخرى ، فان هذه الفترة من التوثب الفكرى لم تخل من الكتاب ورجال الفكر والفن الذين روعهم ما اعتبروه تدهورا فى التكوين الاجتماعى ، وخطرا على مستقبل الأخلاق ، ونذيرا بالتفسخ والانحلال اللذين يعودان بالانسان الى جاهليته الأولى ، يوم كان لا يسيطر عليه ولا يحكم تصرفاته الا الغرائز ولا يردعه عن أى تصرف حيوانى الا القوة القاهرة وحدها .

ومن هؤلاء الكتاب ، (بول بورجيه) وهو الكاتب الفرنسى الذى ولد فى مدينة بفرنسا فى الثانى من سبتمبر عام الف وثمانمئة واثنين وخمسين .

وكانت أولى تجارب بول بورجيه الأدبية ديوان شعر ، نشره تحت عنوان (على شاطئ البحر) ولم يبلغ من العمر أكثر من واحد وعشرين عاما .. ولكن آراء النقاد فى باريس ، أجمعت على أن ما فيه أبعد ما يكون عن روح الشعر وأغراضه وآفاقه .. وكان أهم ما أخذ عليه أن الشعر فيه أقرب الى أن يكون تقريرا لقضايا عقلية بحتة ، ولا يستطيع الشعر أن يشرق ويتألق ويهزج ويملأ النفوس طربا وغناء ، اذ طوقه المنطق والعقل ، وجمدت فيه العواطف والمشاعر واشتعالات الوجدان ، يمكن أن يلهم الشاعر فى

قصيدة من قصائده حكمة ، أو حتى بريقا أو شعاعا لقضية من قضايا الفكر الكبرى ، ولكن حتى هذا يظل الهاما ، وومضة تشع وتنير وتستغنى عن دعمها بالحجج والبراهين .. أو ما يشبه الحجج والبراهين التى يفرغ لها العلماء وأصحاب الفكر البحث الذى لا يستهدف شيئا سوى القضية التى يعالج بحثها وايضاحها ..

وقد أحس بورجيه واقتنع بأن الشعر ليس ميدانه . وأنه لن يكون فى عداد رصفائه من شعراء فرنسا وانجلترا فى تلك الفترة الموارة بالعبقريات الكبيرة التى ما زالت تطل على حياة الفكر حتى اليوم . ولذلك فقد اتجه الى النثر .. فكتب فصولا فى النقد الأدبى نشرت على مراحل فى احدى المجلات المتخصصة فى فرنسا . تحت عنوان (دراسات فى علم النفس العصرى) .. وجدت من اقبال القراء عليها ما شجعه على أن يجمع هذه الفصول وأن ينشرها بين دفتى كتاب . قدر له رواج طيب نسبى . يعتبر نجاحا فى بلد كفرنسا تزدحم ـ فى تلك الأيام ـ بالأكابر من الكتاب والمشاهير من جبابرة الفكر .

وفى سنة ١٨٨٤ م قام بول بورجيه بزيارة لانجلترا . وأقام فيها فترة . كتب خلالها أولى رواياته بعنوان (ما لا يمكن اصلاحه) .. وقد لقيت الرواية حظا طيبا من النجاح والرواج . فانطلق يكتب الروايات التى لفتت اليه أنظار النقاد والعباقرة كتاب القصة على السواء . وهى رواية (التلميذ) .. التى نجد النقاد يتحدثون عنها باعتبارها فتحا فى الرواية النفسية التى تتلاحق أحداثها ببواعث منابعها إلى الأعماق البعيدة فى أغوار النفس الانسانية . وبالنجاح الذى لقيته رواية (التلميذ) وجد بول بورجيه حوافزه الى كتابة الرواية بنفس الأسلوب والمنحى فكتب رواياته ـ (قلب امرأة) و (أندريه كورنيليس) و (الدوقة الزرقاء) و (جريمة حب) و (معنى الموت) .

وكما قلنا فى بداية هذه الكلمة . لم يخل القرن التاسع عشر . وبداية القرن العشرين الى الثلاثينات منه من الكتاب ورجال الفكر والفن . الذين صمدوا لموجة التمرد والانفلات .. وكان بول بورجيه فى رواية التلميذ فى طليعة الكتاب الذين امتازوا بدقة النظرة فيما سوف تنتهى اليه موجة التمرد فكانت رواية التلميذ صيحة تحذير للشباب العصرى من خطر الاعتماد المطلق على العقلانية المادية والتحلل من ضوابط

القيم الروحية والايمان .. فهى ـ واعنى الرواية ـ تصور نتائج التعاليم والأفكار المنفلتة من ضوابط الخلق والدين .. وقال بورجيه قبل وفاته فى عام ١٩٣٦ عن هذه الرواية بالذات أنه كتبها وهو يشعر بمسؤولية الكاتب عن مصير ومستقبل الشباب والأجيال الصاعدة . ومما يؤثر عنه أنه قال : لا يكفى أبدا أن يكون الشاب متفوقا فى حياته العامة اذا كان هذا التفوق على حساب التضحية بالأخلاق والقيم والفضائل التى حثت عليها عقائد السماء وآمن بها الفكر القادر على رؤية الحقائق ببصيرة تتخطى حواجز الأنانية والغرور فى الانسان .

توماس كارلايل

المألوف فى تقدير كبار رجال الأدب والفن والفكر ، أن يبلغ أقصى درجاته ، وأن يأخذ أوضح مظاهره ، بعد أن يفرغ الكاتب أو الأديب أو الفنان أو رجل الفكر ، من هذه الدنيا .. بعد أن يفارقها الى مثواه الأخير .

ظاهرة لا تفسير لها ، الا أن نفترض أن بيئة الكاتب ، أو بيئة الفنان ، لا تشعر بالفراغ الذى يتركه الا بعد أن يموت ..

صحيح أن قلة من مشاهير الشعراء والفنانين قد نعموا بحفاوة الناس وتقديرهم فى حياتهم ، ولكنه الشذوذ الذى يثبت القاعدة .. أو القاعدة المألوفة حتى اليوم ان لم يكن فى جميع أنحاء العالم ، ففى العالم العربى على الأقل .

ويختلف الكاتب الانجليزى (توماس كارلايل) عن غيره من اعلام الأدب فى القرن التاسع عشر ، بأنه لقى فى حياته كل ما يطمح اليه كاتب من التقدير والحفاوة وحظيت كتبه بالكثير من النقد والدراسة والتحليل ، ولكن ، بعد مماته حدث العكس تماما ، اذ تناولته أقلام النقاد بقسوة بالغة ، وحملت عليه حملات عارمة ، وجدت من يعارضها ومن يدفع عنه ما أخذ عليه ــ وهو كثير ــ ولكن ظل أغلب ما كتب عنه بعد مماته يميل الى التشكيك فى قدراته ، وفيما ترك من آثار .

وهو صاحب كتاب (الأبطال) الذى نقله الى العربية المرحوم الأستاذ اسماعيل مظهر فى أوائل الثلاثينات .

وبقراءة كتاب (الأبطال) لتوماس كارلايل ، ندرك بعض الأسباب التى جعلت الأقلام تتجه الى نقده والحملة عليه بعد وفاته . اذ نرى فيه الكاتب يرفض باصرار الدعوة الى (المساواة) .. فهو يرى أن الناس غير متساوين ولا سبيل الى أن يكونوا كذلك ، لأن لبعضهم مواهب وقدرات تؤهلهم لأن تكون لهم المكانة المرموقة فى المجتمع ، وفى الحياة عموما ، بينما بعضهم أو أكثرهم محروم من هذه المواهب . والقدرات ، فكيف يصح أن يتساوى أولئك بهؤلاء ؟ كيف يستوى النابغة والعبقرى والفدم الغبى .. ومن هذه النظرة تنكر كارلايل للديمقراطية التى تعبث بالقيم ، وتستبعد المتفوقين وأصحاب القدرات الكبيرة ، بينما تفسح المجال للدعى ، والكاذب ، والقادر على خداع الناس - ولعله كان يقصد ديمقراطية الانتخابات ، التى ما تزال حتى اليوم - فى كثير من بلدان العالم ، وقفا على من يستطيع أن يدعم ترشيحه لنفسه بما ينفق من أموال وما يسرف فيه من وعود توصله الى المقعد فاذا وصل اليه نسى أو تناسى كل ما وعد به .

ويقول الأستاذ على أدهم الذى كتب دراسة طيبة عن كتاب الأبطال ، ومقدمة عن توماس كارلايل . (حياة كارلايل مثل حياة أكثر الكتاب والمؤلفين ، لم تتخللها احداث خارجية عظيمة ، فهى تكاد تكون مقصورة على مغامراته الفكرية والمؤلفات التى استأثرت بجهده ، واستغرقت وقته ، وحياته الزوجية وعلاقاته باصدقائه القليلين المختارين) ثم يقول : (ولد كارلايل فى (أكليفيكان) احدى قرى مقاطعة (دمفريزشاير) بانجلترا فى اليوم الرابع من ديسمبر عام ١٧٩٥م ،أى قبل أن يبدأ نابليون بونابرت ، غزواته فى أوروبا بأربعة أشهر .) .

وكتاب (كارلايل) عن (الأبطال) حظى بالتقدير ، الى جانب النقد .. وهو فى هذا الكتاب يجد الرابطة الوثيقة بين (البطل) وحضارة عصره ، والشعور بالبطولة فى الانسان ، هو الذى يجدد الانسانية ، وينقذها من الضلال والتخلف والجمود . وكأنه يقول لنا : إن تطور الحياة الانسانية عموما مرتبط بوجود البطل أو الأبطال .. وتتعدد صور الأبطال فى كتاب كارلايل ، فمنهم الشعراء مثل شيكسبير ، ومنهم المحاربون والقادة مثل (كرومويل) ونابوليون .. أما الأبطال من الأنبياء ، فلا يرى كارلايل

بينهم أو لا يختار منهم سوى سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ..

وهو يقول عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه : (يزعم المتعصبون من النصارى ومعهم الملحدون أنه لم يكن يريد بقيامه الا الشهرة الشخصية ومفاخرة الجاه والسلطان .. كلا وايم الله .. لقد كان من فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفاز .. المتوقد العينين ، العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيرا ، فكيف وتلك نفس صامتة كبيرة وصاحبها رجل من الذين لا يمكنهم الا أن يكونوا مخلصين جادين .. لقد كان متفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات .. لقد كان سر الوجود يسطع فى عينيه .. لم يكن هناك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه ..)

صلوات الله وسلامه عليه .

وبرغم الكثير والمتعسف من النقد الذى وجه الى كتاب الأبطال لكارلايل وعن موقف البطل وتأثره فى التاريخ ، فان نظرات الكاتب ما تزال تحتفظ بقوتها حتى اليوم .. وسيظل كتابه (الأبطال) من الآثار الفنية الممتازة ، فى الأدب الإنجليزى .. بل وفى الأدب العالمى على الإطلاق .



فيكتور هوجو

يندر أن تجد قارئا ـ فى أى رقعة من العالم ، أو فى أى أمة من الأمم ـ لا يذكر قصة (البؤساء) .. ولعل الكثيرين منهم يذكر بطلها الأول (جان فالجان) .. ولكن ـ وهذا غريب ـ قد تجد من لا يعرف أو من لم يسمع شيئا عن كاتبها (فيكتور هوجو)

ولا تقل قصة (أحدب نوتردام دى بارى) شهرة عن قصة البؤساء وذيوع صيت .. والقصتان ظهرتا فى أفلام منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما .. ثم أعيد إخراجهما عدة مرات ، عندما ظهر الفيلم الملون ولا يستبعد أن يعاد اخراجهما مرات ومرات ، كلما وجد المخرج الذى يعيد فى القصتين زاوية للرؤية تختلف عن الزاوية التى رأى غيرها من سبقه من المخرجين .

والعجيب عن كاتب القصتين ، اللتين استذرفتا اطنانا من دموع الملايين الذين قرأوهما أو رأوا أحداثهما على الشاشة ، هو أنه معروف كشاعر ، من أكابر شعراء فرنسا ، وقد يعتبرونه كاتبا مسرحيا ، أما شهرته ككاتب قصة فأقل كثيرا من شهرته كشاعر أو كاتب مسرحى .

ولد فيكتور هوجو فى العام الثانى بعد الألف والثمانمئة ميلادية . من أب كان جنرالا فى جيوش نابليون بونابرت .. وكان الذى يتفق مع طبيعة انتمائه إلى أسرة تتمتع بمقام ملحوظ كهذا ، أن يحرص على هذا الانتماء ، وأن ينعم بأبهة المركز الذى كان يتمتع به أبوه ،

ولكن فيكتور ، انتفض على العهد البونابرتى كله وبالأخص على عهد لويس فيليب ، ووقف موقف المعارض العنيف والناقد بلسان من لهب ، من نابليون الثالث ، بحيث لم يجد النظام بدا من نفيه عن باريس فى عام الف وثمانمئة وواحد وخمسين .. وظل فى منفاه الى أن عاد فى سنة ألف وثمانمئة وسبعين حيث استقبل استقبال كبار أبطال التاريخ .. وظلت نظرة الشعب الفرنسى اليه نظرة اكبار واجلال إلى أن توفى فى عام ألف وثمانمئة وخمسة وثمانين .. وقد بلغ من تقدير الفرنسيين له ، واعجابهم به أن فكر بعضهم فى أن يبدلوا اسم (باريس) ليسموه (هوجو) .. ولم يكن الاعجاب الكبير منحصرا فى مواقفه من عهد نابليون الثالث ، وانما لأنه الكاتب والشاعر ، الذى ترك تراثا ضخما بلغ خمسين مؤلفا قد لا تكون كلها روائع ، ولكن بينها الكثير مما لا يزال يعيش فى أذهان الفرنسيين ، وما لا يزال يغنيه الأطفال أو يحفظونه ، بحيث يتعذر أن تجد فرنسيا لا يحفظ أبياتا أو قصائد كاملة من شعر فيكتور هوجو .

ومن أشهر مسرحياته ، مسرحية عن حياة (كرومويل) .. وتأتى شهرة هذه المسرحية من المقدمة التى كتبها هوجو واعتبرها النقاد بداية المدرسة الرومانسية الفرنسية ، وأفسحت له مكان الذروة الشاهقة بين أدباء فرنسا فى عهده . وبهذه المقدمة وبما تلاحق من تعليقاته ونقده للكلاسيكية وقواعدها ، وبفلسفته عن الجمال والقبح ، وبما كتبه معجبا بعبقرية شيكسبير ، ككاتب مسرحى استطاع أن يجمع بين الكوميديا والتراجيديا فى مسرحياته يمكن القول أنه أسس مدرسة فى الأدب هى المدرسة الرومانسية الفرنسية ، التى تكاثر المعجبون بها والمنتمون اليها أيام حياته وبعد موته .

ونظرة النقاد فى الأدب العالمى ، الى البؤساء ، التى راجت فى عالمنا العربى رواجا ما يزال يتعاظم حتى اليوم ، تختلف عن نظرتهم الى أحدب نوتردام دى بارى .. التى تقل عندنا شهرة عن البؤساء .. وكما يذكر المثقفون عندنا بطل البؤساء (جان فالجان) .. فان المثقفين فى فرنسا ، يذكرون بطل (أحدب نوتردام دى بارى) وهو (كوازيمودو) الأحدب الذى تنتهى قصة حبه ، بسقوطه من أعلى قباب الكاتدرائية الى الأرض .

مما يروى عن عظمة فيكتور هوجو ، ككاتب وشاعر وقصاص وكاتب مسرحى ، أن

أحد ممثلى مسرحية من مسرحياته ، جاءه يقول (ان كلمة فى النص الذى بيده ليست فرنسية ..) ودون ان يلتفت هوجو الى الممثل قال (ستصبح فرنسية يا ولدى ..)

ومن ظرفه ورقة حاشيته يروى أنه القى نظرة الى احدى الفتيات ، وقد حلت صدرها بباقة من الزهر .. ويبدو أنها تحرجت من أن يراها هوجو فقالت : (إنها ذكرى ميلادى .. عيدى يا سيدى) .. فضحك الكاتب الكبير وأجاب وهو ينحنى لها متلطفا . (كلا يا فتاتى .. انه عيد الزهر يا آنستى) .



برناردان دي سان بيير

هيلين باكية بتفجع : مات .. مات سيدك دى لاتور ، يا مارى .. (تبكى) .. أجل مات .. مات .

مارى (خادمة) باكية : أجل يا سيدتى .. فقد كنت أرى كيف تسحقه الآلام يوما بعد يوم .. (تبكى) والآن .. (تبكى) .. والآن يا سيدتى ليس لنا الا أن نطلب من الله العزاء ، والرحمة .

هيلين باكية : مات سيدك يا مارى ، وأنا هنا فى هذه الجزيرة .. فى (ايل دى فرانس) .. تصورى أن يموت ونحن هنا .. فى هذه الجزيرة .. ياالله .. (تبكى) .. وأهلى كلهم .. كلهم يا مارى فى فرنسا .. ليس لى هنا أحد .. ليس لى قريب .. ليس لى من أعتمد عليه ..

مارى : لك الله يا سيدتى .. تستطعين أن تكتبى اليهم .. كما تستطيعين أن تعودى الى فرنسا اذا شئت ..

هيلين باكية : مستحيل .. مستحيل يا مارى .. انك لا تعلمين .. لا تعلمين أنى تزوجته رغم معارضة أسرتى .. لا تعلمين ، أنهم اعترضوا على زواجى منه ، لأنهم يزعمون أنه لم يكن كفؤا لى .. فلا سبيل اليوم الى أن أعود اليهم .. (تبكى) كلا .. لا سبيل اطلاقا ..

ماری : أنی عاجزة عن أن أساعدك يا سيدتی .. ولكن ما فائدة البكاء ..؟ تذرعی بالصبر واتجهی بالصلاة الى الله ، ان يساعدك فی هذه الغربة الموحشة ..

هيلين باكية : صدقت .. صدقت يا ماری .. ما فائدة البكاء .. ولكن (تختنق بالبكاء وتشهق) تصوری .. أنی .. أنی (منفجرة بالبكاء) .. أنی حامل يا ماری .

ماری بدهشة : هل قلت أنك حامل يا سيدتی ؟؟

هيلين باكية : أجل (تبكی) .. حامل .. فمن لی مع هذا الطفل الذی سوف يخرج الى الدنيا ولا يجد سوای .

ماری : لك الله يا سيدتی .. ان الله ارحم بك وبه من كل مخلوق ..

هيلين باكية : ولكن .. ولكن .. كيف نعيش ؟؟؟ كيف أستطيع أن أدبر أمر معيشتی بعد ، أن فقدت سيدك يا ماری ..

ماری : نعيش يا سيدتی .. نعيش كما يعيش الكثيرون .. فی هذه الجزيرة ..

هيلين : فی هذه الجزيرة ؟؟؟ كيف ؟؟ من أين لنا المال الذی كان يجیٔ به سيدك ..

ماری : هناك يا سيدتی ، عند سفح الجبل ، أرض نستطيع أن نزرعها .

هيلين : نزرعها ؟؟

ماری : أجل يا سيدتی ، نزرع الأرض .. ونربی الدواجن ، والماشية ، كثيرون يا سيدتی يعيشون هكذا ..

هيلين : ولكن .. كيف ؟؟ كيف نطيق أن نعيش وحدنا .. أنا وأنت ، وذلك الطفل البریٔ الذی سيجیٔ الى هذه الدنيا ، ولا يجد من يحنو عليه سوای ...؟؟

ماری : لن نكون وحدنا يا سيدتی فانی أعرف هناك .. عند سفح الجبل ، السيدة مرجريت التی تعيش مع خادمها دونج .. وهی تزرع الأرض ، وتأكل من ثمارها ، وقد سمعت أنها وضعت منذ أيام طفلا اسمه (بول) ..

هيلين بدهشة : وضعت طفلا ؟؟؟ ومع ذلك فهی وحيدة ؟؟ أين أبو الطفل يا ماری ؟

ماری : لا أعرف القصة كلها ، ولكنی أعتقد أن أباه فی فرنسا .. وقد تخلی عنه وعنها ، فلم تجد مكانا تلجأ اليه سوی هذه الجزيرة .. .. واضطرت أن تلوذ بتلك

الأرض .. هناك عند سفح الجبل .. وكما قلت لك ، فهى تزرع الأرض وتأكل من ثمارها .

هيلين مطمئنة : اذن .. حسنا .. اذن فهناك مرغريت ، وطفلها وخادمها .. فاذا لحقنا بهم فسنكون ، أنا وأنت والطفل الذى سيجئ .. سنكون ..

مارى مقاطعة : سنكون معا .. سنعيش معا .. تجمعنا المحبة ، وتعطينا الأرض من ثمارها .. وتغمرنا السماء برحمتها .. ان الله لا ينسى أمثالنا من البؤساء يا سيدتى ..

هيلين : حسنا يا مارى .. على أية حال ، سأفكر فى هذا الأمر ..

مارى : أؤكد لك يا سيدتى ، أن الحياة هناك ، عند سفح الجبل ، ستكون محتملة مع مرور الأيام .

هيلين : هو ذاك .. كل شئ يمكن أن يكون محتملا مع مرور الأيام .. صدقت يا مارى ..

***

دومنج (خادم) : ما هى الا يومان ونفرغ من بناء الكوخ .. أكدى لسيدتك يا مارى ، أنه سيكون كوخا مريحا كالكوخ الذى تسكنه سيدتى مرغريت .. وأنظرى .. كم سيكون رائعا أن ترى هذين الكوخين فى قلب هذه الخضرة العميقة وراء أشجار الموز .. وتحت سفح هذا الجبل الوردى ..

مارى (الخادمة) : ما أعظم العزاء الذى أنزله الله على قلب سيدتى هيلين ، منذ اجتمعت بالسيدة مرغريت وطفلها بول ..

دومنج : لقد سمعت سيدتى مرغريت تقول للسيدة هيلين

مرغريت : أراد الله أن ينهى آلامى فارسلك الى وملأ قلبك بالعطف على ..

هيلين : وآلامى يا مرغريت .. كيف كان يمكن أن تنتهى ، وأن أرى وجه الحياة يبتسم مطمئنا لولا أن أرسلك الله الى .. أنت والعزيز بول ..

مارغريت : وما أسعدنى بان الله يرزقك طفلا .. ينمو مع بول ، ويدرجان فى الحياة معا ويملآنها مرحا وحنانا وحبا .. مع هذه البقعة من الأرض ، التى سترين كيف نستطيع أن

نصنع منها جنة صغيرة لهما ..

هيلين : ما أعظم رحمة الله وما أوسع كرمه يا مرغريت .. تصورى .. ان أجدك أنت بالذات ولك مثل ظروفى .. وأن نعيش معا ، وأن تنظر الى المستقبل هذه النظرة الراضية المطمئنة ، على الرغم من بعدنا عن الأهل والوطن ..

مرغريت بسخرية : الأهل والوطن ؟؟؟ ماذا وجدنا فيهما غير الشقاء .. والحقد والكراهية ..

هيلين : صدقت يا مرغريت .. فانى منذ جئت الى هذا المكان عند سفح الجبل ، وأنا أشعر ، كأنى أولد من جديد .. وأرى الحياة على حقيقتها .. على فطرتها الصافية النقية التى أرادها الله للبشر ، لولا أنهم دمروها ، وملأوها بالشرور والأحقاد والآثام ..

***

الراوى (العجوز) : وكنت أنا صديقا لهاتين الأسرتين .. كنت أعيش فى جزيرة (ايل دى فرانس) التى كانتا تعيشان فيها .. ثم انتقلت ، الى هذه الأرض عند سفح الجبل ، بعد أن أثقلتنى السنون والهموم .. ورأيت بعينى ، كيف كانت الأسرتان تشتركان فى زراعة الأرض واقتسام المحاصيل وبيع الفائض منها فى المدينة .. كما أذكر يوم ولدت هيلين .. ورزقها الله بابنتها (فيرجينى) ومازلت أذكر أنها وهى تسميها (فيرجينى) ..

هيلين : أن فضيلتها ستكون مصدر سعادتى كما كانت أخطائى مصدر شقائى ..

الراوى العجوز : وقد تزوج الخادم دومنج من الخادمة مارى ، وكان لهما كلب يحرس الحظيرة التى كانوا يربون فيها الدواجن والمعيز ، وبهذه الصورة تكامل هذا المجتمع الصغير بعيدا عن الحضارة ، يرتزق من موارد الأرض الطيبة ، وليس فى حياته الا قانون الفضيلة والخير .. وكانت هذه الحياة الطبيعية البسيطة تزيد سعادة هذا المجتمع الصغير .

ضحكات طفلين بين الثامنة والسابعة من العمر ..

***

الراوى العجوز : وشب الطفلان .. بول وفيرجينى ، وكل منهما ينادى الآخر (أخى)

ولا يفرقان بين هيلين ومرجريت فكل منهما أم للطفلين .. وما أجمل ما امتزج القلبان الصغيران الطاهران .. بل لم يكن ثمة أغرب من تعلق كل من الطفلين بالآخر كان اذا شكا بول من مرض ، أحضروا له فيرجينى ، فما أسرع ما تشرق الابتسامة على محياه الجميل .. وما أجمل منظرهما ، حين كنت أراهما يدرجان متعانقين .. حتى الليل لم يكن يفرق بينهما .. كان لهما مهد واحد ينامان فيه ، وخداهما ملتصقان وصدراهما متقاربان ، ويد كل منهما ملتفة حول عنق صاحبه وقد توسد ذراعه ..

وكبر الطفلان .. تجاوزا سن الطفولة .. وكنت منحدرا ذات يوم من قمة الجبل ، فرأيت فيرجينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت طرف ثوبها وأسدلته على رأسها تتقى به المطر .. وظننت لأول وهلة أنها بمفردها فما كدت أدنو منها لأساعدها على المسير حتى رأيتها ممسكة بذراع بول يضمهما إزار واحد وهما يضحكان مغتبطين بهذه المظلة الواحدة التى ابتكراها لتحميهما من المطر .

* * *

فيرجينى (فتاة) بمرح : الى أين يا بول ؟؟ ما تزال الشمس لم تشرق بعد ؟؟

بول ضاحكا (عن بعد) : الى الحقل يا فيرجينى .. على أن أجمع الثمار ، ثم لابد لى أن أذهب الى الغابة أجتث بعض الأشجار ، وأعد المساحة الجديدة من الأرض للموسم القادم .

فيرجينى ضاحكة : ولكن .. حذار أن تتأخر ، فانى أعد اليوم غذاء شهيا ، تعلمت من أمى كيف أعده كما يعدونه هناك ، فى فرنسا .

بول : لن أتأخر .. وأرجو ألا تعوقنى الأمطار .. .

هيلين : اذا كنت تريدين أن تعدى هذا الغذاء الشهى كما تقولين ، فان عليك أن تسرعى بتنظيف واعداد المائدة ان مارى مشغولة فى الحقل كما تعلمين ..

مرغريت : سألتك الله ألا تثقلى عليها .. فان دومنج سرعان ما يفرغ من عمله ويعود ليساعدها فى كل شئ .

هيلين : لقد بلغت السن التى يجب أن تعرف فيها كيف تدبر شؤون منزلها يا مرغريت

مرغريت : هذا صحيح .. ولكنها لا تدخر وسعا .. انها لا تقل عن بول نشاطا .

فيرجين ضاحكة : لا عليكما .. فانى سأقوم بكل أعمال المنزل ، دون أن يساعدنى أحد ..

* * *

الراوى العجوز : وفى ذات يوم ، وقد بلغت فيرجينى الثانية عشرة من عمرها تلقت هيلين رسالة من باريس .. من عمتها ، ورأيت فى وجه هذه السيدة الطيبة سحابة من الحزن والأسى .. وحدثتنى قائلة .

هيلين : ياالله .. انها عمتى يا سيدى .. ولشد ما أكرهها ، انك لا تعرف كم هى غليظة القلب ، شامخة الأنف وهى تكرهنى ولم تفكر قط فى مساعدتى ، مع انها عانس وعلى أعظم جانب من الثراء ..

مرجريت مواسية : ما عليك منها .. وما ارتباطك بها ؟؟ ان الله لم يتركنا ، وليس لنا سواه ..

هيلين : السعادة عندنا ، وبين أيدينا ، ولكن هذا الشقاء .. هذا هو يأتينا من هناك .. من فرنسا .. من عمتى القاسية .

مرغريت مندهشة : **ولكن .. ما الذى حدث .؟**

هيلين : هذه الرسالة من عمتى تدعونى فيها الى العودة الى باريس ، أوأن أرسل اليها فيرجينى لتهيىء لها مستقبلا أفضل ، وتيسر لها الزواج من رجل ثرى يليق بأسرتها وسوف تكتب لها كل ثروتها ..

مرغريت فى فزع : وهل سترسلين فيرجينى ؟؟؟ كيف يا هيلين ، ونحن نفكر فى زواجها من بول ..

هيلين : كلا .. (فى حدة) .. كلا .. ولا توجد قوة تجبرنى على أن أفارقها ..

* * *

الراوى العجوز : ولكن ما هى الا أيام .. حتى بعث حاكم الجزيرة الى هيلين يخبرها أنه تلقى من السلطات فى باريس أمرا بضرورة ترحيلها ، أو ترحيل فيرجينى وحدها ..

* * *

بول فى هياج : كيف ؟ كيف تسمحين وأنت أمها ؟؟ كيف تسمحين بأن تسافر وحدها أيتها الأم القاسية المجردة من العاطفة .. عبر هذه البحار التى تعرضين فيرجينى

لأهوالها ألا تعيدها لك بعد اليوم .. ليت هذه الأمواج تحمل اليك جثتينا وتقذف بهما فوق صخور الشاطئ فتنزل بعد موت ولديك حزنا مقيما ولوعة دائمة ..

* * *

الراوى العجوز : وسافرت فيرجينى ، فى عاصفة من أحزان هذا المجتمع الذى ظل يعيش حتى اليوم فى أحضان السعادة والهناء .. سافرت فيرجينى .. وبقى بول وحده يطوف بكل موقع كان عزيزا على فيرجينى ، رفيقة طفولته وصباه .. سافرت فيرجينى ، وظل بول يخاطب الأغنام والطيور ، ويتسلق الصخرة التى تشرف على البحر وعلى الأفق البعيد حيث توارت السفينة التى رحلت بفيرجينى الى بعيد ..

ومر عامان ونصف العام .. وفى صبيحة يوم تظهر فى الأفق سفينة ويخرج رائد الميناء لاستقبالها فى عرض البحر .. ويعود منها محملا برسائل من بينها رسالة من فيرجينى تنبئ أمها أنها قادمة من فرنسا على ظهر هذه السفينة التى لم تستطع بعد أن تقترب من الميناء .. وما أشد فرحنا جميعنا .. ما أشد ما أحسسنا بأن سعادتنا تعود الينا بعودة فيرجينى .. أما بول ، فقد كاد يطير فرحا .. كان لا يتمالك نفسه من فرط السعادة ..

بول فى فرحة : متى نذهب الى الميناء لاستقبالها يا عم ؟؟

العجوز : الآن .. هات يدك .. وليس الشاطئ بعيدا على أية حال ..

* * *

العجوز : ولكن ما ابشع الأخبار التى بدأت تتوالى علينا ونحن على الشاطئ .. فقد بدأوا يقولون إن السفينة لن تتمكن من دخول الميناء لشدة النوء وأنها مهددة بالغرق .. ولم تمض الا فترة قصيرة حتى هبت عاصفة شديدة .

العجوز (فزعا صارخا) : الى أين ؟؟ ماذا تفعل يا بول ؟؟؟

بول مهتاجا باكيا : دعنى .. دعنى

العجوز : وذهب بول يسبح فى عرض البحر .. ذهب يحاول الوصول الى السفينة ، وهو يصارع الأمواج .. ورأى فيرجينى على ظهر المركب .. ولمحته هى .. رأته يصارع الموت بين الأمواج العالية .. ورأيت البحارة يلقون بأنفسهم الى البحر طلبا للنجاة .

بول صارخا باكيا : فيرجينى .. فيرجينى .. الق بنفسك ، وسأحملك الى الشاطئ .. فيرجينى فيرجينى ..

العجوز : ورأيت أحد البحارة واقفا الى جانبها يتوسل اليها أن تخلع ثيابها ليتمكن من حملها على ظهره والسباحة بها .. ويأبى الحياء عليها أن تنتزع قطعة من ثيابها وتؤثر أن يبتلعها الموج من أن يخدش حياؤها .. (العجوز باكيا) .. وحمل الموج فيرجينى جثة هامدة الى الشاطئ .. فيأمر حاكم الجزيرة أن يشيع جثمانها فى احتفال مهيب اشترك فيه كل سكان الجزيرة ممن عرفوا طهرها وفضيلتها وعفافها .

بول يجهش بالبكاء عليها : فيرجينى .. فيرجينى .. كيف تموتين وتتركينني يا فيرجينى ..؟

***

العجوز مواسيا (ومختنقا بالعبرات) : حسبك يا بنى .. حسبك البكاء لقد مزقت حياتك .. ثم يا بنى إن الموت من حسنات الله على البشر .. فى سبات الموت تسكن الآلام وتتبدد المخاوف .. تذرع بالصبر يا بنى .. فالله موجود والحياة كلها تسبح بوجوده .. أتظن أنه سبحانه .. وقد أتاح للناس السعادة بحكمة لا نعرفها ألا يوفرها للراحلين عنا بحكمته ورحمته ورضوانه .

***

تلك قصة ذلك المجتمع السعيد الصغير .. وما أروع خاتمتها الغريبة ، فقد شاهدت كل من هيلين ومرغريت رؤيا واحدة فى نفس الليلة ، ظهرت لها فيها فيرجينى تدعوهم اليها .. ويتحقق الحلم العجيب ، فما هى الا أيام ، حتى تعتل صحة بول ويموت بعد موتها بشهرين .. وتلحق به أمه بعد ثمانية أيام وتموت هيلين بعد شهرين ولا يعيش الخادمان طويلا بعد هذه الأحداث .. وهكذا خلا هذا الربع من سكانه .. أما أنا .. فمنذ افتقدتهم فانى أعيش كالصديق الذى فقد كل أصدقائه والوالد الذى ثكل فى جميع أبنائه .. أو المسافر الذى ضل طريقه وبقى هائما على وجه الأرض وحيدا فريدا ..

* * * *

تلك قصة بول وفيرجينى للكاتب الفرنسى برنارد ان سان بير .. من كتاب الجزء الأخير من القرن الثامن عشر .

ولد جاك هنرى برناردان دى سان بير ، بمدينة هافر فى التاسع عشر من شهر يناير عام ألف وسبعمئة وسبعة وثلاثين من والدين متوسطى الحال .

كان أبوه مراقبا للملاحة فى ميناء هافر بفرنسا .. وكانت أمه تحنو عليه وتسرف فى تدليله ورعايته .

كانت حياته سلسلة من المغامرات ، والرحلات فى مختلف بلدان أوروبا ، ومن مغامراته أنه التمس تعيينه فى احدى فرق المستعمرات الفرنسية ، فاجيب الى طلبه ، والحق بالجيش الفرنسى فى جزيرة (ايل دى فرانس) وهى جزيرة تقع شرق مدغشقر .

ألف مجموعة من الكتب .. ومن أشهرها (دراسات فى الطبيعة) فى ثلاثة أجزاء ، ومادة الكتاب ليست علمية ولكنها استهدفت تبسيط العلوم ، والبرهنة على وجود الله . والجديد فى هذا الكتاب ، هو الاحساس بالجمال والأسلوب الوصفى الخلاب ، بحيث وجد بين النقاد من يضعه قبل جان جاك روسو ، يسخر ريشته وقدرة حسه وفيض مفرداته ، حتى لقد قيل إنه أول صاحب قاموس للألفاظ التصويرية والمشاهد الطبيعية وهو بهذا الاتجاه يسبق المدرسة الرومانسية فى الأدب الفرنسى .

حياة سان بير حافلة ، ليس بما انتج فحسب ، وانما بالحركة والحيوية ، ثم بالنجاح والاقبال منقطع النظير على قصته بول وفيرجينى ، التى نشرها ملحقة بكتابه (دراسات فى الطبيعة) ..

قال سان بير عن قصته بول وفيرجينى (إن قصتى العاطفية البسيطة ستكون مصدر شهرة لا تقل عن الشهرة التى حظى بها هوميروس من الألياذة والأوديسة ..)

قال النقاد عن قصة بول وفيرجينى أنها أبكت جيلا باسره والهمت أكثر من كاتب وشاعر ..

ليس من المبالغة فى شئ اذا قلنا إنها ترجمت الى جميع اللغات .. وطبعت الوف المرات فى كل ترجمة وفى كل لغة .

نقلها الى العربية المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى ، ويقول من قابل النص الفرنسى بالنص العربى للمنفلوطى ، إن النص العربى ، وان كان يختلف كثيرا عن النص الفرنسى ، الا أن ، نص المنفلوطى يظل ، عملا أدبيا من أروع الأعمال الأدبية فى لغة الضاد .

(لويس كارول) مؤلف (اليس في أرض العجائب)

أليس فى أرض العجائب ، قصة للأطفال لقيت من اقبال جميع بلدان العالم عليها ما يضعها فى مستوى الأدب العالمى ، ربما فى نفس المستوى الذى تحتله قصة السندباد وقصة روبنسن كروزو .

نقلت عن الأصل الانجليزى ، الى جميع اللغات الحية فى العالم .. وانتجتها استوديوهات هوليود افلاما ، عدة مرات ،وليس من حرج فى أن يقال ان والت ديزنى فى الكثير من ابتكاراته الرائعة فيما يقدم من قصص ، للأطفال ، قد اقتبس من اليس فى أرض العجائب الكثير من خيال الكاتب ، الذى لم ير ما يمنع أن تدور احداث قصة طويلة بين شخصيات من الأرانب وورق اللعب ، .. بحيث نرى كل شخصية تقوم بدورها وتحاور (أليس) كما تحاور الآخرين وكأنها شخصيات بشرية عاقلة .

****

وكاتب قصة (أليس فى أرض العجائب) هو تشارلس لو تويدج دودسن) ولكنه نشر قصته باسم (لويس كارول) .. ومن الطريف أن اسمه الحقيقى اختفى تماما عن أذهان الناس ، وظل الكاتب لا يعرف الا باسم (لويس كارول) . والسبب بطبيعة الحال هو الاقبال والرواج الهائل الذى لقيته قصة اليس ..

ولد (تشارلس لوتويدج دودسن) فى احدى قرى انجلترا فى السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٣٢م ،وبعد أن اكمل تعليمه الأولى ، تفرغ لدراسة الرياضيات ،

وتخرج فى عام ١٨٥٤م، ثم عين محاضرا للعلوم الرياضية فى احدى المدارس الخاصة حيث ظل يمارس التعليم فى هذه المدرسة الى عام١٨٨١م ..وكعالم رياضى الف ونشر كتبا فى الرياضيات .. ولكنه نشر ايضا قصته (اليس فى أرض العجائب) فى عام ١٨٦٥ م واختار ان يسمى نفسه (لويس كارول) .

لقيت القصة ما لقيته من الرواج والاقبال والانتشار ، ولقى معهما مؤلفها الكثير من اعجاب الأدباء على نطاق واسع ، ولكن باعتباره (لويس كارول) .. مما جعل شخصيته الحقيقية (تشارلس لونويدج دودسن) تظل مغمورة لا يشعر بها أحد ..

****

ويقول النقاد ، ان قصة (اليس فى أرض العجائب) هى عطاء عاطفة حادة كان الكاتب يحملها لخيال الأطفال وما طبعوا عليه من التعلق بالغريب والعجيب من القصص الخيالية ، التى قد لا تتفق مع منطقنا ، ولا يقبلها عقلنا ، ولكنها فى منطقهم وخيالهم وعقولهم ، حقائق ليس ما يمنع ان يتقبلوها على علاتها وان يعيشوا الأحداث المجنحه وكأنها حدثت أو تحدث فعلا دون حاجة الى مناقشة أو تمحيص أو استنكار .

وكان دودسن أو (لويس كارول) شديد الولع بالأطفال ، مغرما بهم ، يستغرق معهم فيما يذهب اليه خيالهم وأحلامهم.وكانت لصديقته دين ديدل ابنة اسمها (اليس) يبدو ان دودسن كان يطيل الجلوس اليها ، حيث يقص عليها الوانا من قصصه التى تختزنها ذاكرته مما سمع فى طفولته ، او مما يبتكره خياله الخصب المنطلق .. ويبدو انه كان يقص عليها من هذه الألوان ، لمحات أو فصولا ، من ابطالها الأرانب والجرادة والأشجار والأزهار وما الى ذلك مما تقع عليه العين حين يجلس فى الحديقة معها .. ولعله وجد من اصغاء اليس اليه وانفعالاتها وهى تتابع المغامرات التى يبتكرها لهذه الشخصيات ما شجعه واغراه بكتابة قصة جعل البطولة فيها لأليس نفسها ، فكان ان سمى قصته (اليس فى أرض العجائب) .

وبظهور هذه القصة أصبحت لدودسن شخصيتان ، احداهما الحقيقية التى تعرفها المدرسة التى ظل يحاضر فيها ابحاثه فى الرياضيات ، والأخرى هذه الشخصية التى

عرفتها محافل الأدب ، واحتفى بها الأدباء ، والتى ظل يحرص على أن يتجاهلها رغم ما حظيت به من الشهرة وبعد الصيت .

وقد بلغ من ولع الناس واعجابهم بقصة (اليس فى أرض العجائب) انهم كرموا ذكراه بعد وفاته فى الرابع عشر من يناير عام ١٨٩٨ م ، باقامة (سرير من اسرة الأطفال) فى مستشفى للأطفال فى لندن باسم (لويس كارول) مؤلف (اليس فى أرض العجائب) .

****

وتبدأ قصة (اليس فى أرض العجائب) ، بالصبية (اليس) وقد جلست تغالب النعاس فى الحديقة الى جانب اختها الكبرى ، التى كانت منهمكة فى القراءة .. ويحدث أن يأخذ الأرنب الأبيض ذو العينين الورديتين فى الجرى مرتبكا ، وقد القى نظرة على الساعة فى يده ، وهو يقول : (ياالله .. لقد تأخرت) .. وحين يأخذ فى الابتعاد تلحق به أليس وهو ينطلق فى الحقل دون أن تتوقف حين انزلق فى جحر بين الشجيرات الصغيرة ، فقد ظلت تلاحقه فى هذه الجحر الذى وجدت أنه ينحدر بها فترة من الزمن لتجد نفسها معلقة فى الفضاء هاوية فى بطء خيل اليها انها ستظل تهوى الى ما لا نهاية ، عندما احست انها هبطت دون أن تصاب بأذى على كوم من اوراق الشجر الجافة .. وكان الأرنب الأبيض ذو العينين الورديتين يتدحرج تحت قدميها ثم يقفز من أمامها وهى تلاحقه الى أن اختفى فى احد الأركان بينما وجدت اليس نفسها فى بهو طويل متعدد الأبواب .. ولكن جميع الأبواب مغلقة .. ودون أن تطول حيرتها وجدت امامها منضدة عليها مفتاح ذهبى يفتح اصغر هذه الأبواب .. كان طول الباب لا يزيد عن خمس عشرة بوصة .. وعندما فتحته بالمفتاح الذهبى رأت أمامها عبره حديقة زهر جميلة .. ولكن لا سبيل الى الوصول اليها لأن فتحة الباب لا تتسع لدخولها .. ومرة أخرى لم تتعذّر عليها المشكلة .. اذ وجدت فوق تلك المنضدة زجاجة صغيرة ، كتب على اللافتة بها كلمة : (اشربنى) وحين تذوقت الِيس بعض ما فى الزجاجة ، وجدته لذيذا فشربت ما بقى ، وما هى الا لحظات ، حتى تقلص حجمها وتقاصر طولها الى

عشر بوصات فقط فقالت فرحة متهللة : (استطيع الآن ان ادخل حديقة الزهر الجميلة) .. وانطلقت تجرى اليها .. ولكنها ـ للأسف ـ اغلقت الباب خلفها وكانت قد نسيت مفتاحه على المنضدة حيث وجدته .. وعلى منضدة فى الحديقة رأت طبقا زجاجيا ، فيه كعكة كتبت عليها كلمة : (كلنى) وماكادت تأكلها حتى رأت نفسها تطول وتطول حتى ارتفعت قامتها اكثر من تسعة أقدام .. وفى هذه اللحظة دخل الأرنب ، ولكنه ما كاد يرى اليس فى قامتها العملاقة حتى اطلق لساقيه الريح مرتعبا ملقيا بقفازيه ومروحة كان يحملها على الأرض .. والتقطت اليس القفازين والمروحة وحين عن لها ان تراوح المروحة على وجهها ، وجدت انها تقصر وتتضاءل حتى عاد طولها لا يزيد عن قدمين .. وكان هذا طولها المعتاد فكفت عن المراوحة وقد ادركت انها مروحة من خواصها ان تقصر الطول بطريقة سحرية غامضة .

****

وأحست اليس بوقع اقدام بالقرب منها فالتفتت لتجد الأرنب ، وقد كبر وارتفع قوامه حتى ليكاد يكون مساويا لقامتها .. وما كاد يراها تلتفت اليه حتى امرها منتهراً ان تذهب وتأتيه من غرفته بقفازين ومروحة .. واحست بالرعب من شكله الضخم ، فلم تملك الا أن تذعن ، وما كادت تخطو بضع خطوات حتى بدا لها كان البهو قد تلاشى وانها تمضى فى غابة جهمه ظلت تمشى فيها حتى انتهت الى بيت ابيض ، فرأت على بابه لافته باسم (الأرنب .. دبليو) .. اسرعت بالدخول وتسلقت السلالم الى غرفة نوم الأرنب ، وبدلا من ان تجد القفازين والمروحة التى امرها الأرنب ان تجيئه بها لاحظت زجاجة على المكتب افرغت اليس فى جوفها كل ما فيها ، فاذا بها تكبر وتطول وتتضخم الى حد تعذر معه ان تقف فى الغرفة فاضطجعت فى ارض الغرفة ، حانية رأسها على صدرها .. واذ هى على هذه الحالة فوجئت بمن قذف امامها حفنة من اشياء تشبه قطع الحصى اكتشفت انها نوع من الحلوى ، وما كادت تأكل بضع قطع منها حتى تقلص حجمها الى الحد الذى سمح لها بالخروج من المأزق الذى تورطت فيه ..

****

خرجت اليس من الغرفة التى كانت متورطة فيها وراحت تمشى فى الغابة فترة عن لها بعدها ان تستريح عند احدى نبتات الفطر فى طريقها ، فجلست لتسمع صوتا يقول لها : (هلى لى أن أساعدك بشئ ؟؟) ، وحين التفتت ورفعت رأسها الى مصدر الصوت رأت يسروعا أخضر يدخن غليونا .. فهتفت اليس تقول : (اوه .. اتوسل اليك يا سيدى ان تصنع شيئا ، لأعود الى حجمى الكبير ..) فسمعته يقول لها : (ما أسهل ذلك .. احد جانبى هذا الفطر يطيل القامة ، والجانب الآخر يقصرها ..) وقبل أن تواصل اليس اسئلتها اختفى عن نظرها .. فقصفت قطعة من احد جانبى الفطر ، ما كادت تأكل منها حتى اصبحت قامتها تطاول الأشجار حولها .. فقصفت من الجانب الآخر فاذا بها تنكمش ويقصر طولها حتى بلغ تسع بوصات .. وإذ لم تسترجع حجمها الطبيعى انتابها اليأس والضيق فلم تجد بدا من ان تواصل مشيها فى الغابة الى أن بلغت بيتا لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام .. دخلته اليس دون استئذان ثم دخلت المطبخ فى هذا البيت حيث رأت (الدومة) تدلل خنزيرا صغيرا فى جحرها بينا الطاهى يذر كميات من الفلفل فى وعاء للحساء ، وكانت هناك قطة ما كادت ترى اليس حتى أخذت تموء غاضبة متحفزة فانتهرتها اليس ، وخرجت القطة من المطبخ ولكن مواءها ظل يتواصل مما اضطر اليس الى ان تغادر المطبخ ، وحين رأت امامها بابا صغيرا ينتهى الى داخل شجرة كبيرة ، دخلت من الباب وصفقته خلفها .. واخذت تتجول فاذا بها تجد حديقة جميلة ، وقف فيها ثلاثة من الخدم ، رأتهم اليس يدهنون ورود الحديقة البيضاء بلون احمر وفهمت انهم يقومون بهذه المهمة العجيبة لأن الملكة ، تكره ان ترى الورود البيضاء .

****

وتجئ الملكة الى الحديقة فى موكب كبير ، ومعها حاشيتها ومن هذه الحاشية ذلك الأرنب الأبيض ذو العينين الورديتين .. وتطلب الملكة من أليس أن تلعب معها الكريكت ، ثم تتطور الأحداث بسرعة ، الى حد تتعرض معه اليس الى المحاكمة ، ثم يحكم عليها بالاعدام .

وتكون اليس فى هذه اللحظة ، قد اكلت من الفطر ، الذى جعلها تطول بحيث كان حجمها أكبر من كل ما حولها من الأشجار ومن الملكة وحاشيتها ، التى لم تكن فى الواقع سوى حزمة من ورق اللعب ..

ويتقدم اليها المختص بتنفيذ حكم الاعدام ويطلب منها ان (تتكرم) فتقدم رأسها اليه ليقوم بقطعها ، فترفض بالطبع ، وتصرخ فى وجوههم جميعا بانهم أغبياء ، وانهم ليسوا فى الواقع الا رزمة من ورق اللعب .. وما كادوا يسمعونها تقول لهم هذا الكلام حتى ثاروا فى وجهها ـ وتطايروا من حولها .

وفى هذه اللحظة سمعت صوتا يقول لها : (اليس .. يا عزيزتى .. كفاك نوما لقد مرت ساعة كاملة وانت مستغرقة فى النوم ، وقد آن لنا أن نعود الى البيت ..) .

وتستيقظ اليس من نومها .. وتدرك عندئذ فقط ان رحلتها العجيبة لم تكن الا حلما من الأحلام .



إميل زولا

لا يجد النقاد عملا ادبيا يضارع (الحرب والسلام) لتولوستوى ، فى اتساع الساحة والأفق اللذين تتلاحق عليهما احداث القصة ، وفى حجم وتعدد الشخصيات التى تظهر على مسرحها ومشاهدها ، ولكل منها دوره الذى يبنى هيكل العمل الفنى ويزوده بعناصر الفكرة التى يعالجها الكاتب .. لا يجد النقاد عملا ادبيا يراجح (الحرب والسلام) سوى قصة (جيرمينال) لأميل زولا .

****

واميل زولا ، هو الكاتب الروائى الفرنسى الذى لم يعرف بأدبه وأعماله الضخمة فقط وانما بموقفه من قضية (دريفوس) ايضا . وبكلمته التى لا تزال تدوى فى آذان الناس منذ ظهرت عنوانا لأول مقال كتبه دفاعا عن دريفوس وهى (انى اتهم) ..

****

وهذا الكاتب الروائى صاحب قصة جيرمينال التى يراجح النقاد بينها وبين قصة (الحرب والسلام) لتولوستوى ، والذى تصدى للدفاع عن قضية آمن بعدالتها ، وتعرض فى سبيلها الى سخط الجماهير الى حد اضطره الى الهجرة الى انجلترا ، بعد أن بلغ سخط الناس عليه حد التجمهر حول منزله ومحاولة الاعتداء عليه ، ولد فى باريس عام الف وثمانمئة واربعين ، وقضى معظم أيام طفولته وصباه فى قرية ايكس بالقرب من ميناء مرسيليا ، الذى كثيرا ما اختار بيئته مسرحا لرواياته واختار من هذه البيئة

شخصيات وابطال هذه الروايات .

****

كان أبوه ايطاليا من اصل اغريقي ، وأمه فقط هي التي كانت فرنسية صميمة ، ومع انه بلغ بادبه الحد الذي تزعم فيه المدرسة (الواقعية) في الأدب في القرن التاسع عشر، فان اميل زولا قد رسب في امتحان شهادة (الليسيه) التي تعادل التوجيهيه او ما يسمى (البكالوريا) ، فلم يجد عملا يرتزق منه ، ولم يكن ميسورا ، فواجه حياة الفاقه والعوز طيلة سنتين قضاهما في الحي اللاتيني في باريس .

****

وكان أول عمل ساعده على الحصول عليه أحد اصدقائه ، لقاء أجر زهيد يكاد لا يؤمن له قوت اليوم ، هو تغليف الكتب في احدى دور النشر في باريس،وتجهيزها للشحن الى الخارج ، وكان عمر اميل زولا يومذاك لا يزيد عن الثانية والعشرين،ومع ان نبوغ اميل زولا ، ككاتب روائي تزعم المدرسة الواقعية في الأدب الفرنسي ، قد لا تكون له صلة بعمله الضئيل كعامل في دار النشر التي التحق بها ، فاننا لا نستبعد ان هذا العمل على ضالته وقلة جدواه ، كان عاملا مساعدا في توجيه كاتب المستقبل الذي يقول النقاد ان تكوين ذوقه الأدبي قد اعتمد على اعلام فرنسا من كبار أدبائها في القرن التاسع عشر ، من امثال جان جاك روسو ، وفيكتور هوجو ، والفونس دي لامارتين .. ولا بد لنا ان نفترض انه قد انكب على قراءة ما فاضت به قرائح هؤلاء الكبار ، قبل ان ينشر أول عمل أدبي له ، وهو مجموعة من الشعر ظهر فيها أثر المدرسة الرومانسية التي كانت تسود أوروبا حينذاك ، وليس في هذا العمل ما يلمح الى اتجاهه الواقعي الذي عرف فيما بعد .

****

وبعد مرحلة تأثره بالرومانسيين بدأ زولا ، مرحلته مع اونوريه دي بلزاك ، وفلوبيرت. وحين نشر ثاني أعماله الأدبية بعنوان (حكايات الى نينون) ، في عام **١٨٦٤**ماستلفت انظار بعض النقاد ، بما تلامح في هذه الحكايات من اتجاهه الجديد .. الى الواقعية في

الأدب ، وهى المدرسة التى نجد بوادر نشأتها عند بلزاك وفلوبيرت ، ولكنا نجدهـا تتبلور ، وتتأكد لها الملامح والسمات ، فيما اخذ ينشره زولا من مقالات وقصص ، وفيما يفضى به من آراء تتناقلها صحف باريس ومجلاتها فى تلك الأيام .

والمدرسة الواقعية ـ وتسمى الطبيعية كذلك ـ تستهدف نوعا من التصوير الفوتوغرافى لواقع الحياة ، لا يتحاشى او يعف عن الايغال فى ادق التفاصيل حتى لو بلغ الأمر بتصويرها حد اثارة التقزز والاشمئزاز ، وفى نوع من الصورة فى التشريح لا يبالى بما يتكشف عنه من قبح وشوه وايلام .

****

ولم يقف زولا فى واقعيته عند حدودها على ما فيها من بشاعة وتجريح تستنكره المدرسة الرومانسية ، وانما ذهب الى ابعد كثيرا مما ذهب اليه فلوبيرت وبلزاك .. اذ بدأ يدعو الى الرواية التى تعكس نتائج البحث والملاحظة ، بنفس الدقة التى يتوخاها عالم الاحياء او النبات فى معمله .. فالشخصيات فى الرواية الواقعية يجب ان تتوفر لها الدوافع النفسية ، وان تعكس اثر المجتمع على حياتها وتصرفاتها ، وان تتأثر سلبا أو ايجابا بضغوط القانون ورواسب التراث وعوامل الوراثة .. يجب ان توضع الشخصية فى الرواية الواقعية ، فى بيئة يصنعها الكاتب ، تعكس شريحة من المكان والزمان ، وان تتصرف بدافع من حوافزها الطبيعية المنبعثة من انفعالها الداخلى ومن تأثير البيئـة عليها .

وفى هذا الاطار للرواية الواقعية كما تصوره زولا ، يصبح العمَل الفنى دراسة لمصدر الأثر النفسى والطبيعى لمراحل تطوره ، وهو فى نفس الوقت دراسة لمشاكل المجتمع وما يعانيه من هذه المشاكل ، وبهذا يمكن القول ان اميل زولا قد تجاوز ما كان يلتزم به فلوبيرت من توخى (فنية) البناء فى الرواية ، الى احتواء النظرية التى تفرض موقفا حقيقيا او واقعيا ، وهنا تبدو الرواية وكأنها تجهيز آلى ومادى يستبعد من عمليات البناء الدرامى المتكامل ، خيال الكاتب ونزواته كما يستبعد مشاعره الذاتية وما تعكسه هذه المشاعر على مساحة العمل الفنى من اضواء وظلال هى التعبير عن انطلاق الفنان .

****

ومع ان الرواية التى تعتمد التجربة العلمية ـ كما دعا اليها اميل زولا ـ يمكن ان تعالج موضوعا بعينه ، وان تخدم الكاتب كحافز يعطيه ـ على سبيل المثال ـ شخصية معروفة الوراثة والخلفية يقوم بتهيئة البيئة التى تلائمها ، ثم ينسج من عناصر تكوينها نتائج مقدرة او مقررة ، فان النظرية ـ ككل ـ تظل بعيدة عن طبيعة العمل الفنى فى اى بناء درامى ، اذ كما يتعذر ان يكون الكاتب موضوعيا الى الحد الـذى تفرضـه النظرية ، فان ما قد يبذله من الجهد للبقاء فى اطآر هذه الموضوعية المطلقة ، يمكن ان يورطه او ينتهى به الى (ذاتية) اكثر تطرفا مما لو تجنب التكلف والافتعال ..

وايا كان ما ظل يدور من دراسات وبحوث ، حول نظرية المدرسة الواقعية فى الآداب وفى الرواية على الأخص ، فانها تظل كغيرها من نظريات المدارس الأدبية عوامل مساعدة يمكن ان تمد الكاتب بعناصر التكوين والابداع ، ولكنها لا تضـع الحـدود الفاصلة بين نظرية وأخرى ، ولا تصنع الاطار الذى يتسع للعمل الفنى ، ويعجز عن ان يحتوى او ينطوى على سواه .

****

وانسياقا مع نظرياته عن المدرسة الواقعية ، بدأ زولا يعمل ، فكتب سلسلة من الروايات كلها تلاحق التاريخ الطبيعى والاجتماعى لأسرة عاشت فى عهد الامبراطورية الثانية (من عام ١٨٥٢ الى عام ١٨٧٠م)ليضيف او ليتابع الصورة التى كان اونوريه دى بلزاك قد قدمها عن الحياة الفرنسية اوائل القرن .. وكانت كل رواية تدور حول واحد او اكثر من ابناء وبنات هذه الأسرة وتصور ـ بالاضافة الى اثر الوراثة فى حياة كل منهم ـ التاريخ النفسى والاجتماعى والبيولوجى للفترة التى تعيش فيها الشخصية التى تدور حولها الرواية .

وقد غطى اميل زولا بهذه السلسلة من الرواتيات ، التى بلغت عشرين رواية تحت اسـم (روجـون مكارت) تاريخ الكثـير من محتـرفى الزراعـة ، والتعـدين وكنس الشوارع ، والفن ، والسياسة ، والتدريس ، والترفيه ، وجميع الطبقات الاجتماعية سواء فى باريس او فى المقاطعات الفرنسية الأخرى .

وكانت رواية (جيرمينال) التى يضعها بعض النقاد فى مستوى يهبط كثيرا عن قصة الحرب والسلام لتولوستوى . احدى هذه الروايات العشرين وقد نشرت فى عام ١٨٨٥م وهى تصور كفاح عمال منجم من مناجم الفحم شمال فرنسا .. وكما سبق ان قلنا تمتاز جيرمينال بتعدد المشاهد فى البيئة التى اختارها الكاتب لأبطال روايته ، وبالتفاصيل الدقيقة عن حياة العمال فى المنجم بل وعن العمل فى صناعة من الصناعات الثقيلة فى أيامه وهذا الى جانب تعدد وكثرة الشخصيات التى يعالج الكاتب مشاكلها واهتماماتها مع متابعة لهدفه ولمسار القصة نحو هذا الهدف .. ويذهب بعض النقاد الى أن جيرمينال تمتاز عن الحرب والسلام بان الحبكة الفنية فيها اكثر دقة ، والانطلاق فى مسارها أقل تعقيدا وتشعبا ، وبأن شخصياتها الكثيرة ـ رغم كثرتها ـ تتمايز عن بعضها البعض بخصائص تجعلك تتوقع ما يمكن أن يكون تصرفها فى الأحداث على ضوء هذه الخصائص ..

ولم يكتب اميل زولا رواية جيرمينال الا بعد ان عايش عمال المناجم ، واندمج فيما كان يثير سخطهم من مشاكلهم ومتاعبهم ، ولتتاح له هذه المعايشة والاندماج ، ومعرفة واقع ابطال قصته من هؤلاء العمال ، توخى السبل الى العمل معهم فاستطاع ان يقنع احد رؤسائهم ان يعمل سكرتيرا له وكان عمله مع الرئيس ، سبيله الى ثقة العمال به فلم يكونوا يخفون عنه شيئا من اسرارهم واسرار مهنتهم وعلاقاتهم واحوالهم الشخصية فى العمل ، وفى غيره من مضطربهم فى الحياة . فكان طبيعيا ان نرى فى جيرمينال الصورة او صورا بانورامية حين نشاهد فيها الساحة الكاملة للشخصيات والأحداث فاننا نرى أيضا ما يكمن فى تلك الزاوية او تلك من تناقض الأحداث والشخصيات والانفعالات وردود فعلها على الشخصيات .

والعقدة التى يبدو أن اميل زولا حرص على معالجتها فى جيرمينال هى خطر الآلة على اليد العاملة .. الآلة التى تستطيع ان تحل محل العامل ومحل عدد من العمال وما يترتب على تعطيل هؤلاء العمال من ماس وارزاء ، وهذا فى اطار واسع يتابع فيه مشكلة الفرد ، والأسرة ، والمجتمع ، حيث نرى الصراع بين السجايا والخصائص ، وبين

الفضائل والعيوب .. بين الطيبة .. والخبث ، والشجاعة والجبن ، وبين الاخلاص ، والخيانة وبين التضحية والأثرة .. وبين الحب والبغضاء ..

****

ومع ان اميل زولا كان فى جيرمينال خاصة ، وفى رواياته الأخرى عموما يكتب بضمير المصلح الاجتماعى وحوافزه ، فقد كان ايضا فنانا ، بل يمكن القول ان الفنان فى شخصيته قد تفوق على المصلح اذ كانت معالجته للمأساة واحتدام مشاعره نحوها ، لا تصرفه عن فنية اللمسة ، وحسن اختيار الألوان والظلال ، ودقة توخى الزوايا الحرجة التى يبدع فى الخروج منها ابداعه فى اقتحامها والايغال فى اختناقها ..

****

كانت جيرمينال كجميع الماسى والملاحم بانوراما رائعة متكاملة ، انتهت كما تنتهى امثالها بالأمل المتفائل ، وبالتطلع الى الأفضل ، حيث نرى زعيم هؤلاء العمال فى منجم الفحم ، يجتر احزانه ، ويلعق جراحه ، ولكنه ينظر الى طائفته التى أن له ان يبتعد عنها .. الى اولئك العمال الذين كان يرأسهم ويتزعم حل مشاكلهم ، باعتبارهم (بذورا فى الأرض) ما تلبث ان تنبت وان تتشقق عنها هذه الأرض اطلالة الربيع ...

****

من اشهر ما يعلق بالأذهان من روايات زولا الى جانب (جيرمينال) رواية (نانا) التى نقلتها بعض دور النشر الى العربية بكثير من الاختصار وزاده ضعف القدرة على الترجمة تشويها وابتذالا ، ولكن ما لا ينساه المثقفون لأميل زولا ، هو ذلك الموقف الذى اتخذه لنفسه من قضية دريفوس ، حيث تصدى للدفاع عن الظلم الذى لحق به ، فى وجه السلطة التى ادانته وحكمت عليه بالنفى الى احدى الجزر النائية .

اقتنع زولا بعدالة موقفه ، فبدأ تصديه بمقال نشره فى جريدة (أورور) فى يوم ١٣ يناير عام **١٨٩٨**م موجها الى رئيس الجمهورية بعنوان : (انى اتهم) طلب فيه اعادة محاكمة دريفوس ، مؤكدا براءته من تهمة الخيانة التى وجهت اليه .. وما كاد المقال ينشر حتى اهتزت له الأوساط كما اهتز له المجتمع الفرنسى فى باريس ، وكما وجد من يرى

وجهة نظر اميل زولا يقتنع بها ، وجد من لم يشك فى نزاهة الحكم الذى ادان دريفوس وقضى بنفيه .. بل استطاعت السلطة ان تثير سخط الغوغاء على اميل زولا ، الى حد الاعتداء عليه ، ومحاولة اقتحام منزله . وتحطيم زجاج نوافذ هذا المنزل ، ومع ذلك لم يتزحزح الكاتب عن موقفه وظل يصر على طلب اعادة محاكمة دريفوس ، وإبطال الحكم الذى صدر بادانته ونفيه ..

وأعيدت المحاكمة فى باريس اولا ولكنها لم تخل من تدخل السلطات لدعم حكم الادانة مما زاد من سخط الجماهير على اميل زولا ، الى حد اضطره بنصيحة اصدقائه الى الهرب الى انجلترا ، حيث منح حق اللجوء ، ولكنه حرص على الاختفاء عن انظار الناس ، كما حرص على ان يوالى الكتابة فى الموضوع دون انقطاع .

وأخيرا ، أعيد النظر فى القضية فى فرساى ، واستطاع زولا ان يعود الى باريس ، وحين كانت القضية ما تزال تحت نظر القضاة ، وقبل ان يصدر الحكم ببراءة دريفوس ، فى ليلة من ليالى الشتاء ، ظل خلالها دريفوس ساهرا الى وقت متأخر من الليل ، اختنق الكاتب الكبير بغاز الاستصباح ، حيث وجدته مدبرة منزله ميتا فى الصباح ..

صدر الحكم ببراءة دريفوس ، وأعيد الى مرتبته فى الجيش بعد وفاة الكاتب الذى تصدى للدفاع عنه .. واحتفلت فرنسا بذكرى وموقف اميل زولا احتفالا وقف فيه دريفوس كمثال حى لما يستطيع ان يحققه ضمير الكاتب الملتزم من قضايا الحق والعدالة فى مجتمعه .

****

وكان (اناتول فرانس) عضو الأكاديمية فرانسيز ، خطيب الاحتفال بذكرى اميل زولا ، وقد قال الكثير الذى مجد زولا ، واثنى على مسيرته وما ترك فى تاريخ الأدب الفرنسى ولكن الكلمة التى سجلها التاريخ لأناتول فرانس فى تكريمه لزولا ، ولعلها ما تزال تدوى فى سمع العالم ، هى التى قالها عن موقفه من قضية دريفوس ..

قال اناتول فرانس : (كان زولا ، لحظة انتصار نادرة فى ضمير الانسان) ..

أونوريه دي بلزاك

باريس ، هذه العاصمة العجوز ، التى لا تعترف بالزمن ، وتنطوى الأجيال وراءها أجيال ، وهى على العهد بها شبابا ، ومرحا ، واحتفالا بالحياة ، وازدحاما بكل أسرار الفن والفتنة والجمال .. باريس تنام طبعا ، كما تنام الدنيا كلها ، بعد أن يرهقها النهار ، وتمزق أعصابها مباهج الليل وهى ـ بين القليل من عواصم الدنيا ـ لا تنام الا قبيل الفجر .. ولا يدرى أحد كيف يسعها أن تصحو مع أول اطلالة من أشعة الشمس .. ولكن هى تدرى أنها لن تكون العجوز الشابة أو الشابة العجـوز ، الا اذا ادارت مصانعها ، وانطلقت أصوات المحـاضرين فى جامعاتهـا ومدارسهـا وانتفضت حركة مواصلاتها ، انتفاضة عصفور ، يطير وراء فروع هذه الشجـرة أو تلك بحثـا عن الرزق ، باريس تنام .. ولكن كتابها ، وشعراءها ، وفنانيها ، وعلماءها لا يطيب لهم الصحو الا عندما تنام باريس ..

وهكذا كان أونوريه دى بلزاك ، يجلس الى منضدته وقلمه فى يده ، ورزمة الورق الكبيرة أمامه تتلاحق تحت قلمه يملأها واحدة بعد الأخرى ، باحتدام وانفعال ، وكأن رقيبا جبارا يلاحقه ويطلب منه أن يتم ما يريد أن يقول أو يكتب فى هذه الأوراق .. وليس هناك من رقيب ، ولا من يؤنس وحدته فى هذه الغرفة المتواضعة المعتمة التى يأوى اليها ، وانما هناك مشاعره وأحاسيسه وآراؤه الكثيرة .. هناك باريس نفسها بمخلوقاتها ونماذجها البشرية وأحداثها .. هناك أفراحها ، وهناك بؤس الكثيرين من أبنائهـا

وبناتها .. وأونوريه دى بلزاك يسجل هذه الحياة فى باريس .. ويتنقل فى النظرة الى الحياة فيها من زاوية الى أخرى ، ومن مرتفع فى الذروة الى منخفض فى القاع .. ومن زقاق مظلم مترب تشيع فيه رائحة البؤس والشقاء الى ميادين باريس .. الى الشانزيليزيه .. والكونكور .. حيث تزدحم الأرصفة العريضة بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وفى الجو ذلك العطر ، أو مجموعة العطور ، يحملها النسيم من النحور والصدور .

وتتهافت مطابع باريس على ما يكتبه أونوريه دى بلزاك .. ويتهافت الناس على شراء ما يظهر فى المكتبات من قصص بلزاك .. وعلى المقاهى فى أرصفة الشانزيليزيه ، أو فى الصالونات والأبهاء من القصور المترفة ، ثم فى غرفة الحى اللاتينى حيث مجتمع الطلبة والشباب ، يدور حوار لا ينتهى عن بلزاك ، وعما جاء في آخر ما صدر لأونوريه دى بلزاك .. والحوار عن بلزاك لا ينتهى الى الرضا عنه ، كما لا ينتهى الى السخط عليه .. وتمتلئ أعمدة الصحف بالنقد والتحليل ، أو بالأذى والتشهير .

والعجيب أن بلزاك رغم كل ما كان يشغل به دور النشر من كتبه كان غارقا فى الديون من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، ولم يكن له من سبيل الى تسديد ديونه الا أن يقدم لدور النشر روائعه بأى ثمن يمكن أن يسدد بعض ديونه ، ويمكنه من أن يأكل ما يحفظ عليه رمق الحياة ..

بلغ به الأمر أن غامر فى مشاريع ، لا علاقة لها أبدا بمنحاه واتجاهه الفكرى ومكانته الأدبية .. فقد افتتح (مثلا) مسبكا لحروف الطباعة ، سرعان ما استغرقته الديون فافتتح محلا لبيع الفواكه ، لم يجد عليه شيئا... وعندما بلغت ديونه مئة وسبعين ألف فرنك ، لم يعد يستطيع أن يكتب ولا أن يفعل شيئا ذا بال .. وكاد يقدم على التخلص من الحياة .. ولكن باريس ما تزال حافلة بما يستحق ان يكتب عنه ، وليس من سبيل لتحاشى الدخول الى السجن بسبب الديون التى ركبته سوى أن يعود الى الكتابة فعاد يكتب ويكتب .. وتصور أنه ظل يكتب عشر سنوات على التوالى ليعيش وليسدد ما عليه من ديون .

وأخيرا من عليه حظه بلحاق فتاة بولونية من عشاق أدبه به .. وكانت غنية ثرية ومن أسرة كبيرة ، وذات فتنة وجمال .. وكان ينبغى أن يجد فى علاقتها به مخرجا من ورطته ولكنه وجد نفسه مرغما على أن يعيش حياة هذه الثرية الوجيهة الفاتنة .. وكلفه ذلك الكثير الذى زاد من ثقل التزاماته عليه .. حتى لقد كان يتمنى أن يعيش لحظة .. لحظة واحدة دون أن يشعر بملاحقة دائنيه له بالمطالبة بالتسديد .

هكذا عاش .. أونوريه دى بلزاك ، الكاتب الذى ترك مئة مجلد من القصص .. ومجلدا ضخما آخر يجمع وثائق الديون التى عليه .

وكالعادة دائما .. حين سمعت باريس بموت بلزاك ، مشت وراءه بكل جماهيرها من جميع ضواحيها وأحيائها .. وكان ممن تباروا فى رثائه والتحدث عن أمجاده ـ فيكتور هوجو .. الذى قال .. (ما أكثر ما خسرت الدنيا .. كلها ـ بوفاة أونوريه دى بلزاك ..) ..

قلما انعقد اجماع النقاد والدارسين على تقدير كاتب أو شاعر أو فنان ، كما انعقد على تقدير الكاتب الروائى الفرنسى : (اونوريه دى بلزاك) .. وهذا الاجماع حين لا يمنع نقد هذا العمل أو ذاك من أعماله ، أو تحليل تكوين هذه الشخصية أو تلك من الفى شخصية جعلها تعيش وتتفاعل مع الأحداث فى رواياته ، فانه ينتهى الى انه كان (أعظم كتاب الرواية فى جميع العصور) .

ولد أونوريه دى بلزاك فى (تور) بفرنسا فى العشرين من شهر مايو عام الف وسبعمائة وتسعة وتسعين .. واذ كان أبوه قد تلقى فى صباه تدريبا على المحاماة وظل يعمل فى هذا الحقل طيلة ثلاث واربعين سنة غطت الفترة من عهد لويس السادس عشر الى عهد نابوليون ، فقد وجه ابنه للتدريب على هذه المهنة والتهيؤ لممارستها فأدخله كلية الحقوق فى جامعة باريس ، حيث بقى فيها بلزاك من سنة ٨١٦ الى سنة ٨١٩م ،ولم يكن هناك مايمنع.ان ينجح كمحام يجد من اسم والده فى المهنة ما يساعده على ان يشق طريقه بسهولة ويسر ، ولكن بلزاك كان له رأى آخر .. كان يرى مستقبله مع الحرف والكلمة ، ولذلك فقد أصر على أن يجعل الكتابة مهنته ، ولم تجد أسرته بدا من النزول على رغبته ، وما كادت توافق حتى اغلق بلزاك على نفسه باب شقة حقيرة

على السطح وعكف على الكتابة بانهماك وحماس وتدفق ملتهب ،قالوا : إنه لم ينطفئ أو يخمد أو يعتريه تراخ أو فتور طيلة عشرين سنة على التوالى ..

ويختلف بلزاك عن كثير من رصفائه ، فى أنه نشأ فى أسرة ميسورة ، اذ حين كان أبوه يشتغل بالمحاماة كانت أمه من أسرة من كبار تجار الأزياء فى باريس ، وكان ذلك قمينا بأن يجعله يعيش حياة مطمئنه وادعة تخف فيها وعثاء الطريق الى لقمة العيش او الى ما قد يصبو اليه من رغد ورخاء ،ولكن حياة بلزاك كحياة كثير من ابطال رواياته ، ظلت الى النهاية مغامرات لا حد للاندفاع فيها ،فى سبيل الحصول على المال الذى لا يكاد يتجمع بين يديه حتى ينفقه باسراف وبذخ ، بل ينفق اضعافه من جيوب الدائنين الذين يلاحقونه بطلب السداد ، وبما يضمن هذا السداد من اجراءات وقضايا ومشاكل تضطره ليس فقط الى الانزواء عن الناس ، والتهرب من الدائنين وانما الى الانهماك فى الكتابة التى يكون الناشر قد دفع ثمنها مقدما ، وقبل ان يخط حرفا واحدا من الرواية التى يعد او يلتزم بكتابتها ، سدادا لما سبق ان استلمه من المال ..

****

والذين كتبوا سيرة حياته أو علقوا عليها ، يذهبون الى أن مغامراته فى سبيل المال ، يجمعه بشراهة ، ثم ينفقه باستهتار ، ترجع الى الوقفة الجادة من أمه ، التى كانت تصغر أباه بأكثر من ثلاثين عاما ، وكانت بالغة القسوة فى تربية ابنائها مما لا يمكن ان يفسر بشئ سوى ضيقها بتربيتهم ومعاناة مشاكلهم مع مطالب شبابها ونزوات صباها .. وليس ادل على هذه القسوة البالغة من انها الحقت بلزاك بمدرسة داخلية وهو فى الثامنة من عمره ولم تسمح له بالعودة الى المنزل الى ان بلغ الرابعة عشرة ولو مرة واحدة .. ولذلك فقد ظلت علاقته بها دائمة التوتر وظل أثر هذا التوتر يتلامح فى الكثير من رواياته الى جانب الكثير من تصرفاته التى قد تتسم بالطيش والنزق ،ولكنها فى نفس الوقت اثر الجراح العميقة التى تركتها القسوة فى حياته على المدى الطويل ..

****

وقد نشأ بلزاك ، ونما فى عهد نابوليون .. وعهد نابوليون جاء فى أعقاب الثورة

الفرنسية ، فهو العهد الذى كان يشهد بطولة دفقت فى نفوس الفرنسيين اقصى مشاعر الاعتزاز والفخر . ويسمع فى نفس الوقت اصداء تلك الثورة التى هزت أوروبا والعالم كما هزتها فتوحات نابوليون .. وقد أضاف كل ذلك الى حوافز المغامرة والاندفاع فى اقبال بلزاك على كتابة رواياته ، بمشاعر بطل يخوض غمار معركة التفوق ليقرر له المجد فى الساحة الأدبية ، كما تقرر هذا المجد لنابوليون فى ساحات الوغى وعلى انقاض المعاقل والأسوار والحصون التى اقتحمها فى طول اوروبا وعرضها .. ومن هنا لم يجد بلزاك ما يمنع ان يسمى نفسه (نابوليون القلم) ، وان يكتب عن عهد نابوليون على الأخص ما عبر به عن انبهاره ببطولة القائد العظيم .

****

ورغم ما استطاع أن يحققه بلزاك من نجاح جعل النقاد والدارسين يصفونه بأنه (أعظم كتاب الرواية فى جميع العصور) ، فان أول أعماله الأدبية التى أغلق على نفسه باب الشقة التى سكنها فى سطح احدى المبانى فى باريس للعكوف على كتابتها ، كانت خليقة بأن تصرفه عن الأدب عموما وعن كتابة القصة أو المسرحية الى الأبد ..

فقد كتب مأساة شعرية عن (كرومول) .. اعتقد انها جديرة بأن تقنع أسرته بأن باتخاذه الكتابة مهنة يرتزق منها ويكون مستقبله افضل من المحاماة التى كانوا يلحون عليه ان يتابع خط سيره فيها .. فقد اجتمع افراد الأسرة ومعهم (فرانسوا اندريو) الذى اصبح فيما بعد أمينا عاما للأكاديمى فرانسيز ، واخذ بلزاك يقرأ مأساة كروميل وهو ينتظر أن يسمع عبارات الاعجاب من فرانسوا على الأخص ، فاذا بهذا يقول : (يحسن ببلزاك ، ان يستثمر وقته ، فى عمل ما ، بدلا من ان يقضيه فى كتابة التراجيديا أو الكوميديا) .. وتتحدث (لور) اخت بلزاك التى تصغره بستة عشر شهرا فى كتاب لها عن سيرة حياته عن هذا الحادث فى بداية اشتغاله بالكتابة وتعلقه بها كمهنة اختارها وفضلها على المحاماة أو أى مهنة أخرى فتقول : (رغم ما سمعه بلزاك عن رأى الرجل فيه فقد كان اقتناعه وتصميمه على تحقيق هدفه اكبر من ان يفت فى عضده او

ان يثنيه عن مواصلة مسيرته) .

ولم يتوقف بلزاك عن الكتابة ، وكتابة الرواية بالذات رغم كل ما ظل يواجهه من فتور النقاد والناشرين عن الاحتفاء بما يكتب أو حتى مجرد الاهتمام بانتاجه ، وهو الذى كان يطمع فى أن يستثمر طاقته التى كرسها لهذا الانتاج ، ليربح المال الطائل والشهرة الواسعة الغامرة ، وهما سبيله الى المكانة الاجتماعية الرفيعة التى تتفق مع البادئة الفرنسية : (دى) ، التى اضافها الى اسمه ليوهم سامعها انه ينحدر من طبقة النبلاء .

****

وقد عجز هذا الانتاج فى البداية عن ان يحقق شيئا من آماله ، ويبدو أن أسرته قد اشفقت على مصيره ، أو انه استطاع ان يقنعها وان يقنع بعض اصدقاء الأسرة بتأسيس شركة للطباعة والنشر يتفرغ هو لادارتها ، ولكن لم تمض فترة وجيزة حتى أفلست الشركة وضاعت الأموال التى ساهم بها من ساهم من أسرته وأصدقائها ، وتناهشتها الديون التى ترتبت عليها ، وظلت حياته بعدها ، حتى فى مراحل ازدهارها ، ورغم ضخامة ما تدفقت به عبقريته من انتاج لم يتوقف ولم يهبط عن مستواه الفنى قط ، لا تجد سبيلا الى الخلاص من الديون ، ومن ملاحقة الدائنين ..

****

وقصة ديون بلزاك ، وحياته مع دائنيه ووسائله فى الوفاء بالتزاماته بتسديد هذه الديون ، وما يعانيه من قلق وضيق كلما اشتد الحاح مواعيد الوفاء عليه .. كل ذلك ظل يلازم جميع مراحل حياته ويملأها بالمفاجات والغرائب التى استفاد منها الكاتب فى الكثير من رواياته ، وفى تكوين شخصيات هذه الروايات ، تكوينا لم يتكلف فيه الا تسجيل الواقع الذى عاشه وعانى منه اشد ما يمكن أن يعانيه مخلوق .

****

والغريب ان ديون بلزاك لم تكن نتيجة قلة موارده ، او ضالة ما يحقق من بيع انتاجه .. وانما كانت نتيجة لما طبع عليه من تعشق حياة الترف والوجاهة التى لا ترضى بأقل من أغلى ما تصل اليه طاقته على الاستدانة ، الى جانب ما يكرسه من وقته للانتاج

للناشرين قبل ان يكون قد كتب حرفا منه .. كان يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم .. وكان الناشرون دائما في انتظار ما يكتب ، وبكثير من تشوق القراء والحاحهم ، ولم يكن ما يطلبه ثمنا لهذا الانتاج تافها أو قليلا .. ولكن ، ولعه بالمظهر الثرى ، وبكل ما يؤكد الوجاهة التى يتعشقها ، كانا يستغرقان اضعاف دخله .. كان على سبيل المثال ولوعا بالملابس الأنيقة التى لا تتم لها الأناقة التى يتوخاها الا بأن ينفق على خياطتها ما لا ينفقه كبار الأثرياء ، وكان يهوى شراء العاديات والتحف النادرة التى يزخرف بها صالونه ومداخل منزله الذى لا يرضى بأن يكون أقل مظهرا من قصور أصحاب الجاه والسلطان . وبهذا الحافز الغريب ، كان يحلم بالمشاريع الضخمة التى يتوهم انها ستحقق له ما يصبو اليه من وفرة المال .. فلا يتردد فى السفر الى ايطاليا ليشترى ارضا يستثمرها فى زراعة الأناناس ، ويذهب به خياله الى أنه سيزرع مئة الف شجرة ، يدر عليه محصولها ارباحا خيالية ، ويتم له شراء الأرض بمساعدة زوج صديقة له هى الكونتس جيدوبونى فيسكونتى .. ولكن ما اسرع ما يتكشف الواقع عن اخطاء صاعقة يضطر معها الى بيع الأرض والمشروع كله بخسارة تزيد فى اغراقه فى المزيد من الديون .. ثم يسمع عن منجم للفضة فى جزيرة سردينيا منذ عهد الرومان ، فيلهث للحصول على امتياز تشغيله ، وينفق فى سبيل ذلك اموالا طائلة ، ولكنه لا يكتشف الا بعد فوات الأوان ان الامتياز الذى يسعى الى الحصول عليه قد سبق ان اعطى لشخصية أخرى ، ومرة أخرى تذهب النفقات هباء ويرتفع حجم الديون ، ويتكاثر المطالبون بالوفاء وتضطرب حياته ، فلا يجد مهربا سوى ان يغلق على نفسه الأبواب ، ليكتب ، ويظل يكتب ، وليمد الناشرين بما يقابل ما سبق ان دفعوه له من اموال ..

****

وانتاج بلزاك وأعماله من الضخامة والتعدد بحيث يصعب ان يشار اليها مجرد اشارة فى بحث عابر قصير ، ولكن يمكن القول ان من ابرزها ، تلك الروايات التى اعطاها اسم (الكوميديا الانسانية) .. معارضا (كوميديا دانتى) .. ويفارق ان كوميديا بلزاك ، ظلت تنشر من سنة ١٨٤٢ م الى سنة ١٨٤٨ م ، حيث بلغت سبعة عشر

مجلدا ، ثم ظهرت بقيتها فى ثلاثة مجلدات بعد موته .. وقد قسم بلزاك هذه الكوميديا ثلاثة أقسام ، اعطى كل قسم منها عنوانا ، يشير الى نوعية المواضيع التى يعالج تصويرها ، فالأول بعنوان (دراسات أخلاقية) والثانى بعنوان (دراسات فلسفية) والثالث بعنوان (دراسات تحليلية) .. ومع ان التقسيم كان لا يتفق ولا ينطبق على المواضيع التى تعالجها القصص تحت كل عنوان ، فان التبويب على هذا النحو ، كان على اية حال ، محاولة لحصر الآفاق التى حلق فيها بلزاك ، والتى كانت ولا تزال أبعد ، واكثر تنوعا ، واوفر ثراء وخصوبة من أية آفاق حلق فيها كاتب من كتاب الرواية فى عصره أو بعد عصره وحتى اليوم .

****

اما النماذج البشرية التى قدمها ابطالا لقصصه ، فقد وضع لها بعضهم قاموسا حصر عددها واشار الى دور كل منها ، فبلغت الفين وخمسمئة شخصية ، لكل منها خصائصها المميزة وحوافزها الكامنة ، وملامح تأثير البيئة والمجتمع والوراثة فى تصرفاتها ، ولكل منها مشاكلها وعقد الحياة التى تواجهها واسلوبها فى الصراع لحل هذه العقد ، وفى الانطلاق مع مسار القصة الذى يرسمه بلزاك فى براعة ودقة واتقان ومتابعة تجعلك تشعر ان الكاتب قد عايش هذه النماذج ، وعاش الأحداث معها وتغلغل فى أعماق النفوس ، واكتشف ما يكمن فى أغوارها، فهو يقدمها على ساحات احداثها ويحركها بأسلوب خبير لا تفوته اللمحة العابرة يستغلها ليوغل عبرها الى مجاهيل من الدوافع والكوابح والمطامع والآمال .

ورغم كثرة المواضيع التى عالجها بلزاك فى رواياته ، ورغم تعدد الشخصيات التى ابدع تكوينها ولاحق مسار حياتها فان النقاد يرون ان الطابع الذى غلب على جانب كبير من رواياته هو تلك الرغبة الملحة العارمه فى جمع المال والصراع اللاهث فى سبيل الحصول عليه ، ثم الانفلات الأرعن فى تبديده ، مما يلمح الى معاناته هو شخصيا فى سبيل جمع المال وانفاقه ، والاسراف فى هذا الانفاق الى حد جعله غريق الديون المتراكمة عليه طيلة سنوات عمره .. وقد لا يكون ذلك غريبا ، اذ أى كاتب قمين بأن

ينطلق فى عمله من مؤثرات واقعه يشعر بدبيبها وبردود فعلها فى مسيرة حياته ، فيلتمس النماذج المماثلة او الشبيهة او التى تعانى نفس المؤثـرات ، على اختـلاف فى طبيعـة الأحداث ، وفى تفاصيلها ، وبطبيعة الحال ، فى النتائج المترتبة عليها بالنسبة للظرف ومدى حدته او انفراجه وتفاعل الشخصية مع تطور المسار .

****

فى السنوات الأخيرة من حياته ، حين اشتد ضغط الدائنين عليه ، اشتد تبعا لذلك ضغط العمل الذى كان وحده سبيله الى الوفاء بالتزاماته والى الانفاق على مطالب اسرافه وبذخه .. ويبدو ان شدة الحاح الديون من جهة ، والبذخ الذى ادمنه كعادة من جهة أخرى ، جعلته يلتمس الخلاص من ضائقته بالزواج من امرأة ثرية طال بحثه عنها امدا دون جدوى رغم تعدد علاقاته بنساء من مختلف طبقات المجتمع ، الى ان نشأت له علاقة بمدام هانسكاه ، وهى ارملة او مطلقة تملك اراضى واسعة وعقارا ضخما فى المانيا .. قام معها برحلة الى المانيا وبلجيكا وهولاندة ، لم تخل من اسباب المتعة والسرور بالاضافة إلى انها مهدت لزواجه منها فيما بعد .. اذ نراه يعود الى فرنسا ، ونجده ينكب على العمل ، ونجد الناشرين يدفعون له ثمن انتاجه قبل ان يخط فيه حرفا واحدا ، كما نجد صحته تتخاذل وتعتل ولكنه يظل وراء مكتبه ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، ويرشح فى هذه الفترة مرتين لكرسى العضوية فى الأكاديمى فرانسيز ، فلا يفوز بأكثر من صوتين ، وحين يتزوج مدام هانسكاه فى الرابع عشر من مارس عام ١٨٥٠ م تتدهور صحته ولا تمضى ستة شهور حتى يموت بالسكتة فى الثامـن عشر من شهـر أغسطس عام ١٨٥٠ م .

كان فيكتور هوجو ، ممن مشوا فى جنازته بعد ثلاثة أيام من وفاته الى جانب عدد كبير من اعلام فرنسا ، وكان هوجو أبرز من تكلم فى ساعة دفنه ، ولكن ذكراه ظلت اكبر كثيرا من موكب جنازته اذ ما يزال الأدب العالمى مدينا لبلزاك ، ومـا تزال نماذجـه البشرية فى رواياته تتكرر فى الرواية ، كما تتكرر فى الحياة ..

أولدوس هكسلى

كاتب هذه السطور ، فى عنفوان الشباب ، وفى قمة الموجة الطامية التى تدفعها الرياح ، فى بحر الثقافة والعلم ، حيثما شاءت ، وكان يزهو بحظه القليل من معرفة اللغة الانجليزية ، ولكنه الزهو الذى يغرى بالاستزادة التى يستطيع معها ان يقرأ لشيكسبير ، وجون ملتن ، وكيتس وبيرسى بيتش شيلى وبايرون ، وغيرهم من اعلام الأدب الانجليزى وكان حلمه الأكبر ، ان يأتى اليوم الذى يستطيع فيه ان يقرأ هؤلاء الاعلام فى الأدب الانجليزى ، كما قرأ ويقرأ لاعلام الأدب العربي القديم والحديث ..

وبدافع من هذا الزهو ، والشوق ، لم ير ما يمنع ان يشترى لأى كاتب تقع عيناه على كتبه فى مكتبات القاهرة التى تستورد وتبيع الكتب الانجليزية فى أواخر الثلاثينات من هذا القرن .. وكان يجهل مكانة الكتاب المحدثين او المعاصرين ، ولكن غلاف الكتاب وطريقة عرضه فى واجهة معارض الكتب ، كان يدخل فى وهمه او ظنه ، ان الكتاب المعروض فى الواجهة لابد ان يكون لأحد كبار الكتاب المحدثين فلا يتردد فى الشراء مادام جيبه عامرا بالنقد .

وكان من أوائل من اشترى كتبهم بهذه الطريقة البدائية البسيطة (ألدوس هكسلى) ومايزال الكتاب الأول الذى اشتراه كاتب هذه السطور موجودا فى مكتبته المتواضعة .. ولكن النسخة التى مايزال يحتفظ بها مطبوعة فى عام ٩٤٩ ، لأنه ترك

مجموعة من كتبه الانجليزية والعربية التى اشتراها فى القاهرة فى عام ٣٨ ، لدى العجوز التى كان يسكن احدى غرف شقتها ، على امل العودة بعد العطلة المدرسية ، واستعادتها ، وعندما عاد بعد سنوات وجد العجوز قد فارقت الحياة ، ومن ورثها وكان مايزال يسكن شقتها ، قال انه قد باع كثيرا من الكتب على بائعى الكتب حول سور حديقة الأزبكية ظنا منه انها من مخلفات المتوفاه .

وكان كاتب هذه السطور ما يزال يذكر عنوان الكتاب وهو :(قصص ومقالات وشعر) واستطاع ان يبحث عنه فى نفس المكتبات ، وحين وجد طبعة عام ٩٤٩ م ، شعر كأنه قد استعاد كنزا مفقودا .. وليس ذلك ، لما فى هذه القصص والمقالات والشعر من روائع الفكر والأدب ، وانما لأن (الدوس هكسلى) يستعمل مفردات من اللغة الانجليزية كان لها الفضل فى حشو الذهن بالكثير مما كانت له فائدته الكبرى فى قراءة الكتب التى يحرص كتابها على الابتعاد عن اللفظ المهجور .. وبعبارة أخرى .. هناك قاعدة يمكن ان يطبقها كل متعشق للغة ، وهى قراءة الصعب والوعر من الكتاب والأساليب لتسهل عليه قراءة السهل والخفيف من الكتب والكتاب امثال بيرنارد شو ، وويلز وقبلهما اوسكار وايلد ، على سبيل المثال لا الحصر ..

******

ومع ان ألدوس هكسلى قد كتب الشعر والرواية والقصة القصيرة ، واستهدف فى اكثر ما كتب التهكم والسخرية بالمتغطرسين والمتعجرفين من اكابر رجال واصحاب بيوت الصناعة والمال ، فليس من يتهمه باليسارية او الشيوعية او حتى بالاشتراكية المعتدلة او المتطرفة .. ولعل السبب فى ذلك انه قد وضع نفسه فى اطار الناقد الاجتماعى ، الذى يستهدف الاصلاح ، ولا يتحزب لمبادئ بعينها ، ولا يحاول ان يغرى قراءه باتباعها والتحزب لها ..

******

وقد نشرت كبريات دور النشر لألدوس هكسلى الكثير من انتاجه فى الرواية مثل (الكرم الأصفر) و(يجب على الزمن ان يتوقف) .. و(هذه الأوراق الجرداء) ومن

المقالات والأبحاث مجموعة بعنوان (شجرة الزيتون) ومن القصص القصيرة قصة باسم (ليمبو) ومجموعة تحت عنوان (أضواء موجزة) ومسرحية ضمن هذه المجموعة بعنوان (عائلة سعيدة) ومع ذلك ، فان احتفاء النقاد بأدبه لم يبلغ ما بلغه رصفاؤه ، وفى مقدمتهم بيرنارد شو ، وهو كما نعلم اكبر كتـاب المسرح فى القـرن العشرين ، وسومرست موم ، وهو اكبر قاص انجليزى ، عرفه الأدب الانجليزى واحتفى به فى هذا القرن .. وقد يكون فى مقدمة الأسباب التى وقفت دون إعجاب الكثير من النقاد أن أولدوس هكسلى ، يميل الى استعمال الكثير من المفردات الصعبة ولأنه هو نفسه واحد من هؤلاء النقاد الذين ينتظر كاتب مثل شو ، وموم ، رأيهم فيما يكتبـون من مسرحيات وقصص .

******

وينحدر اولدوس هكسلى من أسرة كثر فيها العلماء والمعنيون بشؤون الفكر اذ كان جده (توماس هنرى هكسلى) من كبار علماء انجلترا ، الذين يدين لهم (هـ . ج . ويلز) بالفضل فى اتجاهه العلمى فى الكثير من قصصه واعماله الأدبية مثل (آلة الزمان) و (مملكة العميان) وحتى فى تحليله للتاريخ العالمى فى كتابه الفريد (موجز التاريخ) .. كما كان جده لأمه ناظرا ومدير مدرسة فى المراحل التى تسبق المرحلـة الجامعية وهى مدرسة (رجبى) .. ومن أقاربه رجال امتازوا بمشاركتهـم فى الفنـون والآداب ، بكتابة القصة او الرواية او المسرحية .. وقد ولد هكسلى الذى نتحدث عنه فى انجلترا ، وجميع المصادر المتاحة بين يدينا ، تذكر انه ولد فى انجلترا ، ولكنها لا تحدد فى أى مدينة منها ، وقد ولد الدوس قبل وفاة جده العالم الكبير توماس بسنة واحدة .. وعلى التحديد فى عام ١٨٩٤ م ، وقد توفى جده فى عام ١٨٩٥ م .. ولـذلك فليس صحيحا ما يقال انه قد تأثر بهذا الحدث فى ثقافته واتجاهه الأدبى ، الا اذا افترضنا انه قرأ كتب الجد ومحاضراته ومقالاته الكثيرة التى يقول النقاد انها قد استطاعت ان تؤثر فى الفكر الانجليزى واسترعت انتباه الكثيرين من المثقفين فى عصره ..

اما عن دراسة الدوس هكسلى ، فقد تلقى علومه الابتدائية فى مدرسة (إيتن) .. وهى كما يعلم الكثيرون ، المدرسة التى ما تزال ارقى مدرسة فى العالم ومن اقدمها فى نفس الوقت .. ليس بمناهجها ومستوى الدراسة فيها ، وانما بسمعتها ومستوى تلامذتها الاجتماعى .. اذ يندر بين افراد الأسرة المالكة البريطانية من لم يكن من تلامذتها كما يندر بين الأسر الملكية فى العالم ، من لا يحرص على ان يتخرج ابناؤها فيها ، ويكفى ان عليك اذا كنت تريد تسجيل ابنك فى ايتن ان تطلب هذا التسجيل وتحول التكاليف المطلوبة للتسجيل منذ يوم ولادته .. مع تقرير دقيق وصادق مئة فى المئة عن تاريخ اسرتك ، ومركزها المالى ، ومستواها الاجتماعى ، ومن يمكن ان يزكوا سمعتها ومكانتها من اعيان المجتمع ، وتخرج الدوس هكسلى من ايتن ، يعطينا فكرة عن مستوى اسرته ومكانتها فى المجتمع البريطانى . وبعد تخرجه من إيتن ، الحقته أسرته بكلية (بوليول) من كليات اوكسفورد وهذه أيضا من الكليات التى تكاد تكون خاصة بطبقة معينة من المجتمع البريطانى او من اعيان أى مجتمع فى البلدان الأخرى .

******

ويؤسفنى انى انقطعت عن قراءة الدوس هكسلى ، فى انتاجه بعد الخمسينات ، بل وانقطعت عن تتبع اخباره ، بحيث لا ادرى ان كان ما يزال على قيد الحياة ، ام فارقها ولكن المراجع التى تتحدث عن ادبه تؤكد انه مايزال على قيد الحياة الى منتصف الستينات تقريبا .. وعلى اية حال فما قرأته له على قلته بالنسبة للكثير مما كتب ونشر ، يكفى لرؤية الآفاق البعيدة التى يتطلع اليها ، وفى مقدمتها مستقبل الانسانية ، وما بقى لها من القيم والمثل ، فهو كثير التشاؤم الى حد يجعله يتقزز ، مما سيدخله العلم والتكنولوجيا على حياة الانسان من اخطار تدمره وتدمر معه هذا الذى بقى له من المثل والقيم .. ولذلك فهو يدعو الى التبسط فى العيش ، والاقلال من الأخذ باسباب الحضارة المعاصرة ، التى اصبحت تغرى بالكسل والاسترخاء ، وتباعد بين الناس وتقطع اواصر الصداقة والود بما تؤمنه له التكنولوجيا من وسائل الراحة والرفاه التى تغنيه عن السعى وعن بناء العلاقات الطيبة والتعامل الكريم مع الغير ..

الأرض الطيبة

قليلون من المثقفين الذين لا يذكرون قصة (الأرض الطيبة) التى كتبت أصلا باللغة الانجليزية ثم نقلت الى أكثر لغات العالم ، ومنها لغتنا العربية ، والذين لم يقرأوا القصة فى أى لغة ، لابد أن يكونوا قد شاهدوها على الشاشة حيث أخرجتها أستديوهات أميريكا بعد الأربعينات من هذا القرن ولكن ما أقل ما يذكر اسم كاتبة هذه القصة (بيرل بك) ..

والذين درسوا حياة الكاتبة (بيرل بك) قليلون أيضا ، ودوائر معارف الآداب العالمية التى بين يدى الى سنة ١٩٦٢ م لا تدخلها فى مجموعة الأدباء العالميين ، بل هى لا تتطرق الى ذكرها بحيث يتعذر أن تتوفر عنها معلومات تشبع نهم القارىء الى معرفة هذه الكاتبة التى منحت جائزة نوبل فى عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين وكان قرار المحكمين ، أنها استحقت هذه الجائزة ، ليس فقط بقصتها الطويلة (الأرض الطيبة) . وانما بمجموعة قصصها ومقالاتها التى استهدفت الدعوة الى الحب والسلام بين البشر .. واستطاعت أن تضيق الفجوة أو الاخدود الذى ظل يفصل الشرق عن الغرب ، وأن توائم بين روح الحضارة فى الصين ، وهذه الروح فى الغرب اذ اكتشفت ، أو كشفت عن أن منابع الحضارتين ، وما فيهما من القيم ، واحدة من حيث تطلع الانسان الدائم الى الخير والسلام .

و(بيرل بك) أمريكية الأصل من أبوين أمريكيين ، وقد رحل أبواها وعمرها أربعة

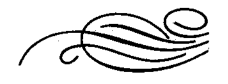
شهور الى الصين موفدين من الولايات المتحدة للتبشير .. واذ استقرت حياة أبويها فى الصين فقد جاءاها بمربية صينية ، والأطفال يتعلقون بمربياتهم تعلقهم بأمهاتهم أو أكثر فى بعض الأحيان .. وكان من أثر تعلق (بيرل بك) بمربيتها الصينية أن تعلمت اللغة الصينية قبل أن تتعلم اللغة الانجليزية .. وهذا ، أتاح لها أن تسمع من هذه المربية الكثير من الحكايا والأساطير التى تحفل بها حياة الصينيين ، وعلى الأخص منها تلك القصص المزدحمة بأخبار الأرواح الشريرة والأرواح الخيرة والملائكة الأطهار ، والعجائز الماكرات ، والشيوخ الطيبين المتصفين بالحكمة والعقل والتواضع وحب الأطفال ..

وكبرت (بيرل بك) فى الصين ، ولولا لونها الأبيض ، وملامحها التى تنم عن أصلها الأمريكى لما شك أحد فى أنها صينية عريقة ، بما أتقنته من اللغة ، ومارسته من العادات ، وتطبعت به من قواعد السلوك والتقاليد. وعندما تكاملت لها حصيلة طيبة من الثقافة فى اللغة الانجليزية كان من الطبيعى ، أن تكتب بهذه اللغة عن الصين ، من زاوية الاعجاب بحياة الصينيين وأخلاقهم وعاداتهم .. ورحبت الصحف والمجلات في أميركا بما أصبحت تكتبه بيرل بك ، وعن الصين بالذات ، وكانت الحكايا والأساطير التى ظلت تسمعها من مربيتها الصينية رصيدا خصبا وضخما أتاح لها أن تكتب القصص القصيرة ، التى لقيت بدورها الكثير من الترحيب والاعجاب .. الى أن كتبت أشهر قصصها (الأرض الطيبة) ،فبلغت بها قمة الشهرة وذيوع الصيت ، واستفاضت هذه الشهرة والمكانة الأدبية العالمية ، عندما أخرجت هوليوود هذه القصة للسينما وظلت تعرض فى كل بلد من بلدان العالم ، ولا تقل مدة العرض عن أربعة الى ستة شهور فى كل بلد . وباستثناء رواية (الأرض الطيبة) التى نقلت الى العربية عن الانجليزية ، بقلم كاتبتها (بيرل بك) فان الظاهرة الشائعة فى العالم العربى ، أن حركة النقل الى العربية ، قد اتجهت نحو الأدب الغربى وعن اللغتين الفرنسية والانجليزية ، والقليل من الايطالية والألمانية والأسبانية ، بحيث أصبح من النادر أن تقع على ترجمة لأثر من آداب أمم الشرق ، كالهند وباكستان وايران والصين واليابان ، وأيندونيسيا ، والأرجح أن السبب هو أن آداب هذه الأمم لم تنقل الى اللغات الحية التى لا يعنى العالم

العربى بتعليم غيرها فى المدارس أو فى مراحل التعليم باستثناء المرحلة الجامعية ، التى قد نجد المؤهلين من كليات الآداب فيها من تخصصوا فى بعض اللغات الشرقية ، ولكنهم نادرا ما عنوا بنقل آداب هذه اللغة الى العربية ..

والاتجاه الى الأدب الغربى الذى استمر طيلة ما يزيد عن قرن من الزمان ، كان له أثره العميق والممتد فى الفكر العربى ومع عدم انكار الفائدة التى حققتها حركة الترجمة ، وليس فى العطاء الأدبى فقط ، وانما فى أساليب التفكير وانماط السلوك ، وتقاليد المجتمع ، واتجاهات الطموح فان مما لا شك فيه أن كثيرا من علل الانحلال والتهتك والاستهتار بالقيم والإكثار من الانحراف والتبذل كان نتيجة للتأثر بما نقل الى العربية من الأدب الرخيص المسموم الذى تعمل على ترويجه دور النشر المشبوهة والتى تمولها الصهيونية العالمية تنفيذا لمخططها الذى لا يستهدف شيئا سوى تخريب الضمائر والذمم وتفتيت المتماسك من الأخلاق والقيم .

والسؤال الذى يفرض نفسه ، أمام هذه الحقيقة ، هو هل من سبيل الى أن تتجه حركة الترجمة الى الشرق بحضارته العريقة ، وقيمه الروحية ومثله السامية فى المحافظة على الفضائل والأخلاق ؟



شريحة من مآسي فنان

كان زواج الكاتب الانسانى الكبير (الكونت ليو تولوستوى) صفقة خاسرة ، لم يدر بخلده قط يوم عقدها ، أنها ستنتهى به الى أن يموت ، فى غرفة ناظر محطة صغيرة مجهولة من محطات قطار السكة الحديدية ، بعد أن فر منها فى ظلام الليل وقد خطا نحو الثمانين من العمر .

ومع أن زوجته ظلت تجمع عناصر مأساته ، فقد وجد تولوستوى فى ابنته (ماشا) ما كان يعوضه الكثير مما خسر فى زواجه .. كانت (ماشا) بعد أن نهدت ، المخلوق الوحيد الذى يأنس اليه الكاتب .. كان يجد فى حدبها عليه ، وانصرافها للعناية به ، العنصر الذى يلطف من حدة شقائه مع زوجته التى اذاقته الأمرين ، بشراستها وحدة طباعها ، وباختلاف نهجها ونظرتها الى الحياة .. كانت هى متكبرة متغطرسة ، ترى فى اللقب الذى يتمتع به زوجها ما يعطيها حق التعالى على الغير ، وحق الاستيلاء على حقوق نشر مؤلفاته ، وحق منعه من التصرف فى ممتلكاته بالهبة والعطاء والتنازل ، ايمانا منه بأن ما يبقى له ـ ولها مع ابنائه وبناته ـ يكفيهم ويزيد عن حاجتهم مدى الحياة .

ولكن (ماشا) تلك الفتاة التى كان يركن الى عطفها وحدبها الكاتب ، حتى فى أشد ساعات بؤسه وشقائه مع تصرفات زوجته .. فاجأته بانها ترغب فى الزواج من أحد أقرباء الأسرة ، وهو الأمير (نيكولاى أوبورينسكى) ..

لم يتحدث تولوستوى عن أثر هذه الصدمة فى نفسه ومشاعره .. كان أرهف حسا ،

وأرق مشاعر من أن يشعر الفتاة الشابة بأن زواجها يضعه تحت وطأة العذاب الذى يعانيه مع والدتها .. ولكن نجد فى يومياته أن الحادث ، كان له وقع الكارثة عليه .

كتب الى (ماشا) يقول : ليس لدى ما أقوله .. ولن تسمعى ما يعارض رغبتك .. زواجك يا ماشا نتيجة طبيعية .. ولكنك تعيشين الآن حياة أكثر ترفا مما يمكن أن يتاح لك مع (نيكولاى) .. هل فكرت فى ذلك ؟؟؟ لك أن تأخذى حصتك من الارث لتوازنى بين طاقة نيكولاى ، وبين ما تتطلبه طبيعة حياتك .. أنا ما زلت شديد الوهن .. وأنوء فى نفس الوقت بثقل العدو الذى تعلمين .. سأصبح فى قبضة يده الخانقة .. ومع ذلك سأظل أصرخ .. وسأظل أجاهد للخلاص .. ولن أستسلم لرغباته ما حييت .

والعدو الذى تعرفه (ماشا) هو للأسف زوجته ووالدة الفتاة ..

تزوجت ماشا بالرغم مما تعلم ما يعانيه والدها من شقاء .. وأخذت حصتها من الميراث فعلا .. ولكنها لم تعمر طويلا .. اذ توفيت فى الخامسة والثلاثين .

ومما يمكن أن يحمد ويذكر (لماشا) هذه أنها لم تهجر أباها بعد الزواج .. ظلت حريصة على أن تشعره بأنها الى جانبه .. تكثر من زيارته ، وتحاول التخفيف من آلام الصدمات التى يلقاها من زوجته .. وكطفل ترضيه الابتسامة والكلمة الطيبة ، كانت تشرق على وجهه الابتسامة العريضة ، التى توهمه ، وتوهم من يراه أنه قد نسى كل شئ .. ولعله كان ينسى فعلا ، لولا أن زوجته كانت لا تنسى أبدا ما تعتبره ملكها الخاص .. وليس فقط الأرض ، ولا القصر ولا المزارع والحقول الواسعة التى كان يملكها تولوستوى .. وانما أفكاره .. ومؤلفاته بل وحتى يومياته الخاصة .. التى كان يجهد فى اخفائها ، كما يجهد الأطفال فى اخفاء مقتنياتهم الغالية ..

كتب تولوستوى الكثير ، الذى لم ينقل منه الى العربية الا القليل .. يومياته وحدها كنوز من الفكر والفن والآراء الخيرة فى الاصلاح الاجتماعى .. والروايات والقصص التى كتبها سوف تظل تراثا انسانيا ، يسمو على الاقليمية المحدودة ، وينطلق وراء أى حدود من الحدود الجغرافية على هذه الأرض .. ولكن قصة حياته الشخصية (بيوغرافى) يمكن أن تكون أعظم قصصه على الاطلاق ..

الفن

مفهوم كلمة : (فن) فى عالمنا العربى منذ درج على استعمالها الناس وبعد الحرب العالمية الاولى على الأرجح ، ومنذ روجت لها الصحافة وهى تواكب ما ظل يتلاحق من نشاط وتطور فى الموسيقى والغناء ظل ينصرف فى الدرجة الاولى ، وبطريقة تكاد تكون مسلمه بديهية ، الى الموسيقى ثم الى التمثيل وبالتالى الى ما يتدرج فى هذا الاطار من انشطة مماثلة ، كالسينما والتليفزيون والاذاعة .

وهذه ظاهرة حين تستلفت النظر فانها تؤكد حقيقتين أولاهما : ان حركة تطور الفنون التشكيلية كالرسم والنحت فى العالم العربى كانت ـ وربما ماتزال ـ بطيئة ومحدودة مما يمكن ان يعلل الى حد كبير بأن مايستهوى النظر أقرب إلى ان يكون عملا فكريا متطورا يستلزم درجة أعلى من الثقافة والتذوق الرفيع ، وثانيهما : ـ وقد يكون هو الأهم ـ ان الانسان العربى التزم التأثم فى رسم الاحياء قرونا طويلة ، اذعانا منه للنواهى والزواجر التى وجدها فى العقيدة تحاشيا لما يمكن ان يستدرجه الى الشبهة التى نصت عليها عقيدة التوحيد . فكان الاسلام العقيدة الوحيدة التى استغنت وستظل تستغنى عن (التجسيد) .. ولم تبلغ ممارسة الموسيقى والغناء حد الرسم والنحت من التأثم والتحرج ، لأنهما يخلوان من عنصر الاستدراج الى شبهة من شبهات الوثنيه ، مما افسح لهما الطريق وفتح لهما الأبواب فى حياة المسلمين منذ بداية العصر الأموى ، حتى اليوم .

ثم هناك سبب آخر فى الاجماع على اطلاق كلمة (فن) على الموسيقى والغناء الى

حد يقترب من تخصيصه بهما عند عامة الناس بل وعند عامة المثقفين ايضا .. وهو ان الغناء والموسيقى كانا منذ درج الانسان على الأرض وسيلته الى تلبية مطلبه الغريزى القديم ، وهو الرقص، الذى نعلم ان اسبابه لا تتهيأ عفويا فى الانسان الا بايقاع هو فيا نعلم اصل الموسيقى والغناء ، وهو على الأرجح الأب الشرعى للشعر موزونا باساليب وطرائق قد تختلف وتتنوع فتسهل او تصعب ، وتتبسط او تتعقد ، ولكنها تتفق على توفر عنصر الايقاع .

ومن هذه الحقيقة يتجه الفيلسوف الألمانى شوبنهاور الى القول : ان جميع الفنون تطمح الى المنزلة التى تتمتع بها الموسيقى .. ومع ما ظلت تثيره هذه الملاحظة من جدل ، واختلاط فى المفاهيم الا انها تعبر فى الواقع عن حقيقة هامة . اذ كان شوبنهاور ينظر فى ملاحظته الى تلك الخصائص الغامضة فى الموسيقى ، التى تتجمع فى انها الفنّ الوحيد الذى يستغنى فيه الفنان عن تدخل اى وسيط انتفاعي للاتصال بجمهوره .. وليس كذلك المهندس مثلا ، الذى لا غنى له عن البناء الذى يأتى اهتمام الناس به من انه يحقق فى الدرجة الأولى مطلبا انتفاعيا هو السكن .. وحتى الشاعر لا غنى له عن ان يعالج تجربة او قضية من التجارب والقضايا التى يستجيب لها الناس بردود فعل تختلف قبولا او رفضا ، ولكنها تظل منبثقة من معاناتهم لها بطريقة او اخرى ، ثم هو لا يستغنى عن مفردات اللغة التى يتناولها الناس فى التعبير عن انفسهم . وقد يختلف الرسام عن الشاعر فى حاجته الى الوسيط الذى ينقل او يعبر عن افكاره ، وهو المرئيات التى تقع عليها حاسَّة الابصار .. اما الموسيقار فيظل يتمتع بحرية مطلقة فى خلق العمل الفنى الذى ينبثق من وعيه الذاتى ، مستغنيا عن الوسيط الذى يحتاجه الشاعر او الرسام ، مجردا فى نفس الوقت عن الغرض سوى ان يسر سامعيه ويرضيهم .. ومع ان مطلب جميع الفنون ، هو إرواء الاحساس بالجمال ، فان الموسيقى تظل دون غيرها تتجرد عن كل مطلب آخر سوى هذا المطلب فى علاقتها بالجمهور .

******

ولكن الحرية التى تتمتع بها الموسيقى ، لا تعنى ابدا انها عمل عشوائى او ارتجالى ،

ومع ان الموهبة او العبقرية اساس فى ابداع العمل الموسيقى ، فان هذا الأساس يعجز عن أن يقدم عملا فنيا ما لم يتزود بأصول وقواعد تجعل من الموسيقى علما قائما بذاته لابد من الاحاطة به ومعرفة دقائقه .. بل يمكن القول ان علم الموسيقى لا يقل تعقيدا عن علم الجبر ، حيث لابد فيه من معرفة معادلات فى الصوت وعلاقته بالوتر فى الآلات الوترية ، وبطول البوق او الأنبوبة فى الآلات التى تعتمد على النفخ ، الى آخر ما فى الآلات الموسيقية التقليدية او المتطورة من انواع ، وما تؤديه من اصوات ..

******

ومع ان الموسيقى هى الفن الوحيد الذى يستغنى تماما عن المفردات اللغوية ، ومع ذلك تظل مفهومه وتظل لها القدرة على ارضاء من يصغى اليها وامتاعه وايناسه ، فان لها لغتها الخاصة التى تكتب ، وتقرأ ، ويمكن ان يقرأها عربى مثلا ، بينما كاتبها يابانى او المانى ، وهى التى نسميها النوته ، والتى يكتب بها الموسيقار الحانه ، ونراها امام العازفين فى الفرقة الموسيقية التى تؤدى أى لحن من الألحان ..

******

والموسيقى اقدم الفنون على الاطلاق ، عرفها الانسان البدائى فى فجر حياته على الأرض . وليس من شك ، فى ان الأصوات التى تزخر بها الطبيعة فى كل بيئة من البيئات التى عاش فيها ، كانت من الحوافز التى أغرته ربما بتقليدها ، بصوته اولا ثم بما ظل يهتدى اليه من آلات ، استهدف بها اتقان التقليد والمحاكاة ، فكان القرع على جذوع الأشجار ، باغصانها ، وتطورهذا ، الى نوع من الطبول ، التى يرجح ان تكون جذوعا مفرغة ، تطورت بدورها كما تطورت الأبواق من قرون الوعول او الثيران الى مختلف انواع المزامير ، فكان الطبل المصنوع من الجلد المشدود على خابية او تجويف من الخشب يشبهها ، وهو الشكل الذى ما يزال يستعمل فى انواع من الطبول ، سواء منها المتطورة التى تشاهد فى الأوركسترا الغربية الحديثة ، او تلك التى حافظت على شكلها التقليدى ونشاهدها فى الفرقة الموسيقية العربية .

وفى العالم منطقتان ، كانتا مهد حضارة الانسان ، كما كانتا مهد ديانه الكبرى ، واولى المنطقتين ، فى ما يعرف الآن باسم الشرق الأوسط ، وعلى الأخص من هذه المنطقة مصر ، وسوريا فى حدودها الطبيعية ، والعراق وفارس ، والمنطقة الثانية هى الهند والصين .. ومن هاتين المنطقتين انتشرت جميع فنون الموسيقى فى العالم القديم الذى لم يكن قد عرف بعد سوى قارات آسيا واوروبا وافريقيا .

******

ويقول ابن خلدون : (ان الفتيان كانوا يترنمون فى اوقات فراغهم فى الجاهلية) كما يقول المؤرخ الفرنسى (برون) فى بحث له عن المرأة العربية قبل الاسلام وبعده : لم تكن الموسيقى قبل الاسلام اكثر من ترنم ساذج بنوعه ويجعله المغنى تبعا لذوقه او ما يريده من تأثير ، ويطيل المغنى مقطع الكلمة او الشطر بصورة تجعل غناء المقطوعة ذات البيتين او الثلاثة يستغرق ساعات .. وميزة المغنى فى جمال صوته ، ولم يكن المغنى يعرف هذه اللحون المتفرقه كما نعرفها نحن اليوم .. والنوع الوحيد من التاليف الموسيقى الذى كان موجودا عندهم هو تلك الأنغام التى تبعثها آلات القرع المختلفة من امثال الطبل والدف والقضيب .

******

ومع ان اكثر المؤرخين يرددون ان (طويس) كان اول من غنى بعد الاسلام ، فى بعض متنزهات وادى العقيق فى المدينة ، وانه كان يغنى على قرع طبلة اليد ، مما يلمح الى عدم وجود الآلات الوتريه ومنها المزهر ، الذى يختلف عن العود بانه ذو تجويف جلدى ، فان ذلك لا ينفى ان العرب فى جاهليتهم ، قد عرفوا انواعا من آلات العزف التى يرجح انها كانت فارسية الأصل ومنها : (الكران .. والبربط .. والبوتر) كما عرفوا (الجناد) الذى سموه (صنجا) وهو يشبه ما يسمى بالانجليزية (هارب) .. ومن آلات الزمر عرفوا (المزمار) وهو قصبة هوائية قد تكون هى التى تعرف اليوم باسم (الناى) .. واذا اخذنا بما ذكره الفارابي عن ان (الطنبور) البغدادى فى عصره كان

ذا دساتين توازى الدساتين فى الجاهلية ، فان ذلك يؤكد ان **مختلف آلات العزف** كانت معروفة قبل الاسلام . وهذا يستتبع أن الموسيقى تطورت عند العرب من الحداء الذى يقول المؤرخون انه أول الغناء وان أصله يرجع إلى **مضر** بن نزار الى غناء وطرب يعتمد على آلات **العزف** التى عرفت فى ذلك الزمان ..



مدارس الفن

وحين نقول : (الفن) فاننا نقصد الى معناه الشامل ، الذى يستوعب الأدب بمختلف فنونه والفنون التشكيلية بمختلف أنواعها ، والموسيقى .. وحين نقول مدارس أو مدرسة الفن فاننا نعنى نزعاته ، واتجاهاته وتفاعله أخذا وعطاء وتطورا ثم اندحارا أو ضمورا بما يستجد من النزعات والاتجاهات ..

ومع ان أسماء هذه المدارس قد أصبحت تتردد على أقلام الكتاب فى العالم العربى بعد الحرب العاليمة الأولى ، فان مفهومها لدى الكثرة ممن يتداولون الكلام عنها يندر أن يكون واضحا ، ومعانيها ما تزال تنقصها الدقة ، بحيث قد نقرأ للكاتب كلاما عن المدرسة الرمزية ، فاذا اوغل فى البحث او أوغلنا فيما يحاول أن يعالجه ، نشعر اننا تورطنا فى متاهة نادرا ما نخرج منها بحصيلة تبلور المقصود من البحث ، وتضع بين أيدينا أو فى أذهاننا صورة واضحة لهذه الرمزية التى قد يذكر لنا الكاتب الباحث أبطالها وقادتها والمتأثرين بها ، والآثار التى تركها عشاقها ، ونظل مع ذلك نتطلع الى أن نعرف أكثر كثيرا مما نجده فيما نقرأ على الرغم من جهد الكاتب ، وجهدنا فى محاولة الفهم .

والسبب على الأرجح ـ ان كل ما كتب وما لا يزال يكتب ، حتى بأقلام كبار الباحثين ، لا يتوخى الدقة العلمية التى تستهدف التركيز والبلورة ، ولا ندرى لذلك سببا سوى أن هذه المدارس جديدة على العقل العربى ، وعلى مألوف مفاهيم النقد والدراسة والبحث ، التى يبدو أن الخروج عليها والانطلاق من قيودها التقليدية ما يزال

يصطدم ـ ربما ـ بطبيعة الفكر العربى الذى التزم دائما فى مسيرته قضايا ومواقف تختلف عن القضايا والمواقف التى تعرض لها الأدب الغربى منذ عصر النهضة ، ومنذ الثورة الصناعية ، وهما مرحلتان من تطور الحياة والمجتمع لم يعان الانسان العربى مثلهما حتى اليوم . فاذا كانت التجربة هى الحافز الذى تندفع منه وتتأثر به حركة التطور ، فان لنا ألا نستغرب غموض الكثير من المفاهيم ، ما دمنا لم نمر بالتجربة ، ولم نقف الموقف ، ولم نمارس المعاناة ..

وليس لنا ان ندعى اننا سنوفق الى ما غاب او تسيب من هذه المفاهيم عند اكابر الباحثين ، وفى مقدمتهم الأستاذ المرحوم أحمد حسن الزيات فى كتابه (فى أصول الأدب) .. والأستاذان أحمد أمين وزكى نجيب محمود فى (قصة الأدب فى العالم) ، ولكن لنا أن نحاول شيئا من الايضاح قد يلقى مزيدا من الأضواء على مفاهيم ما نسمع من أسماء هذه المدارس ، لا تزيد فى قدرتها على انارة المساحة عن هذه المصابيح القائمة التى تنتصب فى الشوارع ، لا تفيدنا فى استيعاب التفاصيل والخوافى ، ولكنها لا تحرمنا ـ فى نفس الوقت ـ من ملاحظة المعالم التى نعرف بها الاتجاه الذى ننطلق اليه والدرب الذى نجتاز ونقطع .

واذا اخترنا (الرمزية) بداية لاعطاء لمحات عن المدارس الأدبية . فلأننا نجد الكثير من الشعراء يبررون الغموض ، والاغراق فى الاحالة والاسراف فى الانفلات ، حتى من مدلول اللفظ فيما يكتبون من شعر منثور او نثر شعرى ، او شعر حر ، بهذه الرمزيه ، التى تتيح للقارئ أن يذهب فى تفسير ما يقرأ مذاهب قد لا يكون منها ما تلامح فى خيال الشاعر ، بل قد تكون مما لم يخطر له قط على بال .

ولعل أقرب ما يمكن أن تعرف به الرمزية ، هو انها أسلوب واع ودقيق للتعبير عن التجربة بالرمز والايحاء .. وكانت أول نشأتها فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر . ومع ان بودلير صاحب (ازهار الشر) يظل ابرز من يمثلونها حتى اليوم ، فقد كان مالارميه ، وفيرلين وريمبو من اكبر الدعاة لها والمنافحين عنها فى وجه من ثاروا عليها واستهجنوها من النقاد .

والرمزيه حين تتقرر كمدرسة من مدارس الأدب ، فان المتحمسين يزعمـون لهـا الفلسفة الخاصة بها ، وخلاصتها الاعتقاد بأن العالم المرئى الزائل ليس هو الواقع الحقيقى وانما هو انعكاس للمطلق غير المرئى ، وان التماثل او التوافق الظاهر ليس الا نتيجة للحوافز النابعة من مختلف الحواس ..

ومن هذا المنطلق ثارت الرمزيه على الواقع والطبيعى اللذين ترى انهما يستهدفان تطويق المرئى الزائل .. وان المطلق المستتر الخالد يستشف ويستوحى فلا يعرف أو يحدد ، لأن التعريف أو التحديد هدم ، بينما الاستشفاف والايحاء هو الخلق والتكوين . ولذلك فان الكثافة والتعقيد فى العمل الفنى يجب أن يتحققا بالجملة المركزة ، والصور العارضة التى تتجمع حول استعارة رئيسية بحيث يتاح لانطباع حسى ان يقود الى انطباع آخر ومنهما معا يتكون الرمز للانطباع الأصلى .

فالرمزيه فى الاطار الذى اختاره لها زعماؤها وعشاقها ، ليست اكثر من مفهوم تافه يسكب عليه الغموض ، ويلتف حوله الضباب ، بحيث يقتصر فهمها على القلة القليلة من المتعلقين بها ، وشعراؤها يكتفون بأن يكون شعرهم احاجى ورموزا او الغازا تستدرج شداة الأدب وناشئته الى الانضمام اليهم ، ومن هنا فقد وصمهم النقاد بأنهم استبدلوا الشعر بالكنايات البارده الى درجة التجمد ، وذهبوا هم الى الاستخفاف بكل ما يصوب اليهم من سهام ، واخذوا يدعون الى الاهتمام بالجرس والرنـين فى الكلمـة والجملـة باعتبارها السبيل الى احداث التأثير الموسيقى الذى يجئ عندهم فى الاعتبار الأول والأهم ، متأثرين فى ذلك بتعريف ادجار ألن بو للشعر حيث يقول أنه (الخلق الايقاعى أو الموزون للجمال) ..

وفى ثورتهم على الواقع والطبيعى رفضوا كل عمل أدبى ، أو موضوع يعالج شؤون المجتمع والأخلاق .لأن رسالة الفن هى التغنى بالجمال وحده بعيدا عن هذه المسؤوليات المألوفة فى حياة الناس ، ولذلك فان أى عمل أو موضوع يمكن ان ترحب وتتهلل له المدرسة الرمـزيه ما دام يعبـر عن ادراك رقيق وذكى لما يوحيه الجمال من المشاعـر والأفكار .

واشتدت حملة النقاد على الرمزيه واتباعها واشتد فى نفس الوقت اصرار هؤلاء الأتباع على الغلو فى تفسير انفلاتها ورعونتها ، وكان بود لير يعيش اشد مفاهيمها انحرافا ، ليس فقط بما يكتب من ازهار الشر ، وانما بسلوكه وتصرفاته وعلاقاته بالزنجيه التى الهمته اكثر ما بقى من الشعر فى ديوانه . وبلغ من هذا الاصرار ، ان كان بودلير يزدهى ويفخر بأن مدرسته قد احدثت فى الأدب هزة جديدة أغرت ـ عن سابق اصرار ـ بالانحراف والاستهتار بكل القيم الأخلاقية فى السلوك . فيبلغ الأمر بريمبو وفيرلين ان يرحبا او حتى يزهوا حين وصف كل منهما بأنه منفسخ ومنحط ، ثم يذهب جوتييه الى حد اعتبار هذا الوصف شارة فخر وتشريف لا يستحقها الا صاحب ازهار الشر (بودلير ..) ، وهو الذى جمع فى مقطوعاته بين الاستهتار والدعوة المكشوفة الى الانحراف ، طريقا الى الاستغراق فى المطلق فيما فسروا به جنون التفسخ والانحلال ..

وبعد بودلير وريمبو وفيرلين وجوتييه ، فى فرنسا ، او بعد هذا الجموح والانفلات فيما عرف للمدرسة الرمزية عند نشأتها نرى عشاقها ومعتنقيها يظهرون ، فى بداية القرن العشرين فى ايرلانده وانجلترا ، بل نرى المتأثرين بها فى أميريكا وروسيا ، حيث كان من اعلامها فى انجلترا ييتس ، وفى المانيا ريلكه ، وفى روسيا اندريه بيلى وحيث استقر لها مفهوم اقرب الى الاعتدال ، إذ اصبحت الفن الثائر على الواقعية ، والذى يتخذ من اللمحة الخاطفة وموسيقى اللفظ او الجملة سبيلا الى التعبير عن التجربة ، وشعارها او هدفها الذى لا تعنى بسواه هو الفن للفن ، او الشعر للشعر .

ولم تخل سيرة الأدب العربى خلال نصف القرن الماضى ، وحتى اليوم من شعراء اراد النقاد ان ينسبوا شعرهم الى هذه المدرسة او تلك من المدارس التى عرفت فى الغرب ، ومن دارسين راقهم ان يقارنوا بين شعراء مدرسة ما فى اللغة الفرنسية او الانجليزية بشعراء من العالم العربى ، بحيث اخذ المحدثون من النقاد والدارسين يدخلون شاعرا مثل ابراهيم ناجى فى عداد الشعراء الرمزيين او شعراء الفن للفن ، والشعر للشعر ، وقد يدخلونه فى زمرة الرومانسيين ، كما ادخلوا على محمود طه ، فى هذه المدرسة تارة ، وفى نقيضتها او الثائرة عليها تارة أخرى ، وهم يعتمدون فى المقارنة

والتحليل على التشابه فى التعبير عن التجربة الشعرية بين الشاعر العربى ، فى اواسط القرن العشرين ، والشاعر الانجليزى او الفرنسى فى منتصف القرن التاسع عشر او أواخر القرن الثامن عشر .

قد لا يكون هذا بعيدا عن الواقع ، وعلى الأخص حين نعلم عن الشاعر المامه او معرفته باحدى اللغات الأجنبية . فلا تستغرب مثلا ان ينسب عبد الرحمن شكرى الى المدرسة الرومانسية اذ نعرف ان الشاعر يعرف الانجليزية ، وقد تضلع فيها وقرأ الكثير من شعرائها ، ولكننا نقف وفى نفوسنا الكثير من الدهشة ، حين يقال لنا عن الشابى مثلا انه متأثر بأى مدرسة من المدارس التى عرف بها الأدب فى فرنسا او انجلترا ، لأننا نعلم ان الشاعر لم يكن يعرف هذه اللغات ، ولم يتح له ان يقرأ شعراءها ، ولعلنا نظلمه ونفتئت عليه حين نذهب الى التماس مكامن التأثر فى شعره .

لسنا نجد ضرورة من اى نوع ، لادخال أى شاعر من شعرائنا فى هذه المدارس التى تسحرنا بالرنين فى اسمائها ، بل لا نجد أى ضرورة لالتماس الأدلة والبراهين على ان شعرنا وشعراءنا ينتمون الى هذه المدارس ، ذلك اننا اكثر غنى ، وتراثنا اكثر تنوعا واقوى ازدهارا ، واقدر على ان ينطلق فى عباب الفن بما فيه من طاقة ذاتية ، لا بأس بأن تتطور ، وان تستوعب كل أدب فى العالم ولكن لا ضرورة اطلاقا لافتعال التشبه أو التشابه بيننا وبين غيرنا ، اذ لن يزيد ذلك فى وزننا او فى حجمنا الفكرى أو فى ذوقنا الفنى ، وقد بلغنا الأوج قبل ان يكون لأوروبا وجود فنى بمئات السنين .



شوبان

اسمه الكامل .. (فردريك شوبان) .

ولد فى ٢٢ فبراير عام ١٨١٠ ميلادية من أب فرنسى وأم بولندية ويقال : إنه في اللحظة التى رأى فيها النور تصادف مرور إحدى الفرق الموسيقية تحت النافذة ، وهى تعزف أحد الألحان فلم يبك الطفل كما يفعل سائر الأطفال بل تحركت عيناه صوب مصدر الموسيقى وابتسم مما أذهل كل الموجودين .

علمته أمه حب بولندا وفشل أبوه فى أن يعلمه حب فرنسا كوطن ولكن شوبان وهو فى السادسة والعشرين من عمره اتجه قلبه نحو الكاتبة الفرنسية المشهورة (جورج صاند) وعلى الرغم من دمامة هذه الكاتبة التى كان يسميها البعض بالمرأة المسترجلة فقد أحبها (شوبان) بجنون وظل يحبها رغم خيانتها اياه . ولقد عذبته كثيرا ومات فى باريس وهو فى ريعان شبابه وكانت آخر كلماته هى ..

» أين حبيبتى جورج صاند ؟.. لقد وعدتنى بأن أموت على صدرها ..«

كانت بولندا فى عهد شوبان تقاسى من سيطرة الحكومة القيصرية الروسية فألف عددا كبيرا من الأغانى الوطنية التى تغنى بها الشعب ومازالت حتى الآن تتردد .

ظهرت عبقرية « شوبان » الموسيقية وهو فى الخامسة عشرة من عمره . فلما ذاع صيته وهو مازال صبيا استدعاه قيصر روسيا ليعزف احدى مقطوعاته أمامه فى احدى حفلات القصر . ولما انتهى من عزفها نهض قيصر من مكانه وتوجه الى الصبى

(شوبان) وخلع من اصبعه خاتما ثمينا جدا ووضعه بنفسه فى اصبع شوبان وهو يقول .. (سيكون لهذا الخاتم الشرف الكبير لأنك بلا شك سوف تخلده .. انك ستكون أعظم موسيقى فى هذا العصر) وتحققت نبوءة القيصر ونسى الناس كل شئ عن حكومة روسيا القيصرية وكتب للخاتم الخلود ..

احتفلت مدينة (فرسوفيا) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية باعادة دفن قلب الموسيقار العظيم وكان محفوظا فى صندوق صغير حرصوا على اخفائه عند الاحتلال النازى واعادوه فى احتفال مهيب الى مكانه بعد جلاء النازى عن بولندا .



تشايكوفسكى

تشايكوفسكى ، واسمه الكامل (بيتر أليك تشايكوفسكى) .

ولد عام ١٨٤٠ م ومات وهو فى الثالثة والخمسين من عمره .

يعتبر من أعظم الموسيقيين الروس وقد حقق شهرة عالمية ولاقت مؤلفاته نجاحا كبيرا فى الشرق والغرب للون العاطفى الشرقى الذى كانت تتميز به .

وكان يعشق النغمات الشرقية وسيطرت نغمتا النهاوند والحجاز كاركرد على أغلب مؤلفاته التى كان يبدؤها بما يسمى فى الموسيقى الأفرنجيه (الصول مينور) .

استعان كثير من المخرجين العرب بمؤلفاته الموسيقية لعمل الموسيقى التصويرية فى الأفلام العربية وكانوا ومازالوا يستعملونها بلا تمييز وفى جرأة غريبة جعلت من سماع موسيقى بعض هذه الأفلام فضيحة مضحكة فى الأوساط الغربية التى تعرف موسيقى (تشايكوفسكى) حق المعرفة .

سطا على موسيقاه أيضا عدد غير قليل من الموسيقيين فى الغرب والشرق .

لم تظهر عبقريته فى الموسيقى الا وهو فى الثالثة والعشرين من عمره عندما كان يعمل بوزارة العدل .. ولما أراد أن يتتلمذ على أحد الأساتذة لم يعترف هذا الأستاذ بعبقريته ونصحه بالعودة الى وظيفته . ولكن (تشايكوفسكى) شق طريقه وأصبح أستاذا للمعهد الموسيقى العالى فى موسكو .

وكان للحب أثر كبير فى حياة (تشايكوفسكى) ولكنه كان حبا عذريا ، وروحانيا

.. ومع ان هذا النوع من الحب ، كان يعتبر خرافة أو شيئا لا وجود له الا فى أخيلة الشعراء ، فان (ناجدا فون مك) التى كان (تشايكوفسكى) يحبها قد فرضت عليه هذا الحب العذرى النادر بايمانها العجيب بأن الحب ، أسمى وأرفع كثيرا من أن ينتهى بالزواج الذى عرضه عليها عدة مرات .. فكان عفاف (ناجدا) وحرصها على الترفع عن مباذل الحب ، بمفهومه المألوف من أهم الحوافز التى حققت لهذا الموسيقار ، ذلك الابداع الفنى الذى بلغ به قمة الشهرة ، وضمن لموسيقاه أن تعيش فى جميع أنحاء العالم ، ومنه الاتحاد السوفيتى الذى نعلم أنه يرفض كل ما عرفته روسيا القيصرية من أمجاد ، فى الأدب والموسيقى وحتى فى فن الهندسة والإعمار ، اذ يصر الشيوعيون اليوم على هدم جميع المبانى الأثرية القديمة ، والغرض هو غسل ادمغة الشعب الروسى ، من كل أثر لماضيه وتاريخه ..

والعجيب فى قصة حب (ناجدا فون مك) .. انها كانت هى التى تمده بالمال ، اذ خصصت له راتبا سنويا يبلغ ما يساوى خمسة آلاف دولار (وهو مبلغ كبير بالنسبة لذلك الزمان) وفى أيام مرضه أو توعك صحته ، كانت (ناجدا) .. تسهر عليه ، وتبيت فى غرفة أخرى وتشعره بمعنى للحب يجعله يرى فيها أختا ، لا حبيبة أو عشيقة ..

وفجعت (ناجدا) فى (تشايكوفسكى) حين تزوج فتاة حسناء ، اذ لم يكن يدور فى خلدها أن يرى فى الدنيا أجمل منها وقد كانت رائعة الجمال .. فهجرته وقاطعته تماما وساءت عشرة (تشايكوفسكى) مع زوجته ، اذ أثقلته بمطالبها ، وتورط فى أزمة مالية طاحنة وسمعت (ناجدا) بما آل اليه حاله ، فانجدته بمبلغ كبير ، تخلص به من أزمته ولكنها أصرت على رفض كل توسلاته بأن تمن عليه بلقاء ، ولو للحظة واحدة ..

وقد ندم الموسيقار الكبير أشد الندم على ما بدر منه .. وعصف به الحزن والأسى وظل يعيش مأساة حرمانه منها ، الى أن قضى نحبه وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ..

وتنتهى هذه المأساة ، نهاية رائعة .. اذ سمعت (ناجدا) بموت (تشايكوفسكى) فداهمها حزن قاهر ، وانقطعت عن الناس ، وماتت بعده بخمسة شهور .. وكانت آخر كلمة فاهت بها ، هى (تشايكوفسكى) ..

موزارت

كان أبوه موسيقارا ، ومدرسا للموسيقى ، وعازفا ممتازا على الكمان ، اهلته براعته للعمل كعازف ، فى ابرشية سالزبيرج فى النمسا ، وقد رزق من زوجته أنا ماريا سبعة أطفال بين ذكور واناث ، مات خمسة منهم اطفالا ، ولم يعش سوى ابنه (موزارت) وابنته (ماريا) .. واذا كان الابن قد حظى بكل حجم الشهرة التى اضفتها عليه عبقريته التى جعلت تتفتح وتنمو منذ نعومة اظفاره ، فان اخته (ماريا) لم تكن تتخلف عنه كثيرا ، وعلى الأخص حين كانت براعتهما معا ، اعجوبة مذهلة يزيد فى احتدام الاعجاب بها انهما لم يكونا اكثر من طفلين .. وكان أول المأخوذين بنموهما المبكر أباهما (ليو بارد موزارت) ، الى حد حفزه الى أن يقدمهما الى البلاط الملكى فى ميونيخ .

****

اما ان موزارت ، كان اعجوبة ، ومخلوقا خارقا للعادة ، فحقيقة لم تذهل الأب ، ومن حوله من اصدقائه وزملائه فحسب ، وانما هى ما تزال حتى اليوم تذهل كل من يحاول ان يتصور طفلا فى الرابعة من عمره ، يحاول أن يؤلف مقطوعات موسيقية ، ثم حين يبلغ السادسة من العمر ، يعزف على البيان القيثارى ببراعة خارقة للمألوف ، ليس فقط بالنسبة لمن هم فى سنه ، وانما بالنسبة للمهرة من كبار العازفين ..

واما ان هذا العبقرى الفلتة قد وجد فى الحياة ، كفاء عبقريته ، رخاء فى العيش

ودعة فى درب المسيرة ، ونجاة من الصخور والأشواك ، فهو ما يضعنا امام واقع يكشر عن توحشه وصفاقته اذ يؤكد لنا ، عجز الحياة السرمدى عن التفاعل والقدرة على الرقى الى الذرى السامقة التى يحلق فيها الفن والجمال ..

****

كان فى الرابعة يحاول أن يؤلف مقطوعاته الخاصة ، وكان فى السادسة يبز ابرع العازفين على البيان القيثارى ، وكان مع اخته (ماريا) ثنائيا نادرا فى تاريخ الفن .. عزفا فى بلاط ميونيخ ، ثم اعتليا المنصة فى بلاط امبراطور النمسا ، فيسمعهما الامبراطور وتسمعهما الامبراطورة ، ويصفقان لهما مع اكابر رجال الدولة فى فينا مما كان خليقا بان يفسح لهما المجال ، بل ولأسرتهما كلها الى الثروة والجاه ، الى جانب الشهرة وذيوع الصيت .. ولكن ما اشد ما تتمزق مشاعر الفنان وأحاسيسه !وما اشد ما يتفجر به وجدانه من حريق الحسرة ! وهو لا يرى غير مخالب العوز والفاقة تنهش وتذرو مع الرياح السافية كل امل فى السعادة والاستقرار.

****

والذين أرخوا سيرة حياة موزارت ، لا يعفون اباه من بعض اللوم ، اذ يأخذون عليه أنه ما كاد يرى نبوغ ابنه الطفل ، حتى أخذ يستغل هذا النبوغ ليس بدافع الاعجاب به والفخر بعبقريته ، وانما بدافع استثمار الظاهرة التى ادرك انها سبيله الى ما كان يحتاجه من المال .. فقد كان يجدر به ان يتعهد موهبة ابنه وبنته بالرعاية والحنان ، وان يوفر لهما ما تحتاجه الطفولة من الاهتمام بالتربية والنمو الى جانب افساح المجال وتهيئة الظروف التى تساعد على تكامل التكوين الفنى ونضوجه فى فسحة من الزمن تتناسب مع السن الغضة ، والبنية الهشة ، ولكنه عوضا عن كل ذلك ، اندفع يلتمس الوسائل إلى عرض الظاهرة ، فى طول اوروبا وعرضها يتنقل مع الطفلين من بلد الى بلد ومن قصر الى قصر ، حيث تلتهب اكف النظارة والمستمعين بالتصفيق ، كما يلتهب امل الأب فى الثراء الذى لم يتحقق قط ، اذ لم يكن العرض بالنسبة لمن يشاهدونه من الأمراء والألمان يستحق اكثر من هذا التصفيق ، ينتهى بوجبة لعشاء على الموائد

الفاخرة . وليس بعد ذلك . غير الكثير من كلمات الاستحسان والاعجاب .

****

ومع هذا الترحال المتواصل . ومشاقه في الطرق الوعرة . بين كل مدينة وأخرى . كان الطبيعي أن يتوقف عطاء العبقرية البكر . أو ان تتوقف حوافز الابداع في نفس الموسيقار الصغير ولكن يبدو أن العبقرية هبة ونفحة تتجاوز كل المعوقات . فلا سبيل الى أن يعطل تدفقها ما يعترض سبيلها من الصخور والأشواك .. وهكذا كان موزارت . أعجوبة انسانية . في طفولته وشبابه على السواء . اعجوبة لم تعترف قط بالحواجز التي ظلت تطوق حياته . فلا الفقر . الى حد الجوع . ولا عدم الاستقرار . ولا جفاف العاطفة التي ترعاه . استطاع أن يحول دون مواصلة ابداعه . في اعمال موسيقية ظلت تتضخم وتتنوع . لتضارع كبريات الأعمال التي قدمها الكبار قبله . وفي عصره . وفي مقدمتهم (هايدن) .. وباخ . وكل منهما كان قمة من القمم الشامخة في أوروبا .

****

هايدن .. الذي كان موزارت . لا يخفي تقديره له وتأثره بفنه . لم يجد غضاضة في أن يقول لوالد موزارت (ليوبولد) .. (اني لأشهد امام الله . وكرجل شريف ان ابنك . هو أعظم مؤلف عرفته شخصيا أو سمعت عنه .. عنده الذوق الفني . وفوق ذلك . عنده اعمق المعلومات عن الفن ..) .. ولئن كانت هذه شهادة استاذ طار صيته في أوروبا . فان ما هو أعجب من هذه الشهادة . ان هذا الأستاذ . قد تأثر بفن موزارت . اذ يقول النقاد ان اكثر من رباعية (كارتيت) من رباعياته . ظهر فيها تأثير موزارت الى حد بعيد .

****

واذا كان اعجاب هايدن وتأثره بفن موزارت يمكن أن يعلل بالصلة التي كانت قائمة بينهما . فان صف العباقرة الكبار الذين جاءوا بعده . وما يزالون حتى اليوم يحتلون مقاعد العمالقة في تاريخ الفن . لم ينكروا تأثرهم بالموسيقار العبقري اذ نجد بيتهوفن

نفسه يدرس مؤلفات موزارت ، ونسمع النقاد يؤكدون أن شوبان كان متأثرا فى أعماله بأعمال موزارت .. حتى لقد طلب وهو على فراش الموت ، أن يعزفوا له مقطوعة من موسيقى موزارت .. وحتى براهمس نقل عنه أنه قال : (موزارت .. ذلك العملاق الذى لا ينسى ..) وحتى فاغنر ، وهو من عرف بالشموخ والاستعلاء والغرور ، لم يملك الا أن يحنى رأسه إجلالا للانسان الذى « خلق للموسيقى » .

****

كان فى تجواله على الطرق الوعرة . وفى العربة تجرها الخيل ، وفيها الى جانبه أبوه وأمه ، واخته الموهوبة مثله ، يستغرق فى الألحان التى يضعها ، وهو يربت باناملها على ركبته ، فلا يكاد يستكمل اللحن الذى يعالجه حتى يسرع الى تدوينه فى أى قصاصة تتيسر من الورق يدسها فى جيبه ، ليعود اليها وهو يكتب مراحل العمل الموسيقى الضخم الذى يؤديه فى الحفلات التى تقام للاستماع اليه .

****

وقد كان موزارت ، محظوظا ، اذا كان حظ الفنان ان يصغى اليه الملوك فى قصورهم ، فقد أصغى اليه عدد من الأباطره والملوك ، اذ عزف أو قاد اوركستراه ، فى قصور فرساى وبيكينجهام وفينا وهولندا ..

ولكن لا نجد صورة لسوء الحظ ، ابشع من ان يأمر امبراطور النمسا اجراءه بأن يخرجوه وهم يركلونه بالأقدام ، وهذا بدلا من ان يمنحه اسمى مراتب الرفعة فى الوظائف الموسيقية فى بلده .. والسبب هو وشايات حساد الموسيقار الشاب وسرقاتهم لمقطوعاته واعماله ..

****

وقد احب موزارت احدى فتيات اربع عرفن بالجمال من أسرة من الموسيقيين .. احب لويزيا ، وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ، ورغم وعدها بأن تنتظر عودته من باريس التى يرحل اليها بحثا عن المال ، فقد عاد ليجدها قد تزوجت واصبحت مغنية فى الأوبرا .. فتزوج اختها التى تصغرها بسنتين (كونستانز) .. واستطاعت هذه ان تجمع

أشلاء القلب الذى حطمته اختها .. كانت شقراء صغيرة عذبة الصوت ، مرحة ولكنها كانت ابعد ما تكون عن معرفة الشؤون المنزلية أو تدبير المشاكل المالية .. وتوالى انجابها للأطفال .. (توالى الفاقة والعوز ، وعجزه عن ان يوفر لها الحياة التى تعيد الابتسامة الحلوة الى وجهها الجميل) ..

****

ولنتصور ، شقاء العيش الذى ظل يعانيه الموسيقار العبقرى ، مع زوجته واطفاله الذين كانوا يموتون احيانا فى اللحظة التى يولدون فيها ، يكفى أن نذكر انه كان يؤلف اروع مقطوعاته واعماله ، ليقيم حفلات تدر عليه بعض المال ليؤدى ما عليه للجزار ، وليتفادى اصرار العمدة على الخروج بقطع الأثاث لتسديد ما تراكم عليه من الديون .. بل يكفى أن نذكر انه كان يعجز عن شراء ما يحتاج اليه من الوقود للتدفئة فى الشتاء القارس ، فتكون مشكلته الكبرى ، فى تدفئة اصابعه التى يعزف بها تمارين موسيقاه .. وليس ابشع من صورهذا الشقاء المرير ، الا صورة أخرى ، هى ان السمار والساهرين فى فينا ، كانوا يتندرون ويتفكهون ، بأن أحدهم قد دخل على موزارت فى منزله فوجده ، يرقص مع زوجته الشابة ، لا لأنهما كانا يقضيان ساعة مرح وسعادة وإنما لكى يبعثا الدفء فى جسديهما اذ كاد البرد يقتلهما فانطلقا يرقصان الى أن جاءهما الصديق الذى رآهما على هذه الحال ببعض الوقود .

****

الأعمال الموسيقية الضخمة التى وضعها موزارت ، تحتاج وحدها الى كتاب ، أو إلى موسيقار يدرسها ويحللها ، ويعرف مكامن الجمال والروعة فيها .. هناك الكثير من الأعمال التى تعرف فى الموسيقى الغربية بـ (الأوبرا) .. ومنها اوبرا (دون جوان) التى فرغ من كتابة (افتتاحيتها) قبيل رفع الستار فى براغ .. وقد استطاع العازفون ان يؤدوها أداء متقنا رغم انهم لم يتمرنوا عليها الا فى اللحظة التى وضعها موزارت امامهم ، ومدادها لم يجف بعد .. وقد بلغ من اعجاب النظارة بها ان استعادوا بعض المقاطع عدة مرات فى تصفيق حاد متواصل .. وقد انقذت عوائد الحفلة صاحب الدار

من افلاس محقق .. اما موزارت ، صاحب هذه الأوبرا ، وقائد الأوركسترا ، والذى صفق له المعجبون واستعادوا بعض مقاطعها عدة مرات بحيث استمرت الحفلة ست ساعات بدلا من ثلاث ، موزارت هذا ، لم يأخذ الا مبلغا ضئيلا تافها ، لعله لم يساعده على الانفاق على أسرته اكثر من ثلاثة أيام ..

****

عندما توفى موزارت ، كان قد بلغ الخامسة والثلاثين من العمر .. وقبل وفاته بسنة واحدة وعلى فراش مرضه وضع أوبرا بعنوان (الناى السحرى) .. واخرجها احد المحتالين على مسرح متداع فى حى من الأحياء الفقيرة .. وكان هذا جديرا بأن يغمر الأوبرا بحيث لا يلتفت اليها أحد .. ولكنها سرعان ما اشتهرت ، وتناقل المجتمع أخبارها ، فخف الناس لمشاهدتها وبلغ من نجاحها والاقبال عليها ، ان المخرج استطاع ان يشيد من دخلها مسرحا جديدا .. وكالعادة كان نصيب موزارت من هذا النجاح والمال الذى تدفق على المخرج مبلغا ضئيلا انفقه على العلاج من التيفوئيد الذى حال دون حضوره اخراج عمله العظيم .

****

حياة موزارت منذ ولد الى يوم موته تراجيديا انسانية يقل نظيرها حتى فيما تخيله كبار كتاب التراجيديا فى التاريخ .. وكان موته هو القمة فى عنف هذه التراجيديا...قالوا: ان احدهم فى فينا ، بعث يطلب منه ان يضع لحنا جنائزيا خاصا .. لم يستطع موزارت ان يضعه بالسرعة التى طلبها الرجل ، فظل يبعث اليه رسوله يستعجله وضع اللحن ..

واحس موزارت فى مرضه الأخير ان اللحن ينعيه هو ويرثيه هو شخصيا ، فوضع اللحن الحزين الذى يقول النقاد ان الحزن فيه يصل الى أعمق ما فى القلب من مشاعر الشوق والفراق .

ومات موزارت ، وهو يترنم بمقطع من هذا اللحن ، وكان حول سريره أربعة فقط هم أصدقاؤه .. وحين قضى نُحبه ، كان نواح العاصفة ينذر بعنفها .. واذ شرعوا بالسير نحو المقبرة ، انفلتت العاصفة من معقلها مجنونة صاخبة .. فاضطر الأربعة ان يتركوا العربة

التى تحمل جثمان موزارت الى المقبرة دون ان يشيعها احد .. ودفن العبقرى الكبير بين بقايا متعفنة لمجهولين من متشردين ولصوص واوغاد ..

مات العبقرى .. وهكذا دفن .. وما يزال العالم حتى اليوم ، يعزف أعماله ويصغى اليها وينسى الذين يصفقون له أنه لم يجد حتى الحفرة التى يدفن فيها كانسان ..



موسيقار الأندلس .. زرياب

الظاهرة التى نواجهها فى سير الكثيرين من اعلام العلم والأدب والفن فى تراثنا العربى ، هى الاختلاف فى تاريخ المولد ، وفى تاريخ الوفاة الى جانب الاختلاف احيانا فى صحة النسب :

ولا ندرى كيف يتفق ان تتوطد للعلم من هؤلاء الاعلام تلك الشهرة التى تتناقل اخبارها مختلف المراجع ، وذلك الصيت الذى يبعد ويترامى فيقال ان ما شهر به العلم قد ملأ سمع الدنيا وبصرها ، ثم لا نجد من اخبار مولده ونشأته وصحة نسبه الا النتف واللمح التى لا تسعف على الاستقرار على شىء من يقين .

ظاهرة غريبة لا نجدها فى تراث الأمم الأخرى ، والغربية منها على الأخص ، ولئن دلت على شىء فعلى ان روايات الرواة التى سبقت التدوين ، واعتماد هؤلاء الرواة على الذاكرة التى لا تعنى بالشخصية بقدر ما تعنى بعطائها ، هى السبب فى تناقض واختلاف الأخبار عنها مولدا ووفاة ونشأة وتفاصيل حياة .

وتواجهنا هذه الظاهرة حين نتتبع موسيقار الأندلس واستاذ آداب المعاشرة والاستقبال والضيافة مما يسمى (الأتيكيت) اليوم . اذ نرى هذه الأخبار تملأ صفحات من تاريخ تطور الموسيقى العربية فى الأندلس ، وفى بلاط عبد الرحمن الناصر على الأخص ثم حين نحاول ان نجد شيئا من يقين عن تاريخ مولده وعن أصله ونسبه ، بل وحتى عن تاريخ وفاته ، لا نجد الا نتفا هنا وهناك ليس فيها غناء .

وأول ما نجد اسم (زرياب) فى الاغانى . ولكنا نجد الاسم لمغنية غنت شعرا للخليفة العباسى (عبد الله بن المعتز) الذى قالوا انه لم يهنأ بالخلافة الا يوما او بعض يوم . لأن حرفة الأدب قد أدركته.. ولا يقول لنا ابو الفرج عن زرياب هذه شيئا أكثر من انها غنت ابياتا لابن المعتز . اذ كانت واحدة من جواريه اللائى كن يجدن الغناء .. ونستنتج من هذا . ان (زرياب) اسم من الأسماء الأعجميه التى يشترك فى التسمى بها (الذكور والاناث) .

****

فاذا جئنا الى مصادر التراث العربى فى الأندلس . والى ما حفلت به هذه المصادر من اخبار الشعر والموسيقى . واخبار الترف والسرف واخبار ما تفتح عنه هذا الترف والسرف من فن وفتنة وجمال ودلال . فاننا نجد الأخبار عن زرياب تقول:إنه كان تلميذا لاسحاق بن ابراهيم الموصلى . ذلك الموسيقار الذى يقول عنه صاحب الأغاني :

(موضعه من العلم . ومكانه من الأدب . ومحله من الرواية . وتقدمه فى الشعر ومنزلته فى سائر المحاسن اشهر من ان يدل عليه بوصف .. واما الغناء فكان اصغر علومه وادنى ما يوسم به . وان كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه .. فانه كان له فى سائر ادواته نظراء واكفاء .. ولم يكن له فى هذا نظير .. فانه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى .. فهو امام أهل صناعته جميعا ورأسهم ومعلمهم .)

والذى بلغ من رفعة شأنه . وحفاوة العصر به . ان يكون من الخواص فى مجالس خلفاء بنى العباس . بدءا بهارون الرشيد . وانتهاء عند المتوكل .

ورغم ما توسع فيه ابو الفرج وافاض من اخبار اسحاق . فاننا لا نجد لزرياب خبرا يذكره بين من ذكرهم من الشعراء والمغنين . سواء منهم من كان معروفا تشهده مجالس الخلفاء . او من يطرأ منهم عابرا فى حياته الحافلة بالمعجبين والمنافسين والحاسدين من عشاق الموسيقى والشعر والغناء .

ومع ذلك فلا نكاد نمضى طويلا فى تاريخ فترة الازدهار فى الأندلس حتى نجد من يروى هذه القصة عن السبب الذى حمل زريابا على الهجرة من بغداد الى الأندلس :

****

كانت شهرة اسحاق قد طارت فى الآفاق ، اكثر مما طارت شهـرة ابيه ابـراهيم الموصلى ، وكانت داره اشبه بمدرسة للموسيقى ، يعهد اليه فيها بتلقين جوارى الوجهاء فن الغناء والضرب على العود ، وكأنه اعجب باحد تلاميذه اعجابا جعله يفخر به ، ويرى فيه المع تلاميذه ، فأحب ان يقدمه الى الرشيد كنموذج لما استطاع ان يحققه من قدرة على تعليم الفن .

ونرى اسحاق يصحب (زرياب) الى مجلس الرشيد ، فاذا سأله الخليفة عما لديه نسمعه يقول :

إننى أستطيع الغناء كما يستطيعه الآخرون .. ولكنى امتاز بما لا يستطيعه احد سواى . فاذا اذنت لى يا مولاى غنيت ما لم يغنه احد من قبل .

اليك عودى ، فاعزف عليه .

ولكن (زرياب) ، يفاجئ أستاذه فيقول موجها خطابه الى الخليفة :

ان شاء مولاى معرفة نوع الغناء الذى لم يغنه احد من قبل فيجب ان اعزف على عودى الذى صنعته بيدى .

ويأذن له الخليفة ، فيحضر عوده ويعزف عليه قصيدة من شعره .

ويسر الخليفة ويطرب ، بالشعر والغناء والعزف ، ويبدو منه أنه لا يرى ما يمنع ان يسمعه مرة أخرى ومرات ..

ولكن اسحاق كان له موقف آخر .. اذ ما كاد يغادر المجلس مع تلميذه حتى صاح فيه : (لقد حاولت النيل منى عند الخليفة .. وعليك الآن ان ترحل من بغداد ، فاعطيك ما تشاء من مال .. وان لم ترحل ، فاحذر ما يحيق بك من خطر على حياتك ومالك .)

وفى قصة عن هجرته عن بغداد الى الأندلس ، نجده لا يكاد يصل قرطبه حتى

يفاجأ بوفاة الحكم ، فيعتزم العودة الى شمال افريقية وقبل ان يشد رحاله يوافيه رسول عبد الرحمن الثانى يدعوه للمثول بين يدى الخليفة .

ويمثل زرياب بين يدى الخليفة بعد ان يستريح من وعثاء السفر ، ويغنى اغانيه ، ويعزف على عوده ، فاذا به يحظى بمكانة عالية لعلها لا تقل ان لم تزد على مكانة استاذه اسحاق فى مجلس الخليفة فى بغداد .

******

وما نجده من اخبار زرياب فى الأندلس ، يقول لنا انه لم يكن موسيقارا او مغنيا او استاذا فى الموسيقى والغناء فحسب ، وانما كان عالما بالفلك والجغرافيا لماحا عالى الفطنه والذكاء ، متفننا فى الحديث ، حاضر البديهة ، قادرا على الفكاهة والايناس ..

وكل هذا قد لا يتفرد فيه زرياب عن غيره من المغنين والظرفاء ، ولكن ما يتفرد به حقا ، فى الأندلس وفى غيرها ، هو أنه لم يستهو افئدة اهل قرطبة بصوته وجمال اغانيه فحسب ، وانما بادابه الاجتماعية ، وملابسه وطريقته فى ارسال شعره ، وولائمه البديعة التى كان يتفنن فى ترتيبها .. بحيث شرع الناس يأخذون عنه ذلك ، واصبح ذوقه مقياس اهل الذوق فى قرطبة ، واصبحت الأزياء التى تشاهد عليه هى الأزياء التى يقلده فيها المترفون والوجهاء .

******

وقد بلغ من تفوق زرياب فى الموسيقى والغناء ، أنه كان يدعى ، وكان النـاس يصدقون ، ان (الجن) كانت تعلمه كل ليلة انغامه واصواته الجديدة .. اذ كان يهب من نومه مسرعا ويدعو جاريتيه (غزلان) و (هنيدة) ، فتأخذ كل منهما عودها ، ويأخذ هو عوده ، ويأخذ فى ترخيم الصوت الذى يبتكره ويضع له الأصول وطريقة الأداء والعزف .

******

وزرياب هو الذى اضاف الى العود (الوتر الخامس) .. اذ كان الى ايامه اربعة اوتار فحسب .

قالوا ان هذه الأوتار الأربعة تقابل الطبائع البشرية الأربع فأضاف اليها زرياب الوتر الخامس الذى يقوم مقام (النفس من الجسد) .

وهو أيضا الذى اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، معتاضا بها من مرهف الخشب ـ فابدع فى ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه .

******

وكان زرياب الى هذا كله شاعرا مجيدا .. متضلعا فى السياسة والتنجيم ، وذكروا انه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة سن الأغانى بالحانها .

وهو الذى ادخل الى الأندلس وضع الألحان على طريقة اهل الموصل فغلبت على طريقة اهل الحجاز التى كان الناس لا يعرفون سواها فى الأندلس .

وكما كانت لأستاذه اسحاق بن ابراهيم الموصلى ، تلك المدرسة فى بغداد أصبحت لزرياب مدرسته فى الأندلس ، وفى مقدمة تلاميذه فيها ابناؤه وبناته ، وجارية له اسمها (متعة) . وممن برعن من تلميذاته ، جارية .. يروى ان الشاعر عمر بن عبد ربه ، كان يمر بقصر مولاها ذات ليلة فاستوقفه صوتها وغناؤها ، فوقف يصغى اليها عند باب القصر .. فلمحه سيد القصر ، فدلق على رأسه ماء او سائلا قذرا .. فكتب اليه صاحب العقد الفريد :

يا من يضـــن بصـــوت الطائـــر الغرد	ما كنت احسـب هذا الضـن من أحد
لو ان اسماع أهـــل الأرض قاطبة	اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

******

عرف الناس مكانة زرياب المرموقه لدى عبد الرحمن الثانى (او الأوسط) فلجأوا اليه بامانيهم ، يقدمها ويتوسط لهم ، فيقضى لهم من الحوائج ما لا ينقضى الا بوساطة المقربين من السلطان ..

******

كل هذه المعلومات عن زرياب ، ولكن لا شئ ذا غنى عن مولده ، ولا عن المرحلة

من عمره قبل ان يتتلمذ على اسحاق بن ابراهيم الموصلى فى بغداد .. وحتى القصة التى تعلل لهجرته من بغداد الى الأندلس . لا نجد لها أصلا عند أبى الفرج وهو الذى لم يترك شاردة ولا واردة عن اسحاق وعن (ابيه ابراهيم) الا ذكرها وعلق عليها مدعمة باسانيده من الرواة .

وزرياب هو لقب هذا الموسيقار . اما اسمه (فعلى بن نافع) وكنيته (ابو الحسن) ، ومعنى زرياب فى اللغة الفارسية (ماء الذهب) . وقالوا إنه طائر اسود غرد او هو الطائر شديد السواد . وهناك خبر يقول إنه كردى الأصل . وانه كان مولى من موالى المهدى .

ومن هذه النتف لنا ان نظن أنه ان لم يكن كرديا فهو فارسى . وان كان لا يتفق ان نجد بين الأكراد والفرس . من يشتد سواد بشرتهم الى حد تسمية احدهم (زرياب) . ولذلك فالأرجح ان يكون من مواليد الرقيق الأسود فى فارس او فى كردستان .

وكما نواجه هذا الغموض التقليدى فى تاريخ مولده ونشأته قبل ان يتتلمذ على اسحاق بن ابراهيم الموصلى فاننا نواجه نفس الغموض عن نهايته .. بل لا ندرى الى ماذا انتهى مصيره بعد تلك الرفعة التى احاطه بها قصر عبد الرحمان الثانى . وان كان هناك من يقول إن أولاده وبناته ظلوا يتمتعون بشهرة واسعة كمغنين وموسيقيين .



نجيب الريحاني

نجيب الريحانى .. بالنسبة للعالم العربى ، هو .. (موليير) بالنسبة لتاريخ الكوميديا فى فرنسا ومع ان مسرح نجيب الريحانى مايزال موجودا ، وكثيرا من مسرحياته قام بتمثيلها من خلفوه فى أدواره ، وفى مقدمة هؤلاء عادل خيرى (وأحمد عبد العزيز) ، وعباس فارس ، فان جمهور نجيب الريحانى الذى شهدوه على المسرح ، لا يستطيعون أن يشعروا بما كان يتمتع به نجيب من موهبة فى الكوميديا ، تعتبر عبقرية بحق .

ولد نجيب الريحانى عام ١٨٩١م وتوفى عام ١٩٤٩م .: وكان مشهد تشييعه الى مقره الأخير من أروع ما شهدته القاهرة من أمثال هذه المشاهد بالنسبة لكثير من العظماء الذين عاشوا حياة ضخمة جمعت حولهم المعجبين بمختلف طبقاتهم . اذ كان يمشى فى موكب جنازته ألوف من سكان القاهرة ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا ، بل وأطفالا أيضا .. وليس بينهم الا من يذرف الدموع حزنا على فقده .. بل لقد قيل إن الذين لم يمشوا فى جنازته ، وسمعوا بوفاته بكوه وكأنه عضو فى الأسرة أو قريب من الأقرباء .

وتلك دون شك ذروة الشهرة والمجد التى لم يكن ليتسنمهارجل وجد فى تاريخ مصر من ينظر الى مهنته وهى « التمثيل » نظرة امتهان وازدراء ، يحرص على الابتعاد عنها كل من يريد لنفسه مكانة مرموقة بين الأسر أو فى المجتمع بوجه عام .

ونجيب الريحانى .. يعتبر فى الواقع تلميذا (لعزيز عيد) الذى يأخذ عليه نقاد

المسرح المصرى أنه كان يحرص على أن يقوم بدور البطولة حتى ولو كان الدور لا يتفق مع طبيعة قدرته على أدائه .

وقد بدأ نجيب الريحانى حياته موظفا حكوميا ، ثم موظفا فى هذه الشركة أو تلك من الشركات والمؤسسات التجارية فى مصر .. ويحكى أنه ـ حتى عندما كان موظفا ـ لم يكن يملك الا أن يمثل شخصية يبتكرها أو يجد نموذجا بين الموظفين من زملائه ، فيمثلها تمثيلا كوميديا يثير عاصفة من الضحك التى كثيرا ما استلزمت تدخل المدير أمرا بمنع تكرر ماكانوا يسمونه مهزلة لا تليق بوقار المكانة التى تتمتع بها الشركة أو الادارة .

وقد بدأ نجيب الريحانى عمله كممثل أو (مشخصاتى) كما كان يسمى فى ذلك الوقت ،فى عام ١٩١٤ م ،وبطبيعة الحال ، كان عليه أن يبدأ من السفح ، فالتحق بفرقة سلامه حجازى ، ثم بفرقة جورج أبيض ، ثم عاد فالتحق بفرقة عزيز عيد الذى كان الريحانى لا ينكر أستاذيته .

وفى أيام الحرب العالمية الأولى بدأ نجيب الريحانى يتأرجح بين مختلف ملاهى القاهرة ، ليس كممثل مشهور وانما كفرد من أفراد ما يسمى (الكومبارس) أى الشخصيات التكميلية فى العمل الدرامى .

ولكننا نجد أيضا أن نجيب الريحانى قد عمل مع ساره برنار ، وغيرها من كبار الممثلين والممثلات الفرنسيات ، وليس لدينا من المصادر ما نعرف به كيف استطاع الريحانى أن يصل الى العمل مع هذه القمم الشامخة من كواكب المسرح الفرنسى ، ويبدو أن الفرصة التى أتيحت له للعمل مع هؤلاء قد أغرته بالسفر الى فرنسا حيث أقام فيها وقتا ظل يشهد خلاله ما يقدم على المسرح الفرنسى ، من روائع موليير ، ولذلك فانه عندما عاد الى القاهرة بدأ يقتبس مسرحيات موليير و(مارسل باجنول) ، ولكن اقتباسه عن هذين وعن غيرهما كان يمتاز بالحرص على التمصير بحيث كانت الشخصيات التى تظهر على مسرحه تبدو وكأنها مصرية صميمه .. وكأن الأحداث نفسها من مألوف البيئة المصرية .

وبعد مرحلة الاقتباس هذه بدأ نجيب الريحانى يكتب مسرحيات من تأليفه تنتزع

شخصياتها وأحداثها من مصر ، وكانت الشخصية التى ملأت حياة المصريين مرحا واجتذبتهم الى مسرح الريحانى .. هى شخصية (كش كش بيك) التى كان يقوم بدورها الريحانى نفسه . وشخصية (كش كش بيك) هذه تمثل العمده المصرى الذى كان يدخل فى مغامرات ومواقف فيها السخرية الى جانب النقد اللاذع لما فى المجتمع من عيوب وتناقض ومفارقات .

وعلى الرغم مما كان يتمتع به الريحانى من قدرة على كتابة المسرحية الكوميدية ، فقد كان يتعذر أن يكتب مسرحيات مصرية صميمة على طول المدى ، ولذلك فقد كان يقتبس من المسرح الفرنسى الكثير مما يكتبه كتاب فرنسا فى الفترة بعد الحرب العالمية الأولى الى الحرب العالمية الثانية ، ولكنه ظل حريصا على التمصير الذى امتاز به ، بحيث لم يكن يشك من يشهد مسرحياته أنها مصرية أصيلة .. وكان ما يساعده على هذا التمصير هو دراسته الدقيقة والعميقة لطبيعة المجتمع المصرى ، ليس فقط للطبقات القروية أو الشعبية وانما للطبقات الراقية أيضا .

ومع ان كثيرا من المسرحيات التى ظهرت للريحانى تعتبر من انتاجه فان مما لم يكن ينكره هو نفسه أنه كان يوحى بالفكرة ويترك التفاصيل كلها لبديع خيرى الذى ظل يزامله طيلة حياته ، ثم ظل يكتب بروحه بعد وفاته حين أخذ عادل خيرى (وهو ابن بديع خيرى) يمثل أدوار الريحانى .

من أشهر مسرحيات الريحانى .. (حسن .. ومرقص .. وكوهين) و (ثلاثين يوم فى السجن) و (الستات لما يكدبوا) .

وبظهور السينما فى مصر .. ظهرت للريحانى أفلام تخلى فيها عن الممثلتين اللتين ظلتا تمثلان معه على المسرح منذ بدأ الى أن انتهى وهما (ميمى شكيب وأختها زوزو شكيب) ولكنه لم يستطع أن يتخلى عن تلك الشخصية المرحه النادرة التى زاملته طول العمر وهى .. (مارى منيب) ومن أشهر أفلامه التى مثلها مع ليلى مراد وأنور وجدى فيلم (غزل البنات) وفى هذا الفيلم غنى نجيب الريحانى أغنيته المشهورة مع ليلى مراد وهى .. (أبجد هوز) .

يوسف وهبي

تاريخ المسرح العربى ، حافل بعدد كبير من الأعلام الذين استطاعوا أن يعطوا التمثيل قيمته وكرامته فى مجتمع كان ينظر اليه ، تلك النظرة الجافية ، التى تضع التمثيل فى مستوى التهريج ، وتضع الممثل فى مستوى (البلياتشو) ، فالمهنة ، مما لا يليق أن تعد فيما يشرف ممتهنها ، ومن يقدم على امتهانها ، هاويا أو محترفا ، إنسان يجفوه المجتمع اذ ليس هو ، أكثر من (مسخصاتى) يرتزق من عمل وضيع .

والأستاذ يوسف وهبى ، يأتى فى رأس قائمة الطليعة من هؤلاء الأعلام .

ولد يوسف وهبى فى أسرة من الطبقات الراقية ، تتمتع بالجاه والثراء ورغد العيش ومع ما كان يتمتع به من الذكاء والمواهب ، التى كان يمكن أن تحقق أمنية أبيه فى أن يراه محاميا كبيرا ، أو طبيبا حاذقا ، فان يوسف وهبى ، قد اتجه منذ صباه الى تعشق فن التمثيل .. فكان التلميذ الذى تعتمد عليه المدرسة ، فى نهاية العام الدراسى لتمثيل بعض الأدوار فى أعمال مسرحية صغيرة يضعها المدرسون ، كما كان يؤدى المونولوجات ، التى يقلد فيها بعض الشخصيات ، وقد امتاز يوسف وهبى ، فى مدرسته بأنه يمثل شخصية (الجندى الجبان) تمثيلا زاخرا بالحيوية والصدق والانفعال .

وبعد أن أتم يوسف وهبى مرحلة متقدمة نسبيا من مراحل الدراسة فى ذلك العهد ، وفى أيام الحرب العالمية الأولى بدأ سلوكه يبدو منحرفا بالنسبة لتقاليد الأسرة والمجتمع ، ثم ما لبث ، هذا السلوك أن بلغ غاية انحرافه عندما اختفى يوسف وهبى

فجأة ، ليظهر فى ايطاليا ، حيث أسعده الحظ بأن يتتلمذ على (تشيانتونى) من اعلام المسرح الايطالى فى ذلك العهد ..

وفى ايطاليا تزوج يوسف وهبى ، زوجته الأولى ، وهى (لويزا لوند) ، احدى مغنيات الأوبرا الايطالية ، وكانت تتمتع بشهرة واسعة فى أوساط الفن .

وعاد يوسف وهبى الى مصر بعد وفاة والده . وبالارث الضخم الذى خصه من تركة والده ، أقدم على تنفيذ مشروعه الحالم الكبير ، وهو (تطوير المسرح المصرى) ، وذلك بتأسيس مسرح وفرقة (رمسيس) فى عام ١٩٢٣ م .وهى الفرقة التى استطاعت أن تجتذب اهتمام الجمهور ، وأن تحقق شهرة واسعة ، ليس فى مصر وبالنسبة للمصريين فحسب وانما بالنسبة للعالم العربى كله ، وقد كانت القاهرة ، كما ظلت طيلة أكثر من أربعة عقود من السنين مركز الاشعاع الفنى الذى تتجه اليه الأنظار فى كل بلد عربى على أوسع نطاق .

وأول مسرحية ، أخرجها ومثلها يوسف وهبى ، هى (مسرحية المجنون) التى ظلت تعرض على مسرح (رمسيس) موسما بكامله وظل الجمهور ، يملأ مقاعد المسرح فى كل عرض .. وبلغ من اعجاب الجمهور بالمسرحية أن أقدمت شركة تسجيل للاسطوانات على تسجيل فقرة من فقرات المسرحية بصوت ممثلها الكبير ، ومما قيل : إن هذه الاسطوانة قد حققت رواجا أكثر من أى أغنية من أغانى مطربى ومطربات تلك الأيام .

ومع ان الاعتقاد السائد ، كان ينسب الى يوسف وهبى ، كتابة تمثيلية المجنون ، التى حققت ذلك النجاح المنقطع النظير ، ورسخت قواعد مسرح (رمسيس) وفرقته ، فان الحقيقة هى أن يوسف وهبى قد اقتبس هذه المسرحية من أحد أفلام السينما الأمريكية ، وقد كان الاقبال على ما يعرض منها لا يزال محدودا ، وبالأخص بين عامة الشعب .

وكانت التمثيلية الثانية التى عرضها (مسرح رمسيس) هى (الشيطان الأسود) التى حضر عرضها الأول عدد من الوزراء والشخصيات البارزة فى المجتمع المصرى ،

مما يعتبر خطوة واسعة فى تغيير نظرة المجتمع الى التمثيل والممثلين والممثلات أيضا .. وقد كانت (فاطمة رشدى) هى الممثلة الأولى الى جانب يوسف وهبى فى كل من المجنون والشيطان الأسود . واذ استطاعت بما حققته من نجاح ، أن تشعر بكيانها وشخصيتها ، انفصلت عن فرقة رمسيس ، لتكون فرقتها الخاصة مع فريق من زملائها فى مسرح رمسيس .

وبخروج فاطمة رشدى على مسرح رمسيس ، وانفصالها عنه وتأسيس فرقتها الخاصة ، وفى محاولة لترميم (الشرخ) الذى أحدثه حرمان رمسيس من ممثلته الأولى ، تعاون يوسف وهبى مع (جورج أبيض) على ما بين الممثلين الكبيرين من اختلاف فى الأسلوب ، وفى المدرسة التى يتبعها كل منهما .. كان جورج أبيض ، ممثل دور عطيل لشيكسبير ، وادوار الشخصيات المسرحية فى أعمال راسين وكورنيه وغيرهما من اعلام المسرح الفرنسى القديم .. وكان يوسف وهبى ، الممثل الذى يقدم الشخصية المنتزعة من صميم الحياة المصرية وان كان الكثير من المسرحيات مقتبسا من المسرح الأوروبى المعاصر .

وكان من أهم المسرحيات التى عرضها مسرح رمسيس وما تزال عالقة بأذهان مرتاديه القدماء رواية (غادة الكاميليا) التى مثلتها (أمينة رزق) وحققت نجاحا فاق نجاح مسرح رمسيس فى مسرحية المجنون ، والشيطان الأسود .

ولعل مما يجهله الكثيرون ، أن يوسف وهبى ، قد طلق زوجته (مغنية الأوبرا الايطالية) ، وتزوج مرة أخرى عام ١٩٣٣ م بسيدة مصرية ثرية ، مولت مشاريعه الفنية بعد اغلاق (مسرح رمسيس) ، ومن هذه المشاريع صالة عرض للسينما وصالة للموسيقى ، واذ لم يحقق أى مشروع من مشاريعه النجاح الذى كان ينتظره ، فقد وجد نفسه مضطرا لقبول رياسة (الفرقة القومية) التى ترعاها الدولة براتب قدره مئة جنيه ، وبنسبة فى الأرباح التى تحققها الفرقة قدرها خمسة وعشرون فى المئة . تخرج منها نسبة مقررة للممثلين والممثلات ..

سيظل الأستاذ يوسف وهبى ذلك العلم الكبير ، من أبطال التطور فى حياة الفن فى

العالم العربى ، والى جهده المتواصل وجهد رصفائـه وايمانهـم بشرف المهنـة التـى تعشقوها . يعود الفضل فى كل ما جد فى حياة العالم العربى من اهتمام بالمسرح ، والسينما ، والتليفزيون ، والاذاعة .. كمصادر للثقافة ومنابع للتوعية والتوجيه .



ليونارد دافنشي

الذين يزورون متحف اللوفر في باريس ، يستوقفهم الكثير من روائع الفن التي ازدحمت بها ابهاؤه ، بل يستوقفهم القصر نفسه ليس بضخامته التي تفوق الوصف فقط ، وانما بما أنفق في تشييده من جهد ، ومال ، وفن هندسى الى جانب ما لا يحصى من فنون الزخرفة والتجميل المترف الغني بالشوارد من الأفكار جادت بها قرائح العديد من كبار الفنانين .

والكثير من روائع الفن في اللوفر ، قد يستوقف الزائر بحيث يتمنى لو تتاح له فرصة التأمل ساعات طويلة يتعمق خلالها تلك المشاعر التي كانت تلهب وجدان الفنان وهو يضرب الوانه هنا وهناك في اللوحات الرائعة التي ربما قضى في رسمها سنوات طويلة .. ولكن ما اعجب ما يستولى عليه من الدهشة والذهول وهو يقف امام رائعة (ليوناردو دافيشى) التى لم يبق في العالم من لم يسمع عنها ومن لم يتساءل عن السر في الاجماع على الاعجاب بها ، الى حد يكاد يكون اسطوريا ، اذ لو عنى احد باحصاء ما كتبه عنها نقاد الفن ، على اختلاف اذواقهم ومدارسهم منذ بداية القرن العشرين حتى اليوم ، لوجد انه يملأ مئات المجلدات الضخمة وليس في كل صفحة من صفحاتها الا دراسة هذه الرائعة وتحليل كل لمسة من لمسات ليوناردو دافينشى ، حين ظل يرسمها طيلة اربع سنوات .

والدهشة والذهول اللذان يستوليان على المشاهد ، ليس مبعثهما جمال (موناليزا)

كما قد يبدو لأول وهلة . وانما التساؤل عن الاعجاز فيها .. انها تبدو بسيطة عادية تماما . بل قد يبدو لفنان مبتدئ انها ليست ذلك العمل الفنى الذى يستحق كل هذا الاعجاب منقطع النظير . وانه يستطيع ان يرسم اجمل منها مئات المرات .. بل قد ينتقل الى لوحة جدارية اخرى فى المتحف ليرى ان فيها من الابداع اكثر كثيرا مما فى الموناليزا هذه التى ما تزال تحتل ارفع واعظم مكانة بين روائع الفن فى عصر النهضة وما بعده وحتى اليوم .

ولكن حذار ان يسمعك فنان اصيل تقول كلاما كهذا عن الموناليزا .. لأنها عنده شئ أعظم كثيرا من ان يفهمها امثالى وامثالك من خلق الله،ولا تستبعد أبدا . ان يثور بك الفنان . وان يتهمك بالكثير من فجاجة الذوق وصفاقة المشاعر والأحاسيس .. فاذا تلطف بك . قد يربت على كتفك . ويشرع فى الكلام . عن ابتسامة الموناليزا . وعن هذه الابتسامة وحدها . قد يأكل دماغك بحديث يستمر ليلة بكاملها ثم قد لا يسكت عن الكلام المباح اذا طلع الصباح ..

****

ليونارد دافينشى . صاحب هذه الرائعة الفنية التى ستظل على الأرجح لا تشبع من الثناء والاطراء والتقدير الى مئات أخرى من السنين . ولد فى عام ١٤٥٢م من أب مسجل للعقود فى مدينة فلورانسا فى ايطاليا . ومع ان اباه قد انجب قبله عددا من الأبناء والبنات . فان ليوناردو كان الولد الأثير لديه . مما يبدو انه كان يثير غيرة اخوته فيوسعونه اضطهادا واذى يضطر معها الأب الى أن يحمى صغيره بمزيد من الرعاية والعطف . كان ليوناردو يستحقها بدوره . لأنه نما جميل الطلعة . فى عينيه الكثير مما يجعل الناظر اليه يشعر انها تقولان الكثير عن نفس تزدحم فيها اشواق لا نهاية لها الى مجاهيل تتلامح بعيدة قريبة فى آفاق الحياة .. ومع جمال القسمات . وعمق المعانى فى العينين . كان ليوناردو قوى البنية . بحيث لم يكن يعجز عن الدفاع عن نفسه حين يأتمر به الصبيه من لداته .. ومع القوة فى البنية . كان فنان المشاعر والأحاسيس . اذ كان له صوت جميل . وفيه ولع بالموسيقى والغناء .

بلغ من رقة مشاعره وصفاء قلبه أنه كان يشترى الطيور من بائعيها فى الأسواق فلا يكاد يبتعد بها عن البائع ، حتى يطلق سراحها ، وهو يرسل خلفها وهى تبتعد لتقع على هذا الغصن او ذاك من الأشجار ، نظرة فيها من حنانه ما يبلغ حد النشوة الغامرة تنسيه كل شئ حوله الا ذلك الطائر الذى نعم بحريته ورفرف بجناحيه واستقر على الأغصان ..

****

ولا بد لنا ان نقدر ادراك الأب لمشاعر الفنان الصغير ، فقد أسرع به الى استاذ من أساتذة الفن فى فلورانسا ، هو (اندريه فيروكيو) .. وفى مرسم ذلك الفنان الأستاذ ، بدأت عبقرية ليوناردو تتفتح ، الى حد ظل يدهش استاذه يوما بعد يوم ، الى أن عهد اليه بأن يرسم شخصية معينة ، فى زاوية من لوحة كان يرسمها ، فاذا به يجد تلميذه ، قد رسم هذه الشخصية ودفق فيها من صفاء روحه ورقة مشاعره ما جعله ، يصمم على ان يترك لتلميذه الرسم ليتجه هو الى النحت .

****

ولم تخل حياة ليوناردو دافينشى من متاعب المنافسة الحادة بينه وبين معاصريه من اعلام الفن فى عصر النهضة ، وهم : (بيير وجينو) و (مايكل انجيلو) و (زافايلو) ولكنه كان يصمد لهذه المنافسة مؤمنا بأنه يصنع ما يستحق ان يضعه فى صفهم من المكانة الفنية التى كانت تتقرر بمدى اقبال الأمراء والملوك فى ذلك العصر على رعاية الفنان .. وقد حظى ليوناردو بهذه الرعاية من هذا الأمير أو ذاك من امراء ايطاليا وان كان لم يفلت من وشاية الحاقدين عليه ومن اثر هذه الوشاية على علاقته بهؤلاء الأمراء ..

****

وبالرغم من هذه الشهرة الواسعة التى ظل يتمتع بها ليوناردو دافينشى كفنان من اكابر فنانى عصر النهضة ، بحيث يقترن اسمه دائما بتاريخ الفن فى هذا العصر فان اعماله الفنية قليلة او حتى معدودة بالنسبة للأعمال التى تركها مايكل انجيلو ، او

رافايلو . وبعض هذه الأعمال على قلة عددها . حمل طابع ليوناردو وخصيصته التى عرف بها وهى ترك العمل الفنى والشروع فى غيره قبل ان يتم . والسبب فى رأى النقاد الذين درسوا فنه او مؤرخى الفن الذين كتبوا عنه انه لم يكن هذا الفنان الذى طبقت شهرته الآفاق فحسب . وانما كان الى ذلك . عالما ومهندسا ومخترعا . فهو من كبار علماء التشريح . اذ يكاد يكون الوحيد فى عصره وربما الى اليوم الذى شرح بادق التفاصيل اكثر من ثلاثين جثة للرجل ومثلها للمرأة . ورسم هذه التفاصيل الدقيقة رسما بلغ من وضوحه ودقته انه لم يهمل او يتجاوز حتى ما يمكن ان تتجاوزه الكاميرا اليوم . وهو لم يكتف بتشريح جسم الانسان . وانما شرح العديد من الحيوانات . والكثير من النباتات . والى جانب التشريح كان أول من اكتشف الدورة الدموية على حقيقتها بحيث لم تزد الكشوف التى توصل اليها العلماء بعده على ما وصل اليه هو قبل عدة قرون .. وبالنسبة للنسب بين اعضاء الجسم الانسانى . فقد وضع ما يمكن ان يعتبر قاعدة ما تزال هى التى لا سبيل ان يشذ عليها اى فنان يعنى برسم هذا الجسم .. هذا الى جانب الكثير مما اكتشفه عن الألوان . وعلى الأخص الألوان الزيتية التى كانت طريقته فى تكوينها فتحا فى صناعة الألوان الزيتية فى عصره . اما عبقريته كمهندس فقد ظهرت فى الكثير من الأبنية التى وضع تصاميمها المعقدة واشرف على تنفيذها الى جانب الجسور والمعابر التى كان من اوائل من ابتدع بناءها واضفى عليها لمسات تجميلية تضيف الى الفائدة عنصر الجمال .. واذا كان كل هذا . يؤكد عبقرية هذا العقل . فان ما يستوقف المتأمل ان نجده قد صمم رسوما للطائرة الحديثة والهيلوكوبتر . ومظلات الهبوط من المرتفعات الى الأرض . بل وجد بين اوراقه تصميم لغواصة . وهذا بالاضافة الى العديد من التصاميم التى طور بها اسلحة الحرب التى لو نفذت فى عصره . وفى ايطاليا . لتغير الكثير من تاريخها المعاصر ..

****

اما الموناليزا . او الجيوكندا . التى ما تزال تستوقف العشرات كل يوم فى متحف اللوفر فى باريس . فقد رسمها خلال اربع سنوات وهى فترة من الزمن يصعب ان

نتصور كيف وبأى حافز كانت ليزا توافق على ان تجلس امامه يوما بعد يوم . او حتى شهرا بعد شهر ليضع بريشته لمسة على الكانفاه . ثم هذه الابتسامة التى ما تزال سر سحرها وفتنتها كما يقول نقاد الفن .. كيف استطاع ان يجعل الحسناء لا تغيرها وهى تجلس امامه ربما مئات المرات خلال السنوات الأربع .. قالوا مثلا انه كان يجمع لها المهرجين . يمارسون تهريجهم امامها لتبتسم . ولكن من فى الدنيا التى تستطيع ان تبتسم ابتسامة معينة كالتى رسمها دون ان تتغير طيلة سنوات ؟

وليزا هذه التى عنى ليوناردو دافنشى برسمها . فتاة هام بحبها الأمير (جيوليانو دى مدينشى) من امراء ايطاليا . وهو الذى تكلف ما انفقه على ليوناردو طيلة السنوات الأربع . ولحياتها قصة عادية جدا . ولكن ليوناردو كان له فى قصتها رأى آخر . وكان له احساسه ومشاعره التى استشفت او ارادت ان تستشف وان تجسد ما كان خليقا ان يدور فى نفسها . وهى الفتاة فى السادسة عشرة من عمرها . وقد تزوجت (فرانشيسكو زانوبى جيو كونتو) فكانت الزوجة الثالثة فى حياته . وكان فى الخامسة والثلاثين من العمر .. يبدو ان ليوناردو كان يعرف عن حياتها ومشاعرها اكثر كثيرا مما عرفه الناس عنها . او لعله افترض ان حسناءه تعيش قصة حرمان قاسية . وزوجية تعسة . فظل يظهر على ابتسامتها وفى نظرتها . حديثها عن نفسها ..

على اية حال . فقد كانت صورة موناليزا - ومونا هو اختصار وتخفيف كلمة (ماد ونا) التى تعنى السيدة . واحدا من الأعمال الفنية القليلة التى اتمها ليوناردو دافينشى . ويجمع النقاد على انها اروع واعظم روائعه . وبها قدر للحسناء ان تعيش فى ضمير الفن والفنانين وعشاق الفنون كنموذج ليس للجمال فحسب . وانما للكثير من المشاعر وللكثير من الغموض الذى استطاع ان يحشده الفنان . وان يجعل الألوان تتحدث عنه اجيالا بعد اجيال ..

اشترى لوحة (موناليزا) فرانسو الأول ملك فرنسا من الفنان بمبلغ اثنى عشر ألف فرنك . وليس بين المراجع المتاحة ونحن نكتب هذه اللمحة عن الفنان وعمله التاريخى الكبير . ما يمكن ان نعرفه عن الأمير الذى أحب موناليزا وظل ينفق على الفنان طيلة

السنوات الأربع التى قضاها فى رسمها .. ولكنا نعلم ان فرانسوا الأول قد اعجب بالفنان واحسن تقديره . واستقدمه الى فرنسا . واعد له قصرا . من هذه القصور التى تشبه القلاع . ينهض بين مزارع الكروم . واشترى منه الموناليزا . واستبقاه فى فرنسا الى ان مات بين يديه ..

****

أغرب . ما فى سيرة حياة ليوناردو دافينشى . ان المؤرخين اختلفوا فى تاريخ ميلاده الى سنة ١٩٣٦م . حيث وجدوا بين اوراقه ما يشير الى تاريخ ميلاده وهو عام ١٤٥٢م وقد توفى فى السابعة والستين . وحسبوا له انه قضى ثلاثين سنة من هذا العمر فى مدينة فلورانسا . و٢٠ سنه فى ميلانو . وسبعة عشر عاما متجولا بين مدن ايطاليا . وفرنسا . تعرف خلالها الى ميكيافيلى . والى عدد من ادباء وشعراء ايطاليا فى عصره . ولكنه اعجب بميكيافيلى . ووثق علاقته به بحيث كانا فى النهاية صديقين حميمين .

قبل ان يموت فى السابعة والستين أصيب بالشلل الذى اقعده عن الحركة سنوات . ولكنه لم يتوقف عن الانتاج . اذ ظل يرسم على الورق وبالحبر او بالقلم العادى الكثير من تصاميمه واختراعاته الى جانب الكثير ايضا من الوجوه والملامح واعضاء جسم الانسان فى كل حركة من حركاتها بحيث يعتبر ما تركه من هذه الرسوم على الورق . مدرسة قائمة بذاتها .

من كلماته التى لم ينسها الناس له : « الصدق هو الذى يؤكد حدة الذكاء » .

السندباد

الحكاية فى حياة الشعوب أعرق وأرخص وسيلة من وسائل السمر واللهو البرىء . وليس من شك فى أنها صاحبت عقل الانسان وعاطفته ومشاعره منذ ألوف الألوف من السنين . وهى حين تعيش بيننا اليوم . وستظل تعيش ألوفا أخرى من السنين فى حياة جميع الشعوب فلأنها تنسج من واقع المشاعر الكامنة فى النفس الانسانية .. الأصل فى نسيجها مشاعر الخوف . والطموح والحب والرجاء . والضيق بالأزمات . والتطلع الى حلها وتفريج ما تسببه من كرب وشقاء بل ومشاعر الكراهية والحقد والرغبة فى الثأر والانتقام . الى ما لا يحصى فى مثل هذا الحديث العابر من مشاعر يعيشها الانسان . منذ يعى ما حوله من مظاهر الحياة والأحياء .

والحكاية أعرق ما عرف الانسان من مناهل الثقافة والعلم . ومن وسائل الخروج عن الدائرة المحدودة التى يعيشها الى آفاق أوسع وأرحب .. ولنا ان نتصور هذا الانسان قبل ألوف السنين .. قابعا فى كوخه أو كهفه . مع بعض أهله أو أفراد عشيرته . وقد أصابوا جميعا كفايتهم من الشواء الذى أتاحه صيد اليوم . لابد ان احدهم يعنى بأن يتحدث عما مر به فى يومه . ولا بد أن الآخر يشارك فى الحديث . بما مر به فى أيام مضت .. والذى يمر بحياة هذا أو ذاك . احداث معينة . تتصل بما يعانيه من صراع وعناء فى سبيل الحصول على القوت . أو الدفاع عن النفس من غائلة وحش أو عدو . ولا بد ان هذا الصراع استلزم مخرجا بالقوة أو بالحيلة . وبالهجوم يندحر معه الخصم . أو

بالفرار ينجو به المهاجم من الموت ..

وليس هنا من وسيلة ، يتاح معها تصور المراحل التى تطور فيها الحدث ، ولكن لا شك أن ما لا يحصى من الأحداث كان موضوع الخبر الذى يتحدث عنه السمار ولا شك أيضا فى أن هذه الأحداث تتراكم وتتشابك ويختلط بعضها ببعض ، فاذا وجد من يتحدث عنها أو يرويها فلا بد له أن ينسق بينها وان يوائم بين أسبابها ونتائجها فاذا أعجزه أن يجد التوافق المعقول ، فلا ندحة له من أن يلتمس الحل بما يضيف من خياله .. وما يضيفه حين يفيض به الخيال ، لا بد أن يتوفر فيه عنصر الغرابة الى الحد الذى يمكن أن يخرج بالقصة كلها عن حدود المنطق والعقل .. ولكن ما دام الراوى يجيد الرواية ويعرف كيف يستثير دهشة السامع ، فلا مجال للشك ، ولا سبيل الى مناقشة من منطق أو عقل ..

****

وحين تقرر الحكاية كمادة حديث ، وكعنصر يشبع التطلع الى الغريب والنادر من الأخبار ، فانها تحتل مركز الصدارة فى حياة جميع الشعوب ، بحيث يتعذر أن تجد شعبا لا تتصدر الحكاية مسار الثقافة فى حياته ، ولا تخلو هذه الحياة من حكايات يرويها الآباء ، والأمهات ، وعلى الأخص الأجداد والجدات .. وعلى الرغم مما يبدو لأول وهلة ، من مجانبة الحكاية للمنطق المتطور فى عقل الانسان ، وبالرغم من أن العقل المتطور فى هذا العصر على الأخص يرفض كليا ما تزدحم به الحكاية أحيانا من أحداث خارقة للعادة يأخذ ادوار البطولة فيها الساحر ، والجن والمارد ، أو القزم ، والشبح ، والقوى الخفية فان الحكاية لم تحظ بالعناية ومحاولات التطوير فى الشعوب المتخلفه ، انما حظيت بأعلى مستوى من هذه العناية وبأبرع محاولات التطور فى الشعوب المتطورة .. وليس أدل على ذلك من ألوف الألوف من الحكايات التى تؤلف بأقلام متخصصة ، وتطبع طباعة أنيقة فاخرة ، لتوضع بين أيدى الأطفال على حفولها بأحداث تظل مما لا يقبله العقل ولكنه مما لا بد ان يغذى الأطفال خاصة ، بالغرائب والعجائب ، وهى فى تقدير علماء النفس الوسائل التى تحرك الخيال وتطير به فى آفاق

غريبة مجهولة ، لا تلبث أن تتكشف عن حقيقتها كمجرد تسلية بريئة ، من عناصرها الأساسية المغامرات والمفاجات والاغراب فى الخيال الذى لا بد أن ينمو الطفل ، وان تنمو معارفه ومداركه ، بما يتلقاه فى مختلف مراحل التعليم ، فيدرك عندئذ ، الفرق بين الحقائق العلمية المجردة ، وبين الخيال الطافر الجموح ..

****

ولكن لنا أن نتساءل : ما الذى يشد الانسان الى الاعجاب بالمغامرات ومغامراته ..؟؟ ولماذا تظل المغامرة ، حتى بالنسبة الى عقل رياضى كعقل اينشتاين مثلا ، مثار دهشة تغرى بالتتبع والالحاح فى معرفة نتائجها ؟ يمكن أن يكون السبب هو طبيعة الرغبة فى اكتشاف المجاهيل أيا كانت .. وطبيعة المغامرة ، اقدام على عمل مجهول النتائج .. ان الذى يقول لنا ـ مثلا ـ (أنه كان ساهرا فى مكتبه بعد منتصف الليل عندما فتحت (درفة) واحدة من دواليب الكتب ، وسمع صوتا رقيقا ناعما يقول له:« آن لك أن تبدأ الرحلة معى الى الجزيرة الصفراء ») .. يشدنا الى مجاهيل متعددة هى : (كيف تنفتح (درفة) الخزانة دون أن يلمسها أحد .. وكيف يمكن أن يسمع هذا الصوت الرقيق الناعم ، دون أن يرى صاحبته .. ثم هذه الرحلة الى الجزيرة الصفراء .. أين هذه الجزيرة ؟؟ ولماذا توصف بأنها صفراء ؟؟ ولماذا تبدأ الرحلة بعد منتصف الليل .. ؟؟) وهنا نبدأ فى انتظار ما يمكن ان يقدم عليه من يقص علينا هذه البداية .. نتطلع الى معرفة الموقف الذى اتخذه .. ترى هل أحس بالخوف ؟؟ وكيف تصرف ؟؟ اذا لم يكن قد خاف وارتعد وغادر الغرفة صارخا ، فلا بد انه بدأ رحلة الخزانة طريقا سريا الى .. الى .. الى أين ؟؟؟ ثم ما هى وسيلة الانتقال ؟؟ سيارة مثلا ؟؟ ام بساط الريح ؟؟ ام جناح صاحبة الصوت الناعم التى لا بد أن تكون مخلوقا له أجنحة تحلق بها ، ولا يرهقها أن يمسك صاحبنا برجليها وهى طائرة الى ان تصل الى تلك الجزيرة الصفراء .. الى آخر ما يتلاحق من الأسئلة ، تلح على الذهن وكلها محاولة لاكتشاف المجهول .. أو المجاهيل ..

****

ومغامرات السندباد تختار مسرحا من طبيعته ان تتراكم فيه المجاهيل .. هو مسرح الاسفار التى تتوالى من السفرة الأولى الى السفرة السابعة .. والسفر تنقل وتجوال ومن مستلزماته حتى حين تسافر انت الى الطائف أو المدينة أو الرياض ، أن يظل منطويا على شئ مجهول .. وهذا المجهول بالنسبة لمن تتحدث اليهم عن الرحلة ، يظل يغرى بمعرفة التفاصيل مهما كانت عادية او تافهة .. فكيف اذا كانت سفرات السندباد السبع ، قد اختارت البحار والمحيطات .. وعلى الأخص منها المحيط الهندى والهادى حيث بلاد الهند والسند والصين وما يجاورها من بلدان الشرق الأقصى .. ثم كيف لا يتأجج تطلعك المندهش ، حين يرتفع صوت صاحب المركب ، بين ركابها الذين كانوا ينعمون بالتجوال فى الجزيرة الخضراء ، قائلا : اتركوا كل شئ .. كل متاع لكم وسارعوا الى النجاة بأنفسكم وارواحكم .. ان الجزيرة التى أنتم عليها ليست الا سمكة كبيرة استقرت فى وسط البحر ، وترسب عليها الرمل ، فبدت كأنها جزيرة ، آذاها حر النار التى اشعلتموها فهى الآن تتحرك لتغوص بكم فى أعماق البحر .. ولا بد لك ان تسأل عن مصير السندباد أكان ممن استطاعوا ان يدركوا السفينة وان يفلتوا من الغرق ؟؟ فاذا بك تجده ممن غرقوا فى البحر .. ومع ذلك فقد نجا من الغرق بالطفو على خشبة ، تقاذفتها الأمواج الى أن رمت به الى جزيرة أخرى .. ويذهب بك السندباد فى هذه الجزيرة الى رياضها ومروجها وينابيعها والناضج الشهى من ثمارها ، ولا تكاد تحمد الله على نجاته ، وتتطلع الى عودته الى البصرة التى بدأ منها مغامرته .. حتى يفاجئك بانسان يأخذه من يده وينزل به سردابا تحت الأرض .. وما تحت الأرض مجهول .. والرجل الغريب مجهول آخر .. ومصير السندباد مجهول .. الى آخر ما هنالك من المجاهيل التى لا تملك الا أن تتطلع الى اكتشافها ، حتى مع كل ما تملك من منطق وعقل ..

****

وتتلاحق سفرات السندباد واحدة بعد الأخرى ، وفى نهاية كل سفرة نجده فى البصرة ثم فى بغداد سعيدا قرير العين ناعم العيش ، ولكنه يتعشق المغامرة ، ولا يركن الى الحياة الخاملة التى يتيحها ما اكتسب من مال ، وما عاد به من سلع وعروض ..

فيشرع فى السفرة التالية . ليفاجئك . فى كل مرة بالمجاهيل تتلاحق . وبالغرائب تتوالى وهى وان كانت غرائب فيها بدائية الخيال . والاغراق والاستغراق فى التهويل والتضخيم الا انها تظل مما يستفز دهشتك . خصوصا . لما يتاح له من سبل الخلاص والعودة مرة بعد أخرى الى بغداد . الى ان نراه فى السفرة الأخيرة . قد تزوج من الفتاة التى كان أبوها يعيش فى جزيرة سكانها من الشياطين . الذين يستطيعون ان يطيروا وان يحلقوا فى الفضاء ولا يؤذيهم شئ سوى ذكر الله .. وقد مات الأب بعد ان زوج ابنته من السندباد . فباع ما ترك له من اموال . وعاد الى بغداد . وقد اثرى ثراء كبيرا . وتقدمت به السن فاكتفى بأن ينعم بالحياة فى قصره الفخم الذى يقابله فيه (السندباد البرى) والذى تبدأ شهر زاد حكايتها . بذلك اللقاء بين السندبادين ..

****

وحكاية السندباد كجميع حكايات ألف ليلة وليلة . حين تعتمد على التهويل . وعلى عناصر التخويف . كالحيات التى تبلع الفيل . وكالمارد . الذى يحمل الرجل بين اصابعه يتحسس ما يكتنزه من لحم وشحم . ثم يأكله بعد أن يشويه على النار . وكطير الرخ الذى يبلغ محيط بيضته خمسين ذراعا .. فانها تعتمد كذلك على الاستطراد ومع الاستطراد سلسلة طويلة . من النوادر وفى كل منها مجهول . تتطلع الى معرفته واكتشافه . وفى التطلع تحريك للخيال . وفى هذا التحريك سر نجاح ألف ليلة فى الاستحواذ على اعجاب قرائها او سامعيها من الرواة .. وقد كان الرواة دائما . الأجداد والجدات . يجتمع الصغار حولهن بعد الغروب . وقبيل ساعة النوم ..

ومع ان حكايات ألف ليلة وليلة . ستظل تعيش فى الحياة العربية . اجيالا أخرى . فان الاقبال عليها . يتضاءل او هو قد تضاءل خلال ربع القرن الماضى . والأرجح انها سوف تتراجع عن الأسواق . لتقبع فى مكاتب الخاصة باعتبارها لونا من الوان التراث . والسبب هو ان الأطفال فى العالم العربى اليوم اصبحوا مغمورين بواجباتهم المدرسية التى يلتزمون بها قبل بلوغهم السادسة من العمر . بحيث لا يتسنى لهم ان يجتمعوا حول الجدات لسماع هذه الحكايات وامثالها .. فاذا وجدوا بعض الوقت للترويح عن

النفس . فهناك التليفزيون ، يقدم لهم هذه البرامج يصنعها الغرب ، والثقافة الغربية والعقل الغربى ، ومن تأثيره المباشر على عقولهم ، صرف اذهانهم الى الحياة الغربية يجدون فيها الكثير مما يغريهم بالتقليد والاتباع ..وليس ما يمنع فى الواقع أن نتسامح مع الطفل العربى فى التأثر بالثقافة أيا كان مصدرها ما دامت لا تتعارض مع تقاليدنا ومعتقداتنا والحميد من عاداتنا . ولا يساورنا شك فى ان الكثير من البرامج التى يعرضها التليفزيون الغربى ، يتوفر فيه غرض تربوى هادف ، يفيد منه الأطفال ، ولكن هذا لا يمنع ايضا ان يحاول التلفزيون ، انتاج برامج عربية تستهدف ترسيخ ما يهمنا ان يترسخ فى ذهن الطفل من القيم والمثل والعادات الحميدة والتقاليد النافعة .

ومن هنا ، يتراءى لنا مطلب تربوى لا نشك فى انه قد ظل يعانى اهمالا طويلا استتبع ابتعاد الجيل الصاعد عن الحكاية كعنصر من عناصر الثقافة العامة التى لا بد ان ترفضها مقررات التعليم . ومما يؤسف له ان مكتبة الطفل فى العالم العربى ما تزال فقيرة اشد الفقر ، وباستثناء الجهد الذى بذله المرحوم الأستاذ كامل كيلانى وبعض من تابعوا مسيرته بتأليف كتب للأطفال أغلب موادها مترجمة عن لغات أجنبية فان ما ظهر وما لايزال يظهر من هذه الكتب ، أقل كثيرا مما يستلزمه مطلب التربية لأجيالنا الصاعدة .

وحكايات الف ليلة ، حتى بعد المحاولات التى بذلت لتطويرها لغة وأسلوبا وطباعة ليس فيها الكثير مما يصلح ان يوضع بين أيدى الأطفال . ولكن ليس من شك فى ان الكثير من المغامرات فى هذه الحكايات ، يمكن ان يطور ، وان تستبدل بعض عناصر التهويل والتخويف فيها ، بعناصر ، لا مانع من ان يتوفر فيها عنصر الاثارة بوسائل تتكشف عن نتائج يمكن ان يقبلها عقل الطفل وان كان فيها مجال واسع لتحريك الخيال

ان حياة الشعوب ، لا تستغنى عن الحكاية ، وحتى بعد ان يتكامل العقل التكنولوجى الحديث ليصل الى أقصى مراحل التكامل ، فانه لا يستغنى اطلاقا عن الجانب الاسطورى أو الخرافى فى الحكاية ، على ان يتكشف عن حقيقته كاسطورة أو خرافة يسرح معها الخيال ويستيقظ على حقيقتها العقل .

ألف ليلة وليلة

هذا الكتاب الذى يندر أن تجد مثقفا لم يعن بقراءته ، بل قد تجد الكثيرين ممن لا يعدون من المثقفين قرأوه فى مجالس سمرهم ، ولعلهم ما يزالون يقرأونه ، اذ يجدون فيه تلك الحياة الأسطورية التى تساعد بطبيعة جنوحها عن المعقول ، مهربا سهل المنال من الواقع وما فيه من مرارة وقسوة .

وليس من شك ، أن انتشار جهاز الراديو ، قد خفف من الاقبال عليه ، اذ يستطيع الناس اليوم أن يجدوا المهرب الذى لا يستغنون عنه ، فيما يزدحم به الاثير من اذاعات العالم ، وكل منها تبذل أقصى ما تستطيع من جهد لشد المستمع الى برامجها وموادها الاذاعية ، ومن أشدها رواجا الموسيقى والأغانى ، والتمثيليات ، والمسرحيات ، الى جانب المواد الثقافية والاجتماعية التى يجد فيها المستمع ، ما يغنيه عن كثير مما كان لا يصل اليه الا بالتوفر على القراءة والدرس .

ومن الحقائق الغريبة عن كتاب الف ليلة وليلة ، أنه لم يلق عناية أو اهتماما من العلماء ، وفقهاء اللغة والتاريخ فى العالم العربى ، وقد ظل عملا لا قيمة له فى نظر الكبار من المثقفين الى بداية القرن العشرين ، والسبب على الأرجح هو عدم الرضى عنه ، ليس لما يزدحم به من أساطير فحسب ، وانما لأن فيه قصصا ومواقف ، تعتبر من الأدب المكشوف ، وبلغة مبتذلة ، لا شك أن العلماء لم يكونوا يرضون عنها وقد يحرصون على صرف أنظار الناشئة عن الكتاب صيانة للأخلاق وحرصا على الفضيلة

ولذلك ، فان الكتاب وجد طلابه والمتهافتين عليه من العامة ، ومن فى حكمهم من الناس . ويندر أن نجد للكتاب ذكرا أو حتى مجرد اشارة الى محتواه . باستثناء ما ذكره عنه ابن النديم فى كتابه (الفهرست) ..

وكانت هذه النظرة الى الكتاب ، سببا ، فى تأخر طباعة النسخة الخطية منه ، الى عام الف وثمانمئة وثلاثة وثلاثين .. والغريب أن أول نسخة مطبوعة له ، فى ذلك العام ، لم تطبع فى العالم العربى ، وانما فى كلكتا ، فى الهند ، عن نسخة خطية (بالخط الهندى أو الفارسى) قيل إنها منقولة عن نسخة مصرية ..

وأول طبعة فى العالم العربى ، معتمدة على النسخة التى طبعت فى كلكتا ، فى عام الف وثمانمئة وخمسة وثلاثين .. أى بعد سنتين من ظهور طبعة كلكتا .. وتم طبعها فى مطبعة بولاق ..

وحين يجد كتاب الف ليلة وليلة هذا الحظ العاثر فى العالم العربى ، نجده قد ترجم الى الفرنسية لأول مرة فى عام الف وسبعمئة وسبعة عشر .. أى قبل ظهور نسخة مطبوعة منه باللغة العربية بما يزيد قليلا عن قرن من الزمان .. وعن الترجمة الفرنسية ، ترجم الكتاب الى الانجليزية والايطالية والأسبانية والبرتغالية والرومانية والهولاندية ، والدانماركية ، والألمانية ، واليونانية ، والسويدية ، والروسية والبولاندية والهنجارية ..

وبالتفات الغرب الى الكتاب ، بدأ اقبال المستشرقين ، على ترجمته عن الأصل العربى ، وكان أول من عنى بترجمته عن الأصل العربى الى اللغة الألمانية المستشرق (فون هابر) ويمكن القول ، إن المستشرقين فى جميع دول أوروبا قد ترجموا الكتاب عن الأصل العربى الى لغاتهم .

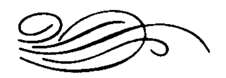
وبتطور الطباعة فى النصف الأول من القرن العشرين ، أخذ الكتاب يظهر ، فى طبعات رائعة مزودة بالرسوم بالألوان مما زاد فى قيمة الكتاب ، بحيث أصبح يجد مكانه فى مكتبة كل أسرة ، فى جميع أنحاء العالم .

من أعجب ما مر بى ، أن كثيرا من القراء العرب لم يقرأوا الأصل العربى ، بينما

يلتهمون الترجمة الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

والسبب على الأرجح ـ هو سلامة الترجمة من الركاكة والابتذال الموجودين فى الأصل العربى .

والآن .. هل نجد فرقا كبيرا ، بين ما كانت تحتال به شهر زاد لشد شهريار الى أقاصيصها طلبا للنجاة من الموت الذى ظل يتربص بها .. وبين ما تقوم به الاذاعة والتليفزيون من الاحتيال على المستمع والمشاهد ، طلبا للنجاة من واقع الحياة ومتاعبها ، وقسوة ظروفها .



فيلم السينما العربية

ليس بين القراء الآن من يجهل أن الفيلم السينمائى العربى مدين لأبطال المسرح وفى الطليعة منهم نجيب الريحانى . ويوسف وهبى . والمرحوم سليمان نجيب وبشارة واكيم . وعبد الفتاح القصرى وسراج منير . ومن السيدات . أمينة رزق . وفاطمة رشدى وعزيزة أمير . ومارى منيب . كان هؤلاء هم الذين نهض على أكتافهم المسرح العربى بمفهومه المتطور . فلما تطلع الجمهور الى أمل انتاج الفيلم العربى . كان هؤلاء هم الذين اقتحموا الساحة واستطاعوا أن يضعوا اللبنات الأولى لبناء الفيلم السينمائى العربى .

وقد بدأت أول محاولة لانتاج فيلم عربى فى عام ١٩٢٥م . حيث كانت المنتجة سيدة من الطبقات الراقية فى ذلك الوقت اسمها (وداد عرفى) وقد استقدمت للانتاج خبيرين من أمريكاوانتجت أربعة أفلام فى سنتين . نجح منها فيلم باسم (ليلى) ..

وقد بلغت تكاليف هذا الفيلم ألف جنيه مصرى .. وقد أخذت أكثر مناظره فى شوارع القاهرة . وبالرغم من أنه كان بدائيا فى التمثيل . وفى الموضوع . وفى الاخراج . فقد استطاع أن يجتذب الجمهور . لمدة ستة أسابيع .. وكانت بطلة الفيلم (عزيزة أمير) .

وقد شجعت هذه الخطوة . على بدائيتها . اخوان (لاما) .. والمعروف منهم (بدر لاما) .. على أن يقوموا بانتاج فيلم (صامت) بعنوان (قبلة فى الصحراء) .. استقبله

الجمهور بحرارة وترحيب كبيرين ..

وهنا دخل الحلبة الأستاذ يوسف وهبى . فانتج فيلمه الأول من موضوع مسرحيته المشهورة (أولاد الذوات) .. وامتاز بأنه فيلم ناطق ، وموضوعه منتزع من البيئة المصرية . ومن المشاكل التى كانت تعيشها مصر فى تلك الأيام .

ولكن ، فيلم (أبناء الذوات) وان كان قد نجح الى حد كبير ، الا أنه كلف يوسف وهبى مبلغا طائلا ، اذ كان لابد له أن يسجل الحوار فيه ، فى باريس ، لافتقار مصر فى ذلك العهد الى وسائل التسجيل الذى يظهر الصوت ، مع حركة الشفتين .

وبعد هذه المحاولات دخل طلعت حرب باشا ميدان الانتاج السينمائى بتمويل بناء وتجهيز أول أستوديو للانتاج السينمائى المتكامل نسبيا وهو (أستوديو مصر) فى عام ١٩٣٤م . وأثار تأسيس أستوديو مصر ، روح المنافسة . فأخذت تتأسس شركات للسينما كما أخذت تنتشر دور العرض السينمائى ، ليس فى المدن الكبيرة فحسب وانما فى الصغيرة منها بحيث بلغ عدد دور العرض فى القطر المصرى وحده مئة وأربعة وتسعين دارا بلغ عدد مقاعدها مئة وأربعة وتسعين ألف مقعد .. وقفز هذا العدد فى عام ١٩٥٢ م الى مائتين وثلاثين دارا كان منها ثمانون دارا فى القاهرة ، وثلاثون فى الاسكندرية .. وبلغ عدد مشاهدى الأفلام فى عام ١٩٤٦م ، اثنين وأربعين مليون نسمة .. وقفز هذا العدد الى اثنين وتسعين مليونا فى سنة ١٩٥١م ، ومع أن الجهود الفردية ثم جهود بنك مصر ، قد عملت على انعاش صناعة السينما المصرية فان الحكومة فى مصر قد أولت هذه الصناعة جانبا كبيرا من اهتمامها ، وذلك لأن الشاشة فى كل دار من دور العرض ، لابد أن تستقبل الكثير مما تريد الحكومة تنبيه الجمهور اليه ، وتوعيتها له من سياستها وأعمالها وانجازاتها ، وهذا الى جانب ما يحققه بيع التذاكر فى العالم العربى من دخل لا يستهان به بالنسبة للخزانة .. والأهم من ذلك ، ما يحققه تسويق هذه الأفلام فى العالم العربى من دخل آخر من العملات الصعبة .

ولذلك ، فان صناعة السينما ، قد حظيت باهتمام يتوالى ويتضخم يوما بعد يوم ، صحيح أن دمج مختلف الشركات الكبرى والاستوديوهات الكبيرة ، فى مؤسسات

تشرف عليها الدولة مباشرة قد أثر على نوعية الانتاج ، نتيجة لضمور الحافز الشخصى ، وانعدام روح المنافسة ، الا أن السنوات الأخيرة قد شهدت نشاطا فى القطاع الخاص ، بدأ يعطى ثماره بأفلام حققت نجاحا طيبا فى مختلف بلدان العالم العربى ، وعلى الأخص منها (لبنان) .. حيث البلد التى يستقطب أنظار السائح العربى فى كل صيف .

ومع ان دخول التليفزيون فى مصر وفى العالم العربى ، كان عاملا للانصراف نسبيا عن التهافت على دور السينما ، الا أن هذا التأثير أخذ يتضاءل فى السنوات الأخيرة ، لأن العامل النفسى تغلب على غيره من العوامل التى تربط الأسرة بالمنزل وأمام شاشة التليفزيون .. والمقصود بالعامل النفسى ، هو تطلع كل فرد فى الأسرة ، الى التخلص ـ ولو مرة فى الأسبوع من جو البيت ـ ورغبة كل منهم فى أن يغشى مجتمع الجمهور الكبير ، والجماعات الكثيفة وما يتاح معها من مشاهدة الكثير الذى لا يقل اثارة للاهتمام والملاحظة والفضول ، عن مشاهدة الفيلم .

النشاط الذى يمكن أن يقال إنه أصيب بضربة قاصمة ، هو المسرح ، الذى لا شك فى أنه سيظل يتثاءب ، الى أن تتاح له خطوة تجديد تنقله من مجرد عرض لمسرحية ، الى عرض لنشاطات فنية تجمع بين المسرحية ، وبين مواد ترفيهية أخرى ، يعرفها الذين شهدوا تطور المسرح الأوروبى ، فى لندن وباريس وروما .



جحا

ما أكثر ما نسمع من نوادر جحا ..! وما أكثر ما سمعنا من هذه النوادر من الجدات ! وهن يمتعن طفولتنا بحكاياهن ، وأناملهن الناعمة تمسح رؤوسنا ونحن نقاوم النعاس ، لنسمع الجديد من نوادر جحا .

والعجيب أن شخصية جحا ، جوهرة ، تدعى ملكيتها أكثر من أمة على وجه الأرض .. والذين يدعون هذه الملكية ، وينافحون عن كل من يشكك فيها بوثائق ومستندات لو أنها تعرض على القضاء ، لما وسع المحكمة الا أن تحكم بصحة الدعوى .. وبهذا لابد أن يواجه جحا مصيرا عجيبا .. أقل ما فيه أن يجد نفسه على بساط الريح ، ليثبت وجوده ، فى العالم العربى ، حين يحكم به للعرب ، وفى تركيا حين يحكم به للأتراك ، ثم فى ايران حين يحكم به للفرس .. ولا يكاد يستريح هنا أو هناك ، حتى يجد نفسه طائرا الى ايطاليا .

وهو فى كل بلد من هذه البلدان ، وفى غيرها مما لا يقع تحت حصر ، يجد فى استقباله والترحيب به جمهورا كبيرا ، يجمع بين الأطفال ، والصبية ، والفتيات ، والصبايا ، والرجال ، والنساء ، شبانا وكهولا ، وعجائز حنى ظهورهم الزمن ، ولا يسعهم أن يقفوا للترحيب به الا على عكاكيزهم ، وفى وجوههم اللهفة على رؤياه ، والفرحة بلقائه .

وبساط الريح الذى لا يسع جحا الا أن يرتفقه ليثبت وجوده هنا وهناك ، يمكن أن

يهبط به ، فجأة ، فى تيه من صحراء ، أو دغل فى غابة ، ويضيع المسكين ، الى أن تسعف الريح بساطه ، فينتقل الى حيث يجب أن يكون ..

ومن هذا الاحتمال ـ احتمال الضياع فى التيه أو الغابة ـ كان لابد أن يقوم محبوه ، والمدعون ملكيته ، بالبحث عنه .. وليس أسهل من ذلك فى هذه الأيام ، مع البوينج والكونكورد ، والهيلوكوبتر ، ومختلف وسائل الطيران بين الأرض والسماء .. وفى أعماق البحر ، أو حتى فى أجواز الفضاء .

والأرجح ، أن العرب ، سيسبقون غيرهم فى البحث عنه ، فاذا حدث أن ظهر من يدعى ملكيته حتى فى التيه والغابة ، فان من وثائق ملكيتنا لهذه الجوهرة النادرة ما حكاه (الجاحظ) الذى ذكره ، وقال أن اسمه (نوح) وكنيته (أبو الغصن) وزعم أنه عمَّر ، فأربى على المئة سنة ، واستشهد ببيت للشاعر القرشى ، عمر بن أبى ربيعة ، الذى قال ..

« دلهت عقلى ، وتلعبت بى حتى كأنى من جنونى (جحا) »

وفى (مجمع الأمثال) للميدانى الذى توفى عام خمسمئة وثمانية عشر ، مثل طالما تردد على السنة الناس فيقال .. (أحمق من جحا) ..وقال الميدانى : إن جحا هذا ، رجل من فزارة ، وكان يكنى (أبا الغصن) .

وفى كتاب (أخبار الحمقى والمغفلين) لابن الجوزى الذى توفى فى عام خمسمئة وسبعة وتسعين جاء اسم (جحا) وقال ابن الجوزى أن كنيته (أبو الغصن) وقد روى عنه ما يدل على فطنة وذكاء ، الا أن الغالب عليه (التغفيل) .

وتتوالى من خزانة المصادر العربية الأخبار التى تؤكد عروبته ، اذ نجد له ذكرا فى (القاموس) وفى كتاب (حياة الحيوان) الكبرى للدميرى ، وفى لسان الميزان لابن حجر ..

ومن هذه المصادر نجد أن جحا ، قد ولد فى منتصف القرن الأول الهجرى وعاش حتى منتصف إلقرن الثانى الهجرى فهو قد ادرك أبا جعفر المنصور .. وله نادرة مع أبى مسلم الخراسانى ، ونادرة مع المهدى .

ولكن لا نكاد ، نقدم هذه الوثائق الى المحكمة ، واثقين من صدور الحكم لنا ، حتى يقف محامى الطرف الآخر فيطعن فى صحة هذه الوثائق ، ويكاد ينسفها من أساسها ولا يطول بنا الوقت ، حتى نجد أنفسنا نحن ، ومعنا المدعون الخصوم ، فى تيه لا أول له ولا آخر .. وننتهى آخر الأمر الى الاكتفاء ، بما تؤكده الجدة عن عروبته اذا كانت عربية ، وعن تركيته اذا كانت تركية .. ويكتفى الخصوم أيضا بما تؤكده الجدة الايطالية ، أو الفارسية أو الهندية .. ولابد لنا أن نقول .. فليكن جحا من أى جنسية شاء .. وحسبنا ما نسمع من نوادره وظرفه ، وذكائه أو تغفيله ، وفطنته أو غبائه .

وقيل لجحا ذات مرة . (أمرك عجيب .. يطلب منك جيرانك شيئا ، يكون فى متناول يدك فلا تعطيهم اياه الا فى اليوم الثانى ..

فقال جحا .. (افعل ذلك ليعرفوا قيمة ما أعطيه ما داموا محتاجين اليه)

ذهب اليه احد الاعراب بناقة أصيبت بالجرب ، وطلب منه أن يقرأ له عليها لتشفى .. وتظاهر جحا بأنه يقرأ شيئا وينفخ على الناقة .. ثم عندما فرغ قال للأعرابى .. لابد لك أن تضيف الى ما قرأته عليها ، شيئا من القطران .

تجمع حول جحا ، بعض من يناكفونه .. وسأله أحدهم .. إنك تدعى العلم ، فهل تستطيع أن تقول لنا .. (كم ذراعا مساحة الدنيا ؟؟؟) .. وكانت تمر بهم جنازة ، فقال لهم .. (اسرعوا اليه فعنده جواب سؤالكم .. فقد ذرع الدنيا منذ دخلها ، الى أن خرج منها ..)

سأل أحدهم جحا .. أيهما افضل يا جحا .. المشى خلف الجنازة أم أمامها ؟؟ فقال جحا : (لا تكن على النعش .. وامش حيث تشاء ..)

أشعب بن جبير

ومن الذى يحتاج الى أن يعرف ابن من يكون (أشعب) .. اذ هو الشخصية التى استطاعت أن تعيش منذ العصر الاسلامى الأول حتى اليوم .. ومادة حياته الظرف والطرف والنوادر . والشهرة المستفيضة بالطمع حتى ضرب المثل بطمعه فقيل (اطمع من أشعب) ..

ومع ذلك . فالأخبار عنه فى أمهات كتب التراث العربى الخالد . تذكر أن اسمه (شعيب) وكنيته أبو العلاء وأمه (أم الجلندح) وهى مولاة اسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .. أما أبوه فقد قيل إن أباه كان مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ويبدو أن أشعب . قد ورث عن أمه (أم الجلندح) شيئا من طباعها . اذ كانت معروفة بالظرف . وأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم . كن يستظرفن أحاديثها ولكنها مع هذا الظرف . كانت مولعة بنقل ما تقوله احداهن عن الأخرى . وتغرى بينهن .. قيل فدعا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت .. وقد عمر أشعب طويلا . اذ يقول صاحب الأغانى أنه توفى فى زمن وأيام المهدى فى الخلافة العباسية . وقد ولد فى سنة تسع من الهجرة .. وهذا دهر طويل كما نرى . ولعله يعلل لاستفاضة شهرته ورسوخ أخباره فى الكثير مما اشتملت عليه الكتب من أخبار الرجال ..

ومع أن شهرته فى الطمع قد غلبت على كل ما عرف به . فان اشعب ـ كما يروى ـ

كان حسن الصوت بالقراءة وكان مع ملاحته ونوادره يغنى اصواتا فيجيدها ..

قيل له مرة . قد لقيت رجالا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو رويت لنا بعض ما حفظت وسمعت .. فقال . حدثنى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . خلتان لا تجتمعان فى مؤمن الا دخل الجنة .. وتلهف المستمع أملا فى أن يعرف هاتين الخلتين فى المؤمن . ولكن أشعب التزم الصمت .. فلما سئل عنهما قال . نسى عكرمة احداهما .. ونسيت أنا الأخرى ..

قال أشعب فيما يرويه عن طمعه وحرصه . تعلقت باستار الكعبة فقلت . اللهم أذهب عنى الحرص والطلب الى الناس . فمررت بالقرشيين وغيرهم فلم يعطنى أحد شيئا .. فجئت الى أمى فقالت . (مالك قد جئت منذ اليوم خائبا ؟؟) .. فأخبرتها بما فعلت فقالت . والله لا تدخل بيتنا حتى ترجع فتستقيل ربك فرجعت الى الكعبة وجعلت أقول . (يارب أقلنى) ثم رجعت فما مررت بمجلس لقريش ولا غيرهم الا أعطونى ومن ذلك أنه وهب لى مع هباتهم غلام .. فجئت الى أمى بجمال موقرة من كل شئ .. فقالت . (ما هذا الغلام ؟؟؟) فخفت أن أخبرها فتموت فرحا أن قلت . (وهبوه لى) فاخذت أقطع حروف الكلمة فأنطق حرفا من كلمة (غلام) ثم اصمت . ثم تسألنى أنطق الحرف التالى الى أن اجتمع من الحروف ما فهمت منه أنه غلام وهب ولى فغشى عليها .. ولو لم أقطع الحروف لماتت فرحا ..

ويقول أشعب . جاءتنى جارية بدينار وقالت (خذ هذا وديعة عندك) .. فجعلته بين ثنى الفراش .. فجاءت بعد أيام وقالت . (بأبى أنت .. اعطنى الدينـار ..) فقلت . (ارفعى الفراش وخذى ولده ..) وكنت تركت الى جنبه درهما فأخذت الدرهم وتركت الدينار .. وعادت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته .. وفى المرة الثالثة كذلك .. ثم جاءت فى الرابعة فلما رأيتها بكيت فقالت . ماذا يبكيك ؟؟؟. قلت (مات دينارك فى النفاس) فقالت (وكيف يكون للدينار نفاس ؟) فقلت لها (يا خبيثة .. تصدقين بالولادة .. ولا تصدقين بالنفاس ؟) . روى أحدهم قال . حدثنى شيخ من أهل المدينة قال . كانت فلانة شديدة العين لا تنظر الى شئ فتستحسنه الا عانته

(أى أصابته بعينيها حسدا) ..

قال فدخلت على أشعب وهو فى الموت .. فلما رآها غطى وجهه بكمه وقال لها . (يا فلانة .. بالله ، ان كنت استحسنت شيئا مما أنا فيه فصل على النبى صلى الله عليه وسلم ولا تهلكينى .. فغضبت المرأة وقالت (سخنت عينك .. وفى أى شئ أنت مما يستحسن ؟؟ أنت فى آخر رمق) قال أشعب (أعلم ذلك .. ولكنى قلت لئلا تكونى قد استحسنت خفة الموت على وسهولة النزع فيشتد ما أنا فيه .. فخرجت من عنده وهى تسبه ..

قالوا .. ولفظ أشعب آخر أنفاسه ، والمجتمعون حوله يضحكون من كلامه ..



عصر النهضة في فرنسا

النهضة فى فرنسا ، كالنهضة فى ايطاليا ، استهدفت التخلص من هيمنة رجال الكهنوت ، الذين بلغ بهم الطغيان والاصرار على الاحتفاظ بسلطانهم بكل ما يملكون من وسائل واساليب الكبت والارهاب ، أن كانوا يأخذون على من يريد الانتماء الى سلك الرهبنة ، تعهدا بأن يظل جاهلا ، فليس من حقه ان يتعلم أو ان يتطلع الى ان يفهم من الحياة سوى ما يريدون هم ان يتعلمه من الخرافات والأساطير .

ولذلك فإننا نجد أديب عصر النهضة فى فرنسا يتجه اتجاها انسانيا وينزع نزعة ذاتية فهو لا يعنى بما تركته العصور الوسطى من الخرافات والأساطير والمعتقدات الباطلة وانما يعنى بالانسان على الأرض .. والانسان فى تعامله مع الحياة بكل ما فيها من حوافز وما تتطلبه من حركة وانطلاق .

****

ومن أولئك الأدباء الذين شهدتهم فرنسا فى فجر عصر النهضة(فرانسوادىفيون) الذى ولد لأبوين فقيرين لم يكن لهما حظ من التعليم .. مات أبوه وهو ما يزال فى مرحلة اليفع ، فكفلته أمه وهى شابة ارهقتها الفاقة والعجز ، حين كانت باريس تئن من فقر بشع مخيف ، انعدم معه القوت ، فى الريف الضامر ، فحصد الجوع ارواح المئات والألوف من الفرنسيين ولم تر الأم بدا من ان تلجأ بابنها الى رجل كان استاذا للقانون فى الجامعة هو (جيروم دى فيون) وكانت له بالأسرة صلة قرابة بعيدة .. وقد اشفق

الأستاذ الكبير على الطفل الهزيل فاحتضنه وتبناه . وبلغ من عطفه عليه ان كان يقرأ له القصص وقصائد الشعر فى اللغتين اللاتينية والاغريقيه . ولما رأى منه ما يبشر بأنه سيكون تلميذا صالحا سجله طالبا فى الجامعة واطلق عليه اسمه ولقبه . فكان (فرانسوادى فيون) .

****

واستطاع هذا التلميذ ، ان ينال درجة البكالوريوس فى الآداب ، ولكن سرعان ما انحرف وساءت تصرفاته وانطلق فى أنفاق الانحراف الخطره . فارتكب أنواعا من الجرائم ، ظل يسجن من اجلها ثم يطلق سراحه مرة بعد الأخرى ، وكأنما كان لهذه الحياة المضطربة بكل ما فيها من بؤس وشقاء ، وشرور وآثام ، أثرها فى أعماله الأدبية التى ظل يوالى انتاجها فى كل الظروف التعسة التى عاشها ، فاذا به يترك اعمالا أدبية يجمع النقاد على انها الطلائع الأولى لأدب عصر النهضة فى فرنسا ، رغم ما يظهر فيها من اثر الانحراف والاستهتار . ومن هذه الأعمال قصيدته التى سماها (العهد الأكبر) وهى تتألف من مئة وثلاث وسبعين مقطوعة مثمنة الأبيات وكل بيت يتألف من ثمانية مقاطع .. ويبدو أن اجزاء من هذه القصيدة كتبها الشاعر فى شيخوخته اذ نسمعه يقول :

لقد مضى الشباب ، وخلفنى فى عرض الطريق
طار منى الجسم والعقل شعاعا
وبت حزينا واهيا .. وحيدا بلا رفيق
وتبدد ما كنت املك .. ارضا ومتاعا
وانفض عنى ذوو القربى تباعا
انكرونى .. وابتعدوا .. يؤثرون عنى بعدا وانقطاعا
ولم يبق من مالى قليل او كثير ..

ونراه يتحسر على أيام الشباب ، التى يعترف بأنه قضاها منحرفا عن طريق الصواب ، فيندم ويدون توبته على ما اقترف ، مع سيرته فى تلك الأيام فيقول :

لو كنت ـ وا أسفاه ـ أيام الشباب
واصلت دراستى واشبعت ظمأى الى الحكمة
ولم أنحرف عن طريق الصواب
لنعمت اليوم بالدفء فى شيخوختى
ولكن ، كالطير السجين كانت فعلتى
فررت من معهد الدراسة هاربا
وها انذا ادون فوق القرطاس سيرتى
يوشك قلبى ان يتحطم نادما تائبا

ويقول من أرخوا لحياة الشاعر ، انه ما كاد يفرغ من كتابة قصيدته او ملحمته الذاتية ، حتى اطبقت عليه ابواب السجن بتهمة قتله قسيسا ، وحكم عليه بالموت شنقا ، فاسنأنف الحكم وذكر المحامون قضاته بأنه الشاعر الذى كتب تلك القصائد الرائعة فى تمجيد الوطن والحث على الدفاع عنه والتضحية والفداء فى سبيله .. فاستبدل حكم الموت بحكم النفى لمدة عشر سنوات .

ولا يقول لنا المؤرخون ، أين كان هذا المنفى ؟ولا يذكرون شيئا عن نهايته ، والأرجح انه مات فى منفاه فى عام١٤٨٥م ، ونسج خيال الناس عن حياته ، وعن أيامه فى منفاه قصصا تشبه الأساطير ، كونت له شخصية روائية استفاد منها رابيليه الذى سبق لنا أن تحدثنا عنه سابقا ، وهو الذى يعكس لنا صورة صادقة لأدب عصر النهضة فى فرنسا ، بكل حوافز الحرية والانطلاق التى استيقظت فى الآداب والعلوم والفنون بعد سقوط القسطنطينية فى ايدى الأتراك العثمانيين .





فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : **الكتاب العربي السعودي**

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلاً		الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية		الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
• الظمـأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين باسلامة
• وقفـة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحدٍّ		الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي

العنوان		المؤلف
• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا.. ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• هكذا علمني وردزورث	الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

- عام ١٩٨٤ لجورج أوروبل (ترجمة) الأستاذ عزيز ضياء
- مشواري مع الكلمة الأستاذ حسين عبد الحي قزاز
- وجيز النقد عند العرب الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- لن تلحد الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
- الإسلام في نظر اعلام الغرب الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- قصص من طاغور (ترجمة) الأستاذ عزيز ضياء
- أيـامي.. الأستاذ أحمد السباعي
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) الأستاذ عزيز ضياء
- مدارسنا والتربية الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
- دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية) الأستاذ سباعي عثمان
- من حديث الكتب الأستاذ محمد سعيد العامودي
- الموزون والمخزون الشيخ أبو تراب الظاهري
- ألحان مغترب (شعر) الأستاذ طاهر زمخشري
- الشوق إليك (مسرحية شعرية) الأستاذ حسين سراج
- وحي الصحراء الأستاذ عبد الله بلخير، الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود
- لجام الأقلام الشيخ أبو تراب الظاهري
- أصداء قلم الأستاذ محمود عارف
- قراءات في التربية وعلم النفس الأستاذ فخري حسين عزي
- إليهـــا (شعر) الأستاذ حسين سراج
- حتى لا نفقد الذاكرة الأستاذ سعد البواردي
- غرام ولادة (مسرحية شعرية) الأستاذ حسين سراج
- أحاديث الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
- نقاد من الغرب الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- شيء من حصاد الأستاذ حامد مطاوع